العوامل التاريخية
لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية

مصطفى عباس الموسوي

دار الرشيد للنشر

منشورات وزارة الثقافة والاعلام | الجمهورية العراقية

١٩٨٢ | سلسلة دراسات
 | (٢٩٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

وجاء أهل المدينة يستبشرونْ

سورة الحجر ـ آية ٦٧

فهرست الموضوعات

الفصل الثالث :

الفصل الرابع :

المقدمة

أتناول في هذه المقدمة : ١ ـ المامة عن المدينة وماهيتها . ٢ ـ مبررات اختيار الموضوع . ٣ ـ المنهج . ٤ ـ نطاق البحث . ٥ ـ تحليل المصادر .

المدينة ـ كما تقررها المعاجم العربية ـ مأخوذة من مدن بالمكان أي أقام به ـ وهي من المساكن والابنية ـ كما انها ـ في التعريف الحديث ـ حقيقة مادية مرئية في المظهر الارض من حيث الكثافة السكانية والكتلة البنائية والبعد التاريخي والحيثية الادارية .

والمدينة تاريخيا تعد وحدة تشكيلية قديمة خبرها المجتمع الانساني منذ زمن يرجع الى سبعة آلاف سنة . فهي اذن أصيلة ويؤكد هذه الاصالة كل من تناولها بالدراسة ، فالمدينة بحق أعظم منجزات الانسان الحضارية فقد عرفها الانسان المدني منذ الالف الثالث قبل الميلاد .

وعليه ليست المدينة بخبرة جديدة من التفكير الانساني انها قد جاءت ـ كما يعتقد بعضهم ـ نتيجة للثورة العلمية التي نبتت بذورها منذ اكثر من قرن بل هي خبرة قديمة .

ولقد عرفت حضارات الشرق القديم من سومرية وفرعونية أعرق المدن في هذا العالم ، كما عرفتها الحضارات اليونانية والرومانية كذلك ، ومن ثم يمكن ان تقرر

ان العالم القديم كان عالم مدن وان كانت كل مدينة تعد في حد ذاتها عالم قائم بذاته .

وتعتبر المدن في الواقع المعمل الذي يقوم فيه البحث عن الحرية فقد اصبحت قطبا جاذبا للمتطلعين للحياة الحضرية ، ففي المدينة تظهر التطلعات الاقتصادية والاجتماعية الامر الذي خبره الانسان من خلال تاريخه الطويل .

ومؤدى ذلك ان المدينة وهي نتاج لجمهور الانسان ترتبط ترابطا عضويا بطبيعته الساعيه نحو الحرّية ، مما جعلها خير شاهد على منجزاتها الثقافية الكبرى التي حققها بداخلها واكتسبت منها أسس استمرارها . فهي اذن وحدة رئيسية تمثل الخلق الاصلي للجمهور .

وقد اوضحت كشوف علماء الآثار التي تثير الدهشة في مصر والعراق وشمال غرب الهند قدم ظاهرة سكنى المدن ، كما اماطت اللثام كذلك عن دور المدن المهم في تطور الحضارة ، اذ اتاحت الحياة في البيئة الاجتماعية التي استطاعت الثقافة البشرية في كنفها ان تبلغ أقصى ما بلغته من اصالة وتطور ، فلا غرو اذن ان اشتقت لفظتا مدينة ومدنية من أصل واحد ، فنشأت المدن المعروفة في وديان الانهار كوادي الفرات ودجله والنيل والسند حوالي ٣٠٠٠ ق. م أو قبل ذلك بقليل .

اذن المدينة - في ضوء ما سبق - هي ثمرة لتطور تاريخي بعيد المدى نتجت عن غرس مدني نشأ تلقائيا او بمطلب ذاتي ، ادت الى قيام مراكز عمرانية على حواف الانهار في مساحات واسعة في القارتين الآسيوية والافريقية ، فنشأت في الاودية الخصيبة حضارات من اعرق ما عرفه التاريخ كالحضارة السومرية بين الرافدين والفرعونية في وادي النيل والهندية في وادي السند ، وكانت مدن وادي الرافدين من أسبق مدن العالم القديم ظهورا واستقرارا ، حيث شهد العراق نشأة مدن كثيرة وكبيرة ففي جنوبه ازدهرت فيها الحضارة التي تمثل عظمة السومريين والتي لا تزال

بقاياها ماثلة الى الآن كمدينة أوروا لوركاء واربدو ونفركما شهد وسطه أيضا نشأة مدن عظيمة اهمها اكد وبابل وسلوقيه وطيسفون ، في حين شهد شماله على أيدي الاشوريين قيام مدن عديدة كمدينة آشور ونينوي .

ولا يمكننا كذلك ان نقلل من شأن المدن القديمة التي نشأت في احضان الحضارة الفرعونية والفارسية واليونانية وفيما بعد الرومانية حيث قامت في كنفها مدن كثيرة لاسباب سياسية واستراتيجية واقتصادية كروما والقسطنطينية ، كما نشأت فيها مدن تجارية ازدهرت فيها الحضارة كتدمر وجرش وقرطاجنه ، في حين اكتسبت بعض المدن الصفة السياسية في هذا الدور مثل الاسكندرية وانطاكية ودمشق وبيروت وما اليها .

بينما كانت الحياة المدنية الاوروبية تشهد نكوصا ملحوظا في العصور الوسطى الاولى نجد أن حضارة جديدة اجتاحت بلاد الشرق وهي الحضارة العربية الاسلامية ، وكان من الطبيعي ان تنشأ في ظل الدولة العربية طائفة من المدن اخصها بالذكر ، البصرة ، والكوفة والموصل والفسطاط والقيروان وواسط وبغداد وسامرا والقاهرة وما اليها من المدن التي كانت تتمتع بشهرة واسعة في عصر الدولة الاسلامية .

وكان لبعض هذه المدن طابع عسكري مثل البصرة والكوفة والموصل والفسطاط والقيروان ، وبعضها له الطابع الاداري كواسط وبعض منها له الصفة السياسية كبغداد وسامرا والقاهرة وبعض اخر له الصفة الدينية كالنجف وكربلا ، فازدهرت هذه المدن في ظل الحضارة الاسلامية ووصلت سمعتها وشهرتها الحضارية الى أبعد مما وصلت اليه المدن الحديثة وصارت مضرب الامثال في مظاهرها العمرانية وانماطها الاجتماعية ومناشطها الثقافية والفنية . من ذلك ما وصلت اليه البصرة والكوفة وواسط في عصر الامويين والعباسيين والقاهرة في عصر الفاطميين وقرطبة

والزهراء وغرناطة في خلافة الاندلس .

٢ ـ مبررات اختيار الموضوع :ـ

أمور كثيرة من حياتنا الاسلامية في حاجة الى تضافر جهود الباحثين لاعطائها مزيدا من الوضوح لتكتمل الصورة المشرقة التي عرفت بها حضارتنا الاسلامية.

ولعل من أهم هذه الامور دراسة المدن الاسلامية كيف نشأت ؟ وتطورت وتمت الحياة ؟ فيها بألوانها المختلفة سياسية كانت او فنية او اجتماعية او اقتصادية ، فكانت محفزا لاخبار هذا الموضوع هذا اضافة الى مبرر آخر هو افتقار البحوث التاريخية الى دراسة نظامية مدنية اسلامية شاملة من هذا النوع عن العراق مع ان الدراسات الجغرافية والاثرية فيه ما يشجع على ذلك ، ومما يحمز ىيسه على مواصلة مثل هذه الدراسات هو ان العراق تعتبر أقدم مركز لظهور المدن على سطح الكرة الارضية ، حسب ما توصلت اليه التنقيبات الآثارية لحد الآن ، وأضواء هذا القطر على مخلفات عدد من الحضارات والمدنيات الناطقة بالمكانة السامية لتراثه العريق المتنوع بأدواره الحضارية المثله لتطور الانسان منذ اقدم عهود ما قبل التاريخ . كما أن هذه الدراسة الحضرية الاسلامية الحالية التي تعانيها مدننا في الوقت الحاضر ومن ثم تمكننا من استقصاء الحلول العملية لها .

٣ ـ المنهج :

هدفنا الاساسي من هذا البحث ان نجعل البحث في الشخصية الحضرية لم يكن من عمل الجغرافيين والاجتماعيين وحدهم بل هو من مستلزمات البحث عند المؤرخين باعتبار المدينة ـ كما يعرفها الجغرافيون ـ ظاهرة تاريخية مرئية في المظهر الارض يمكن ان تحددها باحساساتنا الخارجية ، فالمدينة اذن هي نتاج امتزاج بعدي

التاريخ والجغرافية ، فدراسة البعد التاريخي للمدن وهو موضوع البحث على قدر كبير من الاهمية ، بكثير من القوانين والضوابط العامة لا يمكن استخلاصها الا من التاريخ ، فالدراسة التاريخية اساس للدراسة الاصولية التي تهتم بها الجغرافية ، كذلك يصعب فهم اي مدينة بدون الخلفية التاريخية ، والدراسة التاريخية هي التي تبين لنا كيف نسجت شبكة المدن الحالية ، كما أن أي محاولة تصنيف أقاليم للمدن لا يمكن أن تغفل العنصر التاريخي ، فالمدينة ـ على حد تعبير لابلاش ـ كالشجرة تربتها الجغرافية وماؤها التاريخ .

ولكن الدراسة التاريخية للمدن ترتبط بالتطور لا الاصول أي انها تصف في تتبع وتركيب ولا تحلل في تفصيل ، فنقدم المادة الخام للدراسة الاصولية وهي تشمل بالضرورة عناصر غير متجانسة كحقائق عن النشأة والتطور .

وليس من شك في ان هذا الفهم للموضوع ، اضافة لما يوضحه موضوع الرسالة كان له آخر الأمر ـ أثره في صياغة منهجه ، اذ وقعت هذه الدراسة الحضرية منهجيا في قسمين حاول أولهما تقديم تمهيد شامل للنشاط الحضري في العراق الذي سبق نشأة المدن الاسلامية بقية ادراك أصالة هذا النشاط فيه . ومن ثم وقع هذا القسم في فصول أربعة :

في الفصل الأول ـ حاولنا الوقوف على مدى أثر حركة الفتح الاسلامي في وضع الاسس الاولى لطائفة من الامصار الاسلامية .

وفي الفصل الثاني ـ محاولة لأثر العامل الاداري في نشأة المدن وكانت واسط ثمرة هذا العامل .

وفي الفصل الثالث ـ دراسة لأثر العامل السياسي في نشأة المدن . فكان تطور السيادة في الاسلام من سيادة عامة الى سيادة اسريه مدخلا لا بديل له لدراسة قيام المدن السياسية في الدولة الاسلامية .

أما الفصل الرابع ـ ففيه محاولة لدراسة العوامل الدينية التي لها تأثيرها في نشأة عدة مدن في العراق حول الاضرحة وحددت بصورة مباشرة خروج هذه المدن من الحتم الجغرافي .

وأما القسم الثاني فقد قصدنا به عوامل تطور المدن الاسلامية في العراق ــ ووقع أيضا في أربعة فصول :

في الأول ـ فيه محاولة للوقوف على مدى أثر العامل الجغرافي ، بوصفه الارضية التي تقف عليها المدينة ، محددا بدراسة الموضع والموقع وعلاقتها المباشرة بتطور المدن .

وفي الفصل الثاني ـ حاولنا الوقوف على مدى أثر العامل الفني في خطط المدن الاسلامية باعتبارها مدخلا لدراسة مدى أثر هذا العامل في تطورها ، وحددنا ـ بصورة مباشرة ـ صور التأثير الحاصل على تشكيل هذه الخطط الناتج من العوامل الدينية والاجتماعية والجغرافية .

وفي الفصل الثالث ـ حاولنا أن ندرس العامل الاجتماعي وأثره في تطور المدن فحددت فيه أثر الهجرات العربية والاعجمية في نمو واتساع هذه المدن .

أما الفصل الرابع ـ ففيه محاولة لدراسة الآثار الاقتصادية على تطور المدن في نواحيها الزراعية والحرفية والتجارية .

وفي ضوء الهدف الذي تمثلناه من دراسة الشخصية الحضرية في رؤية تاريخية

تحدد منهجنا في دراسة تاريخية المدن الاسلامية في العراق ، فكان الاساس الذي قام عليه المنهج في هذه الدراسة ان نتبين في دقة مدى تضافر الدراسة التطورية مع الاصولية في نشأة المدن الاسلامية وتطورها فيه ، فقد قيل بحق ان التاريخ ظل الانسان على الأرض بمثل ما ان الجغرافية ظل الارض على الزمان .

وقد حددنا الفترة الزمنية لدراسة نشأة وتطور هذه المدن بالقرون الثلاثة الهجرية الاولى ولم يكنْ هذا التحديد اعتباطا وانما كانت هذه القرون تمثل مراحل النشأة والتطور والازدهار في تاريخ الحضارة الاسلامية بهذه المدن ، كما أن نشأة سامرا كانت في بداية الخمس الثاني من القرن الثالث الهجري ، وقامت المتوكلية في نهاية النصف الأول منه ، في حين كان تطور النجف وكربلا والكاظمية قد بدأ بعد هذا التاريخ أيضا .

٤ ـ نطاق البحث :

ينظر المؤرخ الى المدينة على أنها ظاهرة متميزة عن غيرها من الظواهر التاريخية الأخرى التي نشأت بسبب أو بآخر على سطح الارض من نواحي متعددة . اذ أنها تمثل أرقى واعقد وأبرز أشكال العمران البشري الذي أقامه الانسان على الارض . وكل مدينة تعتبر بؤره حضريه تجتمع حولها وترتبط بها الانماط العمرانية الاخرى كما أنها تسيطر على النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والادارية والثقافية للاقاليم التي تقع فيها .

يدرس المؤرخ المدن من جوانب متعددة ، فهو يتتبع عوامل نشأتها ودوافع اختيار مواضعها ومواقعها وتأثير ذلك على اشكالها ونموها وبنيتها الداخلية . ويهتم بدراستها أيضا على اعتبار انها ظاهرة تتميز بوحدة اجتماعية حضرية ، محددة المساحة والنطاق ، ومقسمة اداريا ، ويقوم النشاط فيها على الصناعة والتجارة وتقل فيها نسبة المشتغلين بالزراعة وتتنوع فيها الخدمات والوظائف والمؤسسات وتتميز فيها

الأوضاع والمراكز الاجتماعية والطبقية . كما انه يعني بدراستها لكونها ظاهرة اقتصادية ويتتبع الوظائف التي هي سبب نموها وتطورها . ويدرسها من الناحية الجغرافية . ومن هذه الدراسات استقصاء الباحث التاريخي عملية الاستيطان البشري في منطقة معينة من اصولها الأولى ويتتبع التغيرات التي مرت بها من حيث الجوانب السياسية والادارية والمعمارية التي تعنى بتصميم الوحدة المعمارية هندسيا وفنيا .

وقد اعتاد مؤرخو المدن ان يتبعوا نهجين أساسيين في دراستهم للمدن : اما ان يختار الباحث مدينة معينة أو ظاهرة من ظواهرها لدراستها ، أو أن يختار اقليما معينا يركز فيه على دراسة مجموعة من المدن ذات فترة تاريخية محددة ، كما هي الحالة في هذا البحث حيث اختار الباحث العراق موضوع دراسته هذه التي ترمي الى تتبع ظهور مراكزه الحضرية العربية الاسلامية في القرون الثلاثة الاولى من الهجرة محاولا الوصول الى العوامل المختلفة التي ادت الى نشأتها وتطورها وتصنيفها حسب مواقعها واكتشاف التغيرات التي حدثت على بنيتها وتوسعها .

وقد فرضت على طبيعة الموضوع ان امهد لدراسة المدن الاسلامية في العراق من الناحية الجغرافية وأثرها في النشاط الحضري الذي سبق نشأة المدن الاسلامية . مدللا بذلك على ان البيئة الجغرافية العراقية بما تتصف به من ملائمة المناخ وخصوبة التربة ووفرة المياه جاذبة للسكان منذ أقدم الازمنة لذلك ساعدت هذه البيئة على ثورة مدنية فيه انتشرت في جميع انحائه ، كما ان هذه البيئة أيضا كانت سببا في اجتذاب عناصر وافدة كالعيلاميين واليونان والرومان كان لها الاثر في قيام عدة مدن فيه واخيرا وفي عصر الخليفة عمر بن الخطاب عندما اخذت حركة الفتوح الاسلامية في الاتساع ، وقد احتوت هذه الحركة العراق من ضمن فتوحاتها فوضعت فيه الاسس الاولى لطائفة من الامصار الاسلامية وبعدها توالت نشأة المدن بحسب المتغيرات الادارية والسياسية والدينية : وكانت هذه تقام في بيئة جغرافية ملائمة فيها مرفق للرعية .

وتلا هذا التمهيد ، ـ كما مر بنا في دراسة المنهج ـ قسمان ـ الأول : تصدى لدراسة المدن وعوامل نشأتها ، والثاني ـ حاول دراسة عوامل تطور المدن .

ومن حيث القسم الأول فقد اقتصر على دور العرب في حضارتهم الاسلامية على انشاء المدن ، في العراق وتحديد أربعة عوامل أساسية لنشأتها تكونت منها فصول هذا القسم . فتصدى الفصل الأول وهو العامل الحربي لدراسة مصير كل من البصره والكوفة والموصل نتيجة لهذا العامل اذ لا بد من انشاء مراكز عسكرية للسيطرة ولتثبيت دعائم الاسلام وحفظ العرب من أن يختلطوا بالاعاجم فيفقدوا ميزاتهم العسكرية .

ودرس الفصل الثاني مسألة الارباك الاداري أيام الحجاج بن يوسف الثقفي الناتج من ازدواجية الادارة المتمثلة بتنقل الوالي ما بين الكوفة والبصرة ، وانتشار الفتن في المصرين وعزل الجند الشامي مما هيأ جوا ملائما لاقامة مدينة جديدة لتجمع ادارة البلاد في مركز واحد فكانت نشأة واسط تلبية ادارية احتاجتها الولاية في ذلك الوقت .

وعلل الفصل الثالث نشأة المدن التي قامت نتيجة للعامل السياسي بتطور الصراع بين الاسر حول السلطة ، ومن ثم حرصت الاسر التي تنال النجاح على تكوين مدينة تكون مركزا لها ودليلا على انتصارها كانتصار الاسرة العباسية على الاسرة الاموية فنشأت بغداد نتيجة لهذا الانتصار ، والصراع بين الترك والعرب في بغداد فتحولت العاصمة الى سامرا ، كما قامت القاهرة نتيجة لانتصار الاسرة الفاطمية على الاسرة الاخشيدية في مصر .

وناقش الفصل الرابع قيام المدن حول الاضرحة بسبب العامل المديني فاصبحت هذه المدن قطب جذب حضري يتخطى الحتم الجغرافي الذي يؤثر ـ كما مر بنا ـ في نشأة المدن والعلاقات فيما بينها ، فنشأت مدن بسبب هذا العامل كالنجف

وكربلا والكاظمية .

أما القسم الثاني فقد درس عوامل تطور المدن في هذا العصر فمهد لها بان يؤخذ العامل الزمني بنظر الاعتبار عند محاولة تصنيف مدن العراق من حيث النشأة أو الوظيفة او البنية . كما علل المدينة بانها من الظواهر التاريخية تتطور وتنمو تبعا لحاجات وقدرات خاصة تتعلق بفلسفة المكان والزمان ، فدلل على ذلك باربعة عوامل تؤثر على شكل المدينة وتحدد بنيتها هي العوامل الجغرافية والفنية والاجتماعية والاقتصادية ، وهذه العوامل تشكل الهيكل العام لمنهج هذا القسم فهي فصول له .

في الفصل الاول دراسة لاثر العامل الجغرافي في تطور المدن الاسلامية في العراق فالبصرة والموصل نشأت في مواضع هامشية لكنهن لم يكن بعيدات عن المياه فهن في مواقع خصبة ، كما نشأت واسط في منطقة زراعية أيضا ، في حين نشأت بغداد في موقع تتوفر فيه الناحية الاقتصادية والاستراتيجية هذا اضافة الى ملائمة المناخ مما أدى الى بقاء هذه المدن وتطورها الى وقتنا الحاضر .

وفي الفصل الثاني تحليل لاثر العامل الفني في تطور المدن من حيث التغيير الشامل في خطط البصرة والكوفة من الخيام الى اللبن والاجر اي من التنقل الى الاستقرار والانتقال في خطط المدن من التخطيط البسيط كما هو في خطط البصرة والكوفة والموصل الى التخطيط المتميز والمعقد في خطط واسط وبغداد وسامرا ، كما ناقش هذا العامل تطور البنية المعمارية في خطط هذه المدن من حيث الوظائف الدينية والادارية والتجاريه والمدنية والعسكرية واثر العامل أيضا مسألة البيت الاسلامي الذي قضى عليه باسم المعاصرة وحل محله المسكن الغربي ، فحصلت القناعة بان المنزل الاسلامي ملائم للبيئة العراقية ، كما انه يحمل في تصميمه استمرار التراث المعماري العراقي الذي قضى عليه باسم المعاصرة والتجديد .

وتصدى الفصل الثالث لمعالجة اثر العامل الاجتماعي في تطور المدن الاسلامية

في العراق فمهد لها بدراسة العناصر البشرية التي كانت تكون مجموع الشعب العراقي قبل الفتوحات الاسلامية وهذه العناصر هي : الآراميون والعرب والاكراد ، كما ناقش هذا العامل اثر الفتح الاسلامي في اختلاط القبائل العربية بالعراق فكان لهذه الفتوحات أثر كبير في مزج القبائل تحت مظلة الاسلام ، ودرس أيضا أثر المجتمع العربي في تخطيط المدن الاسلامية في العراق ، فتوزعت خطط المدن على القبائل بحسب انتماءتهم القبلية . وتوالت هجرات القبائل العربية لهذه المدن فتوسعت خطط كل من البصرة والكوفة والموصل اما واسط فقد حدد الحجاج الهجرة اليها الا بطلب الدخول اليها فكان نموها بطيئا ، كما استقبلت بغداد هجرات عربية مستمرة فضاقت خططها مما اضطر المنصور ان يقيم معسكر المهدي في شرق دجلة ، في حين اضطر المتوكل في سامرا ان يبني المتوكلية نتيجة للزيادة السكانية . كما ناقش هذا العامل هجرة الاعاجم ، ودورهم السياسي والاجتماعي في تطور المدن العربية الاسلامية في العراق فكان لهم خطط ومنازل في المدن العربية والاسلامية وبخاصة في بغداد وسامرا .

وفصل أيضا مكانة أهل الذمة من نصارى ويهود ونبط في نمو المدن العربية الاسلامية ، فكانت مساكن واكنسة لليهود في كل من الكوفة وبغداد والموصل وكانت للنصارى أديرة وبيع ومساكن منتشرة أيضا في جميع أنحاءبغداد والكوفة والبصرة ، كما كان للنبط مساكن في الكوفة .

أما الفصل الرابع فقد وضح أثر العامل الاقتصادي في تطوير المدن في هذا العصر من خلال الانشطة الزراعية والحرفية والتجارية . فكان لأثر التوسع المدهش من قبل العرب المسلمين في ممارسة الزراعة والصناعة والتجارة قد اوجد يومذاك في العراق شبكة من المدن ، كالبصرة والكوفة والموصل وواسط وبغداد وكربلا وسامرا والنجف والكاظمية بالغة في التقدم تقطنها فئات ثرية من مالكي الارض واصحاب الحرف والتجار الذين عرفوا أحوال العالم يومذاك وامتلكوا الذكاء والجرأة

والاستغلال ، فكانت الهجرة السكانية اليها من جميع اقطار الدنيا نتيجة ليسر الرزق فيها فتحولت تلك المراكز العسكرية الى مجتمعات حضرية نشطة تمارس مختلف الفعاليات المدنية . وقد تمثل هذا التحول في النواحي الزراعية والحرفية والتجارية التي ساعدت على انشاء المدن واتساعها .

تحليل المصادر :

اعتمد الموضوع في دراسته لنشأة وتطور المدن العربية الاسلامية في العراق على مصادر مطبوعة لان معظم المخطوطات المهمة قد حققت .

فهي على نوعين ـ الأول المصادر الأولية ، والثاني ـ المراجع .

في المصادر الأولية : وهي كثيرة ومتنوعة ومادتها غزيرة اغنت البحث بما يحتاجه في قسميه الأول والثاني .

ويتصدر قائمة المصادر الأولية كتاب « فتوح البلدان » للبلاذري ، لأنه حجة في الفتوح والخطط ، والى جانب كتاب فتوح البلدان توجد كتب الحوليات كتاريخ الطبري وتاريخ الكامل لابن الاثير وتجارب الامم لابن مسكويه ففيها معلومات وفيرة اغنت الدراسة وبخاصة في قسمها الاول بالنصوص العسكرية والاجتماعية والسياسية والدينية وفي خطط المدن أيضا .

أما كتب الجغرافية والرحلات ففيها معلومات قيمة عن تحديد مواضع المدن وفي تقسيماتها والتعريف بالمعالم الجغرافية وبالآثار الموجودة بها وقد حفلت هذه الكتب بكثير من المعلومات ذات الشأن عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية الى جانب عنايتها بالمعلومات الجغرافية والعمرانية قد افادت بها قسمي الدراسة ومنها كتاب البلدان لليعقوبي والاعلاق النفيسة لابن رسته والمسالك والممالك لابن خرداذبه ومسالك الممالك للاصطخري ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه وصورة الأرض لابن حوقل

وأحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي ورحلة ابن جبير ومعجم البلدان والمشترك وضعا والمختلف صقعا لياقوت والرحلة لابن بطوطة .

ولكتب الانساب والطبقات والتراجم دور كبير في هذا البحث فقد تضمنت معلومات طيبة عن القبائل العربية التي سكنت الامصار في العراق وعرفتنا كذلك بالشخصيات البارزة في هذا العصر كما تضمن بعضها معلومات عن خطط المدن ، ومن هذه الكتب ـ أنساب الاشراف للبلاذري ، والانساب للسمعاني ، ونسب قريش لابن بكار والطبقات الكبرى لابن سعد ووفيات الاعيان لابن خلكان وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الاثير .

وتتضمن كتب الفقه معلومات قيمة عن الحياة الاقتصادية والفنية فقد استفاد منها العامل الاقتصادي وهو الفصل الأخير في تغذية عناصره الزراعية والحرفية والتجارية ومن هذه الكتب الخراج لابي يوسف والخراج ليحيى بن آدم والاموال لابي عبيد والاحكام السلطانية للماوردي يضاف اليها كتب الحسبة التي بحثت في الحرفيات وتنظيمها واشراف الدولة عليها ، وقد زودتنا بقوائم تفصيلية عن مختلف الصناعات في المجتمع العربي الاسلامي ، واحكام السوق وآدابه وواجبات كل صنف ، وبعض رسومه وتقاليده ، ومن كتب الحسبة « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » للشيرزي ، « و معالم القربة في أحكام الحسبه » لابن الاخوة ، و « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » لابن بسام .

وتتضمن التواريخ المحلية التي نشأت من الاعتبارات الدينية والفقهية ـ على معلومات قيمة عن خطط المدن ونواحيها الاقتصادية والسياسية ، فتاريخ الموصل لابي زكريا الازدي الذي حققه الاستاذ الدكتور « على حبيبه » فيه معلومات خاصة عن مدينة الموصل تحتوي على نصوص في خططها وادارتها ونواحيها الاقتصادية ، وعامة تختص بالنواحي السياسية والادارية عن مدن البصرة والكوفة وواسط .

وتاريخ واسط لبحث فيه معلومات تاريخية استفادت الدراسة منها في نشأة واسط . وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي مادة غزيرة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمدينة بغداد .

وأعطتنا كتب الاخبار الادبيه مادة طيبة لدراسة الحياة الاجتماعية في هذه المدن ، فالادب صورة صادقة ومعبره عن حياة الشعوب الاجتماعية والسياسية والثقافية في مختلف العصور وقد وجدت في هذه الكتب خير عون لي في دراسة الحياة الاجتماعية بهذه المدن ومن الكتب التي اخذت منها في هذا الميدان مؤلفات الجاحظ كالبيان والتبيين والحيوان والتبصر بالتجارة ومناقب الترك وكتاب عيون الاخبار لابن قتيبه والاغاني لابي الفرج الاصفهاني والعقد الفريد لابن عبد ربه .

وأخيرا كتب المعاجم وقواميس اللغة التي امدت الدراسة باشتقاقات ومعاني اسماء المدن ومن هذه المعاجم والقواميس معجم مقاييس اللغة لابن فارس والقاموس المحيط للفيروز ابادي وتهذيب اللغة للازهري والصحاح للجوهري ولسان العرب لابن منظور وأساس البلاغة للزمخشري ومعجم البلدان لياقوت . وتاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي .

هذا الى جانب ما كتبه الدارسون المحدثون من عرب واجانب الذين تكون كتبهم المراجع التاريخية والجغرافية لهذه الرسالة . ومن الكتب التاريخية : « مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة » لطه باقر ، و « مدن العراق » ليوسف غنيمه ، و « مدن العراق القديمه » « لدروني مكاي » ، « وايران في عهد الساسانيين » لكرستنسن ، « والمدينة على مر العصور » ، لممفورد ، « وعروبة المدن الاسلامية » للدكتور ناجي معروف ـ قد امدت التمهيد بمعلومات قيمة عن نشأة وتطور المدن القديمة في العراق وصولا بها الى نشأة المدن الاسلامية .

ومن الكتب التاريخية التي استمد العامل العسكري مادته منها (الجزء الأول

من موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية) للاستاذ الدكتور احمد شلبي و (الجذور التاريخية للقومية العربية) و (مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي) للدكتور عبد العزيز الدوري ، و (سيناء المصرية عبر التاريخ) لابراهيم امين غالي . وخطط الكوفة » لماسنيون ، « « وتاريخ العراق في ظل الحكم الأموي » للاستاذ الدكتور علي حسني الخربوطلي ، « وتاريخ الدولة العربية » لفلهاوزن و« معجم الأنساب والأسرات الحاكمة » لزمباوري الذي أفاد الرسالة في تتبع الحكام وضبط السنين الهجرية والميلادية .

وحصلت الرسالة على معلومات وفيرة امدت بها العامل السياسي من كتب تاريخية حديثة ككتاب تاريخ العرب لفيليب حتي وبغداد في عهد الخلافة العباسية للسترنج وبغداد مدينة السلام لريجاد كوك وحضارة الاسلام في دار السلام لجميل نخلة المدور والجزء الثالث من موسوعة التاريخ والحضارة للدكتور احمد شلبي الذي تتبع بحس تاريخي مؤامرات الترك في سامرا .

واستفادت الرسالة في فصلها الرابع وهو العامل الديني من كتب انتصار الحضارة لبرستد وعالم العصور الوسطى لكولستسون وماضي النجف وحاضرها وفيه معلومات قيمة عن مدينة النجف .

وفي القسم الثاني اعتمدت الرسالة في الحصول على نصوصها التاريخية من كتب اسواق العرب في الجاهلية والاسلام لسعيد الافغاني والنظم الاسلامية لديموين والحضارة الاسلامية لبارتولد وتاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان والتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة للدكتور صالح احمد العلي والحيرة ومكة لكستر وظهر الاسلام لاحمد امين واهل الذمة في الاسلام لتريبتون والحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز وفيه معلومات عن النواحي الاجتماعية والاقتصادية قد غذت الفصلين الثالث والرابع من القسم الثاني بنصوص مهمة .

أما الكتب الجغرافية فقد هيأت نصوصا مهمة في الدراسة التمهيدية والقسم الثاني من الرسالة وبخاصة العامل الجغرافي ـ ومعظم هذه الكتب أجنبية ـ ومن هذه الكتب(الموقع الجغرافي للعراق واثره في تاريخه العام حتى الفتح الاسلامي) للدكتور ابراهيم .شريف وجغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية للدكتور جاسم الخلف وجغرافية العراق التاريخية للدكتور محمد رشيد الفيل وبلدان الخلافة الشرقية للسترنج الذي أمدت نصوصه الجغرافية الاقتصادية معظم فصول الرسالة ـ وجغرافية المدن للدكتور جمال حمدان الذي يعتبر من الكتب المتخصصة في دراسة نشأة المدن وتطورها ، ففي هذا الكتاب ذخيرة طيبة تخدم الجغرافي والمؤرخ الذي يبحث في المدن ، فهو يبحث في مقدمته تعريف المدينة وفي بابه الاول وظائف المدن ودرس توزيع المدن في بابه الثاني كما عالج بيئة المدن الاقليمية في بابه الثالث ، والذي يقرأ هذا الكتاب يحس بان بدن جغرافيته يتحرك بروح تاريخية وان مادته الجغرافية بلا مبالغة تتكلم بلسان تاريخي فهذا الترابط العضوي في العلاقات المكانية والزمانية في مادة الكتاب جعل منها مصدرا موثقا امد الرسالة بمعلومات غنية بالنصوص عن النشأة والموضع والموقع والوظيفة .

ومن كتب الجغرافية الاجنبية التي اعتمدت عليها الرسالة كتاب The origin of cities لآدم الذي دلل على ممارسة الانسان للري كان له أثر بعيد في الحياة القروية وظهور المدن ، كما ضمن بعض المدن القديمة في العراق وكتاب Reading in urban Geography قراءات في جغرافية المدن لماير ، وكتاب جغرافية الحضر تحت مقدمة تحليلية لجونسون Urban Geography on introductory Analysis وكتاب المدن لامريز جونز Towns and cities وكتاب جغرافية الحضر لشابو Urban Geography

في هذه الكتب ذخيرة طيبة من المعلومات عن الموضع والموقع وعن التركيب الوظيفي والبشري وخطط المدن وتركيبها البنائي وقد يعنى بعضها بدراسة التطور التاريخي للمدن ، كما تعنى أيضا بدراسة طبيعة المدن والعوامل المؤثرة في نموها ، في

حين يوضح بعضها الى ان الحاجة للحياة تشير الى احد الامثلة الحية لعناصر الربط البيئية بين المدينة والقرية ، وهذه المعلومات بلا شك دخلت كنصوص مهمة في الرسالة للتدليل على أثر الموضع والموقع والخطط في تطور المدن الاسلامية .

كما ينبغي أن لا ننسى البحث الميداني الذي تؤخذ منه المعلومات على الطبيعة وكان للمعالم الاثرية المتبقية من العمارة الاسلامية والعربية في كل من البصرة والكوفة وواسط وسامرا والحضر أثر مهم في تغذية الرسالة بمعلومات موثقة عن العمارة الاسلامية ومدى تأثرها بالاساليب المعمارية المحلية او الوافدة .

هذه اهم المصادروالمراجع التي اعتمدناها ورجعنا اليها وظلت ورائها مصادر ومراجع ليست بالقليلة لم نعرض لها هنا اكتفاء باثباتها في هوامش البحث وادراجها في الثبت الاخير الذي تفرض علينا التقاليد العملية ان نختتم به دراساتنا الجامعية .

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

أ ـ البيئة الجغرافية وأثرها في الاسكان الحضري في العراق :

تتحدد البيئة الجغرافية لأي بلد أو اقليم بقسمين متميزين هما السطح والمناخ ـ فلا بد لي هنا ـ وأنا أبحث في عوامل نشأة وتطور المدن الاسلامية في العراق ـ أن أمهد لها بدراسة هذين القسمين ، لكي أقف على مدى تأثيرهما على نشأة وتطور هذه المدن .

(١) السطح :

يشغل العراق بين جهات الشرق الأوسط في آسيا القسم الجنوبي الشرقي من حوض واسع ، يمتد محوره الطولي بين الشمال الغربي وبين الجنوب الشرقي ، وينحدر سطحه انحدارا عاما على هذا الاتجاه الأخير[١] .

وقد كونت العوامل الباطنية والظاهرية سطح العراق ، كما كونت سطح اي قطر آخر ، فجبال العراق نشأت بسبب التواء في قشرة الأرض وسهله الرسوبي نشأ أيضا من التواء مقعر واسع ملأته فيما بعد ترسبات الأنهار والوديان ، وقد أثرت بصورة عامة في سطح العراق عوامل التعرية من مياه جارية ورياح وغير ذلك[٢] .

---

(١) د . ابراهيم شريف ـ الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الاسلامي ١/ ٥٦ .
(٢) د . جاسم الخلف ـ جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية ص ٢٧ .

وعندما بـدأ تعمير أرض العراق بالسكان ومن ملاحظة خارطة العراق الطبيعية (شكل ـ ١) يتبين لنا أن سطحه يختلف في الشمال عنه في الجنوب ، وفي الشرق عنه في الغرب ، وأنه يحتوي على أنواع عدة من التضاريس ، وأن أراضيه تتفـاوت في ارتفاعها من بضع سنتيمترات فوق سطح البحر الى ٣٦٠٠ متر[١] . وعليه فيمكننا تقسيم سطح العراق بصورة عامة الى أربعة اقسام هي :

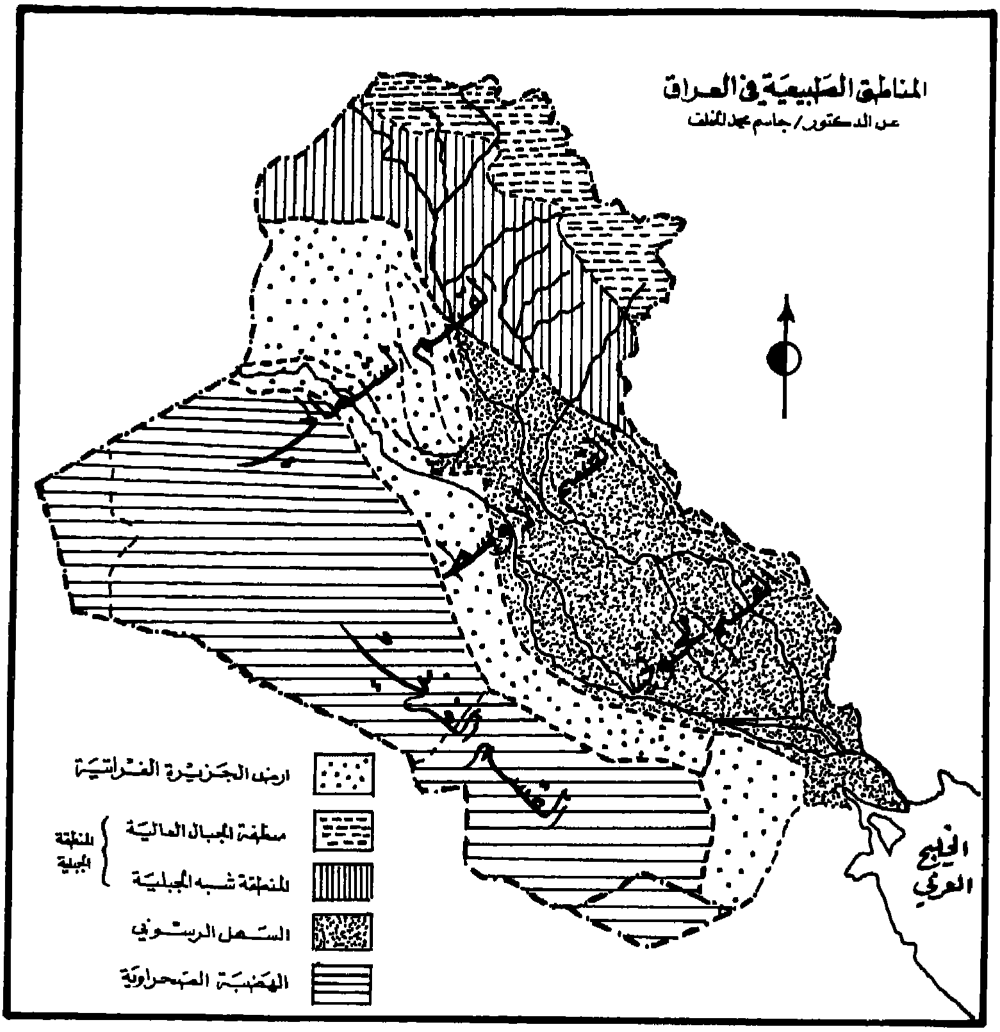
١ ـ القسم الشمالي
٢ ـ القسم الأوسط
٣ ـ القسم الجنوبي
٤ ـ القسم الغربي

كان القسم الشمالي من سطح العراق يتضمن منطقتين شرقية وغربية يفصل بينهما نهر دجلة ، تكون المنطقة الشرقية منه والتي تقع شرق نهر دجلة سلاسل جبلية وعرة ضيقة المسالك ، تخرج منها أحواض مائية عديدة ، تنحدر نحو نهر دجلـة ، وتغذيه بالمياه طول أيام السنة ، وتمتد على حافاتها أشرطة سهلية ضيقة تعيش عليها جماعات بشرية صعبة المراس، تمارس الزراعة والرعي كونـت فيما بعـد الحضـارة الآشورية[٢] .

في حين يشغل المنطقة الغربية من هذا القسم اقليم الجزيرة وهو سهل واسع ترجع تكويناته السطحية الى عصر البلايستوسين (ك) وتقع غرب نهر دجلة وشمال نهر الفرات ، وبعد وادي الثرثار المصرف الرئيسي لمياه هذا الاقليم[٣] .

---

(١) د . جاسم الخلف ـ جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية ـ ص ٣٧ .
(٢) د . محمد رشيد الفيل ـ حعرافية العراق التاريخية ـ ص ١٣ .
(ك) ترمز هذه العلامة لكل مصطلح ورد في هده الرسالة ، وقد أفرد لشرح هذه المصطلحات كشاف في آخر هذه الرسالة .
(٣) د . جاسم الخلف ـ جغرافية العراق ـ ص ٥١ .



المناطق الطبيعية في العراق
عن الدكتور/ جاسم محمد الخلف
الخليج العربي
ارض الجزيرة الفراتية
منطقة الجبال العالية
المنطقة شبه الجبلية
المنطقة الجبلية
السهل الرسوبي
الهضبة الصحراوية

شكل (١)

ومما يلفت الانتباه أنه عند التقاء بعض الوديان بوادي الثرثار في أرض الجزيرة ، قامت مدينة الحضر ، وقد كانت عاصمة لمملكة عربية لعبت دورا مهما في تاريخ العلاقات السياسية والاقتصادية بين الفرس البارنتي وبين الرومان وذلك قبل أن يقضي عليها في اوائل العصر الساساني[1] في حين قامت مدينة آشور عند مصب وادي أم الشبابيط في نهر دجلة على طرف الجزيرة الشرقي ، ومن المعروف ان مدينة آشور كانت اولى العواصم الآشورية[2] .

أما القسم الأوسط من هذا السهل ، فكان يشغله مستنقع كبير ، أخذت بعض أجزائه تمتلىء بالرواسب تدريجيا وخصوصاً بعد أن تحول نهر الفرات في بدء العصر التاريخي أي بحدود ٣٥٠٠ ق.م .من مجراه المتطرف نحو الغرب الى مجرى متطرف نحو الشرق ؛ وقد نشأت على أوديته حضارتا اكد وبابل[3] . كما أقام المسلمون عند فتحهم للعراق الكوفة في هذا القسم من سطح العراق ، في حين انشأ العباسيون بعد ذلك مدينتي بغداد وسامرا على نهر دجلة في هذا القسم أيضا .

ويشغل القسم الجنوبي من هذا السطح سهل فيضي ، سكنه السومريون وكونوا فيه حضارة متميزة[4] في حين أنشأ الأمويون واسطا بشماله ، وفي جنوبه توجد بحيرة صغر حجمها بفعل ترسبات نهري دجلة والفرات تقع بين مقدمات مرتفعات هضبة ايران من جهة وبين مقدمات هضبة بلاد العرب من جهة اخرى ، وتفصل بينه وبين أرض حديثة التكوين على جانبي شط العرب[5] ـ نشأت عليها البصرة عند الفتح الاسلامي لهذه المنطقة .

---

(١) كرستنسن ـ ايران في عهد الساسانين ص ٣٧ . .
(٢) دروفي مكاي ـ مدن العراق القديمة ص ١٠٥ .
(٣) طه باقر ـ مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ـ ١/ ١٠٣ .
(٤) المصدر نفسه ـ ١/ ١٠٤ .
(٥) فلاتين ـ عرب الاهوار في جنوب العراق ـ ص ٢١ .

أما القسم الغربي من سطح العراق فيقع غرب الفرات ، وتسمى بالبادية وهي جزء من بادية الشام ، حيث تمتد على طول الجانب الأيمن من وادي الفرات ، ويتصل العراق عبرها بالشام وبشبه جزيرة العرب ، وبعالم الخليج العربي من جهة الجنوب[1] ، وهي نطاق من الصحراء تنحدر نحو هضبة بلاد العرب ، ومع هذا الانحدار تسير وديان صحراوية ، يتوفر فيها الماء بعض الوقت عقب سقوط الأمطار في فصلي الشتاء والربيع ، حيث تنتشر المراعي ، ولهذا فانها تمثل خلال هذه الفترة من السنة أصلح المسالك لعملية الاتصالات بين الشرق والغرب أي بين وادي الفرات من جهة وبين بعض مراكز العمران في داخل هضبة العرب من جهة أخرى[2]

كما كانت تعيش عليها قبائل عربية تتجول في ارجائها تمتهن الرعي ولها نزالات عسكرية ناجحة مع الغاصبين الفرس الساسانية لأرض العراق ـ الذي حدا بالسلطات الساسانية أن تهيىء حاميات عسكرية لصد هجمات هذه القبائل واستمر هذا الوضع الى فرض دخول الحملات العسكرية العربية الاسلامية عبر هذه الصحراء تمهيدا لتحرير العراق ، فسارعت تلك القبائل المتجولة في صحراء غرب الفرات للانخراط بين صفوف هذه الحملات .

ويبدو أن لهذه القبائل المندفعة من صحرائها بشكل غارات مستمرة على مواضع الساسانيين العسكرية منها والعمرانية في العراق أثر بالغ في اضعاف الساسانيين عسكريا وسياسيا امام حركة الفتح العربي الاسلامي وانسيابها نحو الشرق مما أكد لها النصر في جميع الوقائع الحربية التي دارت رحاها على أرض العراق ، وفي ايران موطن الفرس على الساسانيين معروف لهم بعد ذلك ايضا .

---

(١) د . ابراهيم شريف ـ الموقع الجغرافي للعراق ـ ٥٧/١ .
(٢) المصدر نفسه ٥٨/١ .

(٢) المناخ :

كانت الاحوال المناخية السائدة في سهول العراق الوسطى والجنوبية والصحارى التي تجاورها في غرب الفرات واقليم الجزيرة جاذبة للحياة البشرية ، وذلك لجودة مناخها[١] .

في حين كانت الأحوال المناخية السائدة في كثير من أجزاء الهضاب الشمالية تجعلها طاردة لسكانها ، وذلك لسوء المناخ فيها ، وبخاصة عند حلول الجفاف ، ومن ثم تأثر حالة التربة بهذا النوع من المناخ في منطقة الهضاب ، مقابل توفر امكانية زراعة التربة في سهل الرافدين وسط وجنوب العراق وأرض الجزيرة ، فلا بد ان يترتب على ذلك خروج هجرات بشرية منها تجتذبها مناطق السهول[٢] . وليس ببعيد أن أصحاب حضارات ما قبل التاريخ في العراق وربما السومريون أيضا قد جاءوا اليه أثناء تلك الهجرات .

ويبدو من هذا العرض الجغرافي المقتضب ، أن بيئة العراق الجغرافية ذات طاقة كبيرة في قبول السكان واعالتهم انعكس مناطق الشرق الأوسط الأخرى ، فكانت قابلياتها الانتاجية محدودة بالنظر لصغر مساحاتها وعدم ملائمة الظروف البيئية للانتاج الزراعي ، لذلك كانت مسألة جذب السكان اليها محدودة .

فاعتقد على ضوء تلك العوامل المناخية والفيزيقية المتميزة ، وجد الانسان في العراق مأوى يحتمي به من قسوة الطبيعة وأرض منتجه يعتمد عليها في ممارسة عمله وانتاجه وتفكيره . وهذه البيئة شبيهة الى حد بعيد ببيئة وادي النيل ، فقد نتج عنهما أولى الحضارات في العالم ونموها على مدى الزمن .

---

(١) د . رشيد الفيل ـ جغرافية العراق التاريخية ص ٧٢ .

(٢) P — Burirrgh , Living Conditions in the Lower Meropotamian , Plain Ancient times , Summer , Vol - XIII - P . 10 .

وعلى هذا الأساس فان صفات العراق الطبيعية التضاريسية منها والمناخية ، وموارده المائية ، وموقعه الجغرافي ، اضافة الى الوحدات التاريخية والبشرية ما هي الا عوامل أثرت الى حد بعيد في جعل هذا القطر مواطنا قديما للانسان ، والحضاري وظهور طلائع المستوطنات والقرى القديمة وقيام الحياة الحضرية . كما أن ممارسة الانسان للري في هذا الاقليم وبخاصة في سهوله الفيضية ، وأدى بالزراعة الى تحول تكنولوجي كان له أثر بعيد في الحياة القروية وظهور المدن[1] .

ب ـ ظهور المدن القديمة في العراق خلال فتراته السياسية قبل الفتح الاسلامي :

ان مسألة نشأة المدن في العراق لم تكن ظاهرة فجائية بل سبقتها مرحلتان : اتصفت الأولى بتركيز جهود الانسان لاستغلال امكانات وموارد البيئة في محاولته للبقاء ، فدفعته الحاجة لاختراع الآلات والتوصل الى بعض الفنون ، فاتسعت نتيجة لذلك القرية الزراعية في حدود ٦٠٠٠ ق . م ، فهي يغلب عليها التفاعل بين الانسان وبيئته الطبيعية . أما المرحلة الثانية فقد تميزت بالتركيز على تفاعل الانسان وبيئته الطبيعية . أما المرحلة الثانية فقد تميزت بالتركيز على تفاعل الانسان مع البيئة الاجتماعية أكثر من تفاعله مع بيئته الطبيعية ، فيها ظهرت طلائع المدن الأولى ، وأصبحت دلائل التحضر واضحة حوالي ٤٠٠٠ ق . م ، ومن هذه المدن جمرة نصر وأورك واور واوما ولكش ، وقد أصبحت هذه المدن فيما بعد ذات كيانات سياسية

(١) Robert - M - Adams , «The origin of cities - PP . 4 - 6 .»

مستقلة ، خاضعة لحكام محليين في حدود ٣٠٠٠ ق .م الى ٢٥٠٠ ق .م على وجه التقريب . وهــذا ما يسمــى تاريخيا بعصر فجــر الســلالات أو دويلات المدن السومرية ، وكانت دويلات المدن هذه تتنازع فيا بينها على السلطة السياسية وعلى مياه الري التي كانت يعتمد عليها وجودها الاقتصادي . ولم تتوحد البلاد وتنتقل من طور دويلات المدن المتفرقة المتنازعة والى طور حكومة المملكة الموحدة الا في أواخر هذا العصر ٢٢٥٠ ق .م عندما تمكن سرجون الاكدي من القضاء على آخر دويلات المدن السومرية وتوحيد القطر في مملكة واحدة شملت جميع العراق[١] .

وقد شابهت العناصر الأصلية في نظام الملكية وانشاء المدن بين الاغريق ما هو موجود في العراق من مدن ، ولكن مع الفارق ، وذلك أنه في بلاد الاغريق كانت وفرة الموانع الطبيعية التي يسهل الدفاع عنها تقلل من ظروف الاعتماد على الحـذق الهندسي ، فكانت حفنة من الرجال الشجعان تستطيع الصمود في الدفاع عن ممـر جبلي امام جحافل تبدو ساحقة بكثرتها[٢] .

ان هذا النمط الحضري القديم الذي ظهر في هذه المنطقة من العالم لا يمكن أن يفهم بوضوح الا بالاشارة المفصلـة الى الظـووف السابقـة التـي اتصفـت بهـا العراق ، منها انتاجية الزراعة الاروائية العالية التي يمـكن الاعتماد عليهـا لتقـويم القرية والحياة الريفية وتصدير الفائض منها الى المدينة ، كما أن التحسينـات التـي ظهرت في مجال الزراعة وتربية الحيوانات التي أنجزتها حضارة العصر الحجـري ، وخاصة زراعة الحبوب الصلبة التي يمكن أن تنتج بكثرة وتحفظ لمدة طويلة بدون تلف كبير ، كانت عاملا آخر في ظهور المدينة من القرية[٣] .

---

(١) طه باقر ـ مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (العراق) ١/ ١٠٣ .

(٢) لويس ممفورد ـ المدينة على مر العصور ١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ـ ترجمة ابراهيم نصحي .

(٣) Lewis . Mumford , The Natural history of urbanzation . P .383

مما سبق يتضح ان من خلال خزن الفائض من المنتوج ، وفتح القنوات ، وتنظيم الري ، وبناء الطرق ، والهجرة وغيرها من الفعاليات الحضرية الأخرى ، قد بررت المدينة وجودها ، وبالتالي ساعدت على التقليل من سيطرة البيئة على الانسان ، وحمت المجتمع من المؤثرات الطبيعية القاسية ضده . ان هذه الوظائف وغيرها كان من الصعب على جماعة صغيرة الحجم ، وعلى مستوى القرية أن تنجزها .

ولكن على ما يبدو أن طلائع المدن القديمة التي من المناسب أن توصف بمولد الحضارة في العراق خاصة قد حافظت على علاقاتها التقليدية بالزراعة التي تجدها في القرية ، لذلك فمن المعقول أن نطلق عليها مصطلح (المدن الزراعية) حيث كان المصدر الرئيسي لغذائها يأتي من الأرض التي حولها . والى أن تقدمت وسائل النقل والمواصلات وتطور نظام السيطرة المركزية ، لم تستطع تلك المستوطنات أن تنمو خارج مناطق تجهيزات مياهها وموارد طعامها المحلية ، هذا يعني أن أحد ضوابط التحضر كان القرب من مورد مائي دائم وتربة خصبة ، لذا فان ميل المدن للنمو على طول الأنهار كان شيئا طبيعيا لاستعمال مياه الأنهار للزراعة وللنقل ولأغراض أخرى .

وخلال الدور اللاحق لعملية التحضر ، بدأ التخصص التكنولوجي ، فمارس الانسان التعدين ، وتقدمت وسائل النقل التي سهلت التبادل التجاري والتفاعل بين جميع أشكال الاستيطان البشري ومن بينها المدن ، وقد أدى هذا التطور الى التقليل من اعتمادالمدينة على مواردها المحلية واتساع نفوذها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي . فظهرت نتيجة لذلك المراكز الحضرية التي يمكن أن يطلق عليها اسم « المدن » وذلك في حدود ٢٢٥٠ ق . م مثل أور واكد وبابل

ودوركاريكا لزو وآشور ونينوى[1].

وعند ظهور هذه المدن أصبح من الممكن الاشارة الى بعض المقاييس، التي اقترحها الباحث(جايلـد) التي تنقلت بالتفريق بين القرى والمدن القديمـة وهـي : تقسيم العمل أو حجم السكان ، واستعمال الكتابة ، والاختراعات العملية ، وجمع الضرائـب ، والمبانـي العامـة ، والتجـارة الخـارجية والتـركيب الطبقـي الاجتماعـي[2] وأضيف[0] الى هذا أن جميع العنـاصر الأخـرى التـي تؤدي الى تكسية الموضع الطبيعي للمدينة من قبيل الانسان بظواهر اصطناعية تشمل المراكز الدينية والجسور ، والمساكن الثابتة ، والطرق المعبدة ، ومخازن المياه ، ومشاريع الرعي ، فانها في الواقع تقلل من اعتماد المدينة على الأرض مباشرة وبالتالي تزيد من سيطرة الانسان على بيئة .

ويبدو أن هذه المدن كانت تمثل ظاهـرة جديدة في مجـرى عملية الاستيطـان البشري ، فان سكان لكش وخفاجي قد قدرت نفوسها بـ ١٩,٠٠٠ و ١٢,٠٠٠ نسمة على التوالي وذلك خلال الألف الثالث قبل الميلاد ، ولم تصلنا الا تخمينات أيضا عن مساحة مواضع بعض منها ، فمثلا كانت بابل تمثل موضعا لا يزيد عن ثلاثة أميال مربعا وأوروك لا تعدو مساحتها عن ميل مربع) واور حوالي ٠,٣ ميلا مربعا[3] .

وعلى الرغم من خطورة التصميمات في ما يتعلق بالبيئة الداخلية لهذه المدن ، الا أن الحفريات الأثرية التي اجريت في بعض المواضع بالعراق تشير الى أن هناك

(١) ل ـ ديلا يورت ـ بلاد ما بين النهرين ص ٥٠ ترجمة محرم كمال .
(٢) جوردون جايلد ـ ماذا حدث في التاريخ ص ٦٧ .
(٣) Adams — The origin cities - PP .7 - 8 .
(٠) والقرآن الكريم يدقق في مسألة القرية والمدينة سأبينها في ملحق بآخر الرسالة .

تفاصيل عامة تشترك بها بعض المدن القديمة وعلى أساسها استطاع الباحث أدمز Adams أن يقدم لنا التعميم الآتي[1] : تمثل المباني العامة كالمعابد والقصور قلب المدينة القديمة وتعتبر هذه المؤسسات البؤرة (المركز) التي تتوجه اليها أنظار السكان ، ومنها تتفرع الطرق العامة . تقع دور الطبقة الغنية من السكان على امتداد هذه الطرق الرئيسية ، وتتصف باتساع مساحاتها وتعدد غرفها ومرافقها . أما أحياء الطبقة الفقيرة ، فانها تقع خلف الاحياء السكنية ، وهي ذات دور صغيرة المساحات ، وتتخللها أزقة ضيقة ملتوية ، وتتركز المناطق التجارية في العادة ، على واجهات الأنهار القريبة أو على أبواب المدن ، وفي الغالب كانت تلك المدن تحاط بالأسوار والخنادق لحمايتها من هجمات القبائل المتجولة ، وأطماع الحكام المجاورين . وتجاور المدن القرى الزراعية وأخيرا تظهر الأراضي الصحراوية التي يتجول فيها الرعاة .

ويشير الباحث الاثاري طه باقر ، على أن دولة المدنية في عصر فجر السلالات بالعراق ، كانت تتألف من جملة مجتمعات أو حارات معبدية (أي تتمركز حول معبد معين) فمثلا تذكر ألواح الطين في مدينة لكش ، زهاء عشرين معبدا ، واظهرت التنقيبات في مدينة خفاجي خمسة معابد . وقد قدرت نفوس حارة أحد المعابد في لجش بزهاء ١٢٠٠ نسمة[2] .

أما فيما يتعلق بتكوين دور السكنى ، فقد أظهرت التنقيبات الأثرية نماذج لدور السكنى من مختلف عهود العراق القديم أو من بين ذلك عصر فجر السلالات . فكانت البيوت تبنى من اللبن ، وهي الأغلب مؤلفة من طبقة واحدة ، ويحتوي كل بيت على جملة حجرات تتوسطها الساحة المكشوفة ، وقد وجد أحد هذه البيوت في

---

(١) طه باقر - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ١/ ١١١ .

(٢) Adams - The origin cities - P . 12 .

خفاجي وهو ذو خمس حجرات صغيرة تبلغ مساحته نحو (١٠ م× ٦,٥ م) وآخر أكبر منه ذو عشر حجرات مساحته (٣٠ م × ٢٠ م) وقد عقد بعض أبوابه بالعقادة على شكل أقواس صحيحة ، والعادة أنه يوجد في البيت شبابيك[١] وأن أغلب هذه المظاهر قد اتبعت في مساكن المدن الاسلامية .

وكثيرا ما كانت المباني تزين من الخارج بالنقوش أو الأعمدة المربعة والأبواب الخشبية المكسوة بالمعدن وما شابه ذلك من فنون الزخرفة[٢] .

ان ظاهرة التباين في استعمالات الأرض داخل المدن تدلنا على أن المدينة الواحدة كانت تجمع في الغالب ، بين عدد من الوظائف التي تخدم بها سكانها المحليين بالاضافة الى الجماعات البشرية المحيطة بها . وتشمل هذه الوظائف على الوظيفة الاقتصادية ، والدينية ، والسياسية ، والحربية[٣] ، ومن الطبيعي أيضا أن تبرز احدى هذه الوظائف على غيرها في بعض المدن ، مما يشجعنا على الافتراض بأن هناك مدنا تركز بالدرجة الأولى على احدى الوظائف دون غيرها . وعلى هذا الأساس يمكن الادعاء ان كونها ونفر ، واريدو ، وكيش ، واوروك ، كانت مراكز للتلقين الديني . ومن الصفات البارزة لهذه المدن ، اضواؤها على الهياكل الدينية ، ومقرات الالهة والمعابد والزقورات . كما أن هذه المدن كانت موضع احترام الملوك والحكام في كل عهودها ، ولم تتأثر مراكزها بالعداء والتنافس الذي كان يدور بين اولئك الحكام لأهميتها الدينية .

وهناك طائفة أخرى من المدن القديمة وجدت بالدرجة الأولى أو وجهت لتكون حصونا وعواصم في نفس الوقت ، كما كانت الحالة في مدينة اكد سنة ٢٢٥٠

---

(١) طه باقر ـ مقدمة في الحضارات القديمة ١/ ١١٣ ـ ١١٤ .
(٢) ل . ديلابورت ـ بلاد ما بين النهرين ـ ص ٢٠٩ . ترجمة محرم كمال .
(٣) جوردون ايست ـ الجغرافية توجه التاريخ ص ٨٠ ـ ترجمة جمال الدين الدناصوري .

ق . م . وقد دعت وظيفتها ـ وهي عاصمة الاكدين ـ ان تحاط المدينة بجدارين منيعين وقناة[1] . ومن الأمثلة الأخرى على المدن العسكرية تلك القلاع المنيعة التي شيدها الآشوريون في شمال العراق ، في أماكن مرتفعة مثل اربيل وكركوك والعمادية وغيرها[2] .

أما بابل فانها خير مثال على المدن المتعددة الوظائف . اذ كانت تقوم بوظيفة سياسية وعسكرية ، وكانت كذلك مقرا دينيا وعلميا في وقت السلم زيادة على كونها ملتقى التجار ، ولهذا فقد كان عليها أن تقدم الوان من النشاط التجاري . ولهذا الصنف من المدن القديمة يمكن ضم آشور ، وتينوني وبعض المدن الكبرى الأخرى بالنسبة لمدن ذلك العصر[3] .

وقد اندثرت معظم المدن القديمة في العراق ، أما بسبب تغيير مجاري الانهر أو بسبب الحروب المنافسة بين حكامها ، أو لهذا وذاك ولأسباب متعددة بشرية وطبيعية ، ولم يبق منها سوى الآثار[4] . أما المدن الأخرى فان بقاياها لا تزال ماثلة للعيان وعاشت على نفس الموضع وتحركت عنه قليلا ، وأعيدت بنيتها وخططها ، وقبعت بأشكال حضرية عدة مرات خلال تاريخها الطويل وأصبحت أساسا لبعض المدن الحالية في العراق ، ومن هذه المدن يمكن ذكر كركوك واربيل والموصل والشرقاط وسنجار وتلعفر ودهوك والعمادية وعانة وهيت وكويسنجق وبدره والحلة (بابل) والبصرة والحي (واسط) والكوفة وسامرا وأخرى غيرها[5] ونجد أن هذه المستوطنات

(١) دروني مكاي ـ مدن العراق القديمة ـ ص ٢٦ ترجمة يوسف يعقوب مسكوني .

(٢) يوسف رزق الله غنيمة ـ مدن العراق ـ ص ٢٦ .

(٣) دورين مكاي ـ المصدر السابق ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٤) Seton Loyed - Foundation in The dust - P - 87 .

(٥) يوسف رزق الله غنيمة ـ مدن العراق ص ٢٨ .

والمدن القديمة تضم حاليا بقايا أثرية تعود الى مختلف الأطوار المضمارية التي مر بها العراق خلال تاريخه الطويل .

جـ ـ الفترة الكلاسيكية ـ ٥٣٨ ق . م ـ ٦٣٨ م (عصر الخضوع) شكل (٢)

توالت على العراق في هذه الفترة قبل الفتح الاسلامي شعوب مختلفة وأصبح هذا القطر عدة مرات ، منطقة أو ولاية تابعة لعدد من الامبراطوريات ، فقد خضع للفرس في فترات مختلفة ، وأصبح تحت حكم السلوقين اليونان كما خضع جزء منه لنفوذ الرومان(١) .

فقد كانت أول مرحلة يحكم فيها الفرس العراق في زمن الماذين وبعد أن وحد كورش الفارس الشعبين الماذي والفارس المرتبطين بلحمة النسب ، فاستطاع ان يؤسس الدولة الاخمينية(٢) ، وأصبح العراق آنذاك ولاية ضمن الدولة الفارسية للفترة التي امتدت من ٥٣٩ ق . م ـ ٣٣١ ق . م . وبالرغم من أن هذه الفترة الزمنية دامت ٢٠٨ سنة ،نجد ما وصلنا من المعلومات عنها قليل . ولذلك فمن الصعب الاشارة الى الأثر الذي احدثته في نشوء المدن وأعمارها .

أما الفترة السلوقية اليونانية التي تلت الفرس الاخمنين في حكم العراق والتي استمرت من ٣٣١ ـ ٢٤ ق . م . وكان سلوقي من أشهر قادة الاسكندر ، قد أسس الدولة السلوقية في العراق على اثر وفاة الاسكندر المقدوني في بابل(٣) .

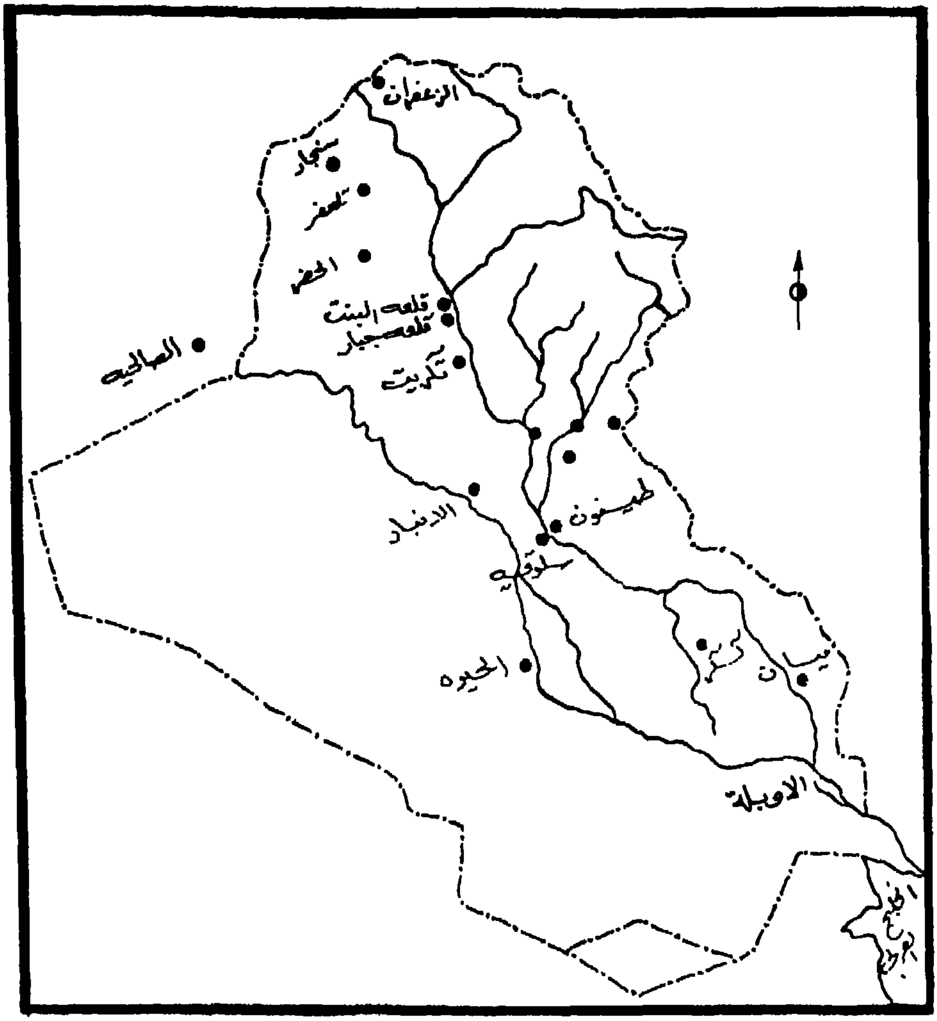
وقد صار العراق في هذا الدور والادوار التي تلته المركز الرئيسي للامبراطورية

---

(١) طه باقر ـ مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ١/ ٧٦ .

(٢) الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم ـ حضارات الشرق القديم ٦/ ٤٠٤ .

(٣) الدكتور عبد العزيز صالح ـ الشرق الادنى القديم ـ مصر والعراق ١/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .



شكل (٢)

مواقع المدن التي ظهرت في العراق في الفترات التي سبقت الفتح الاسلامي عن/ طه باقر وفؤاد سفر «المرشد الى موطن الآثار والحضارة» الرحلة الاولى

الشرقية تبعا لضرورة التطور التاريخي ، وانتقل دور بابل السياسي الى سلوقيا وبعدها الى طيسفون ، كما كان لزاما أن ينتقل منها الى بغداد بعد ذلك .

انشأ سلوقي مدينة سلوقية على ضفة نهر دجلة اليمني على بعد حوالي ٢٠ ميلا جنوب بغداد الحالية (الشكل٣)[١] . ثم تعاظم شأن هذه العاصمة حتى ورثت بابل وبقيت المدينة الرئيسة في هذا الاقليم مدة طويلة الى ان احتلها الفرشيون سنة ٢٤٧ ق . م) فأخذ أمرها يتضائل تدريجيا وخاصة بعد تأسيس العاصمة طيسفون[٢] . ولم تقم لها قائمة بعد غزو الرومان الوحشي لها سنة ١٦٢ م حيث أحرقت ونهبت وقتل ما قرب عن نصف سكانها[٣] . وهي الآن لا شيء سوى تلول ورواسب واطئة ويعرف موضعها باسم تل عمر .

ومن المدن التي شيدها سلوقس أيضا ، مدينة الصالحية داخل الحدود السورية ، وكانت تعرف باسم « دورا بوروبس »[٤] . ويذكر أيضا ان سلوقس قد جدد بناء مدينة كركوك وأقام لها سورا جعل له ٦٥ برجا وبايين ، وانشأ فيها بعض البنايات العامة ، واتخذها مركزا لاقليم تابع الى مملكته وقد عرفت كركوك في المصادر الارامية بمعنى مدينة السلوقيين[٥] .

في حين امتدت فترة الفرس الفرثيون الذين قضوا على حكم السلوقيين في العراق من ٢٤٧ ق . م . - ٢٢٦ م ، وينتسب الفرثيون الى اقليم فرثية الذي هو خراسان الآن[٦] . انقضوا على السلوقيين عندما ضعف نفوذهم نتيجة للحروب

---

(١) د . روني مكاي - مدن العراق القديمة ص ٢٥ .

(٢) Seton Loyed Ruimed cities of grag P . 13 .

(٣) طه باقر وفؤاد سفر - المرشد الى مواطن الآثار والحضاري الرحلة الأولى ص ٢٧

(٤) - المصدر نفسه ص ٢٨ .

(٥) طه باقر ، وفؤاد سفر : الرحلة الرابعة ، ص ٧ - ٨ .

(٦) طه باقر - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة - العراق ص ٤٦٥ .

التي استمرت بين السلوقيين الرومان مدة طويلة ـ دخل الفرثيون العراق من الشمال الشرقي ، وأسسوا الدولة الفرثية ، ولم يرغب هؤلاء باتخاذ مدينة سلوقية عاصمة لهم ، ولم تكن بابل التي فوضتها الحروب صالحة لأن تكون مركز حكمهم . لذلك أسسوا مدينة جديدة على الضفة اليسرى من نهر دجلة مقابل سلوقية ، دعوها طيسفون وأقاموا فيها معسكراً لهم لاستحسانهم موقعها من الناحية العسكرية والاقتصادية . وبعد ذلك تكاملت بالتدريج حتى صارت منافسة لسلوقية ووريثة لبابل أكثر من اربعة قرون[1] . وقد عرفت بالمدائن من قبل العرب في ارض العراق ، ثم نشأت على انقاضها أخيرا مدينة سلمان باك الحالية .

ويرجع الى الفرثين تشييد مدينتي الحضر في أرض الجزيرة شمال غرب العراق وميسان في جنوب العراق[2] .

ولم يترك لنا الرومان الذين سيطروا على الجزء الشمالي من العراق أيام الفرثيين أثرا حضاريا ملموسا في العراق بالمقارنة مع العهود الأخرى التي حكمت القطر ، سوى بعض الحصون والقلاع الحربية ، وتعمير الحصون التي كانت قائمة قبلا في بعض المواضع والمدن شمال العراق[3] .

ومن المرجح ان مدينة الزعفران وقلعتها الواقعة بالقرب من زاخو في شمال العراق من مخلفات العهد البيزنطي وهي ذات تخطيط منتظم يشكل نصف دائرة وبناء محكم[4] .

في حين ان الفترة الساسانية التي قضت على الفرثيين في موقعة هرمز سنة ٢٢٦ م . وفلول الحكم البيزنطي في شمال العراق كانت غنية بالآثار العمرانية ، فنمت مدينة

(١) عبد الرزاق الحسني ـ العراق قديما وحديثا ـ ص ١٧ ـ ١٨ .
(٢) كريستنس ـ ايران في عهد الساسانين ـ ص ٣٧ .
(٣) طه باقر وفؤاد سفر ـ المرشد الى مواطن الآثار والحضارة ٣/ ٦١ .
(٤) المصدر نفسه ٣/ ٥٧ .

طيسفون في هذا العهد وتضخمت حتى انها اشتملت على سبعة أحياء ، فأطلق عليها العرب اسم المدائن[1] . وأصبحت عاصمة العراق الى أن فتحها العرب المسلمون عام ٦٤١ م . وكذلك بنيت عدة مدن في مختلف انحاء البلاد مثل كسكر شمال البطيحة والأبلة في جنوبها على شط العرب[2] . وفيروز سابور على الضفة اليسرى من نهر الفرات بمواجهة بغداد التي دعيت فيما بعد بالأنبار ، لأنها صارت مخزنا واسعا للساسانيين تخزن فيه الحبوب . وكانت لهذه المدينة الناشئة مكانة سامية في العهد العربي الاسلامي حيث أصبحت عاصمة الخليفة العباسي الأول ، عبد الله السفاح (١٣٢ هـ - ٧٥٠ م - ١٣٦ هـ - ٧٥٤ م) وبعده سكنها أبو جعفر المنصور قبل أن يشيد بغداد المدورة ، وقد دمرت في سنة ٣١٥ هـ/ ٩٢٧ من قبل أبي طاهر القريطي . ثم نهبتها جيوش المغول عام ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م وقتلوا كثيرا من سكانها[3] .

وللمتطلبات العسكرية أقام الساسانيون القلاع الحربية والمعسكرات . وهناك أمثلة كثيرة بهذا الصدد كالخرائب المسماة « بقلعة جيار » الواقعة على راسية من جبل مكحول بالقرب من الضفة الغربية لدجلة وهي بقايا بلدة مثلثة الشكل تحتوي على ابراج للمراقبة - وهناك « قلعة النبت » التي تقع خلف جبل مكمول ، فقد شيدت على رابية حصينة أيضاً[4] .

هذا وقد لمست آثار نهضة سريعة في هذا العهد صاحبت الحركة العمرانية في البلاد ، شملت أوجه النشاط الاقتصادي فيها من نواحيه الزراعية والصناعية

(١) كوركيس عواد - آثار العراق في نظر الكتاب الاقدمين مجلة سومر ٥/ ٢/ ٢٤٧ .
(٢) القزويني - آثار البلاد واخبار العباد ص ٤٤٦ وص ٧٨٦ .
(٣) طه باقر وفؤاد سفر - المصدر السابق ١/ ٦ - ٧ .
(٤) المصدر نفسه ٣/ ٥ - ٨ .

والتجارية[١] .

وأخيرا لا بد من الاشارة الى مدينة الحيرة التي أسسها المناذرة العرب ، كمدينة عسكرية تخومية . وكان لقيام هذه المدينة في غرب وادي الفرات اثر في تقوية الصلات بين هذا الوادي وبين داخل الجزيرة العربية . ومن المحتمل ان سيف بن ذي يزن التمس عن طريق بعض امراء الحيرة مساعدته من بلاط كسرى ، لطرد الأحباش من اليمن[٢] .

والحيرة اضافة الى كونها مدينة ترعى المصالح الساسانية ، فانها أيضا مركز فكري تلتقي به كافة ثقافات ذلك العصر . فالمشهورون من شعراء العرب كالنابغة الذبياني وطرفة والمتلمس ولبيد والمنخل اليشكري وغيرهم كانوا يفدون للحيرة ولهم اتصالات وصلات بامراء الحيرة[٣] . ولكن تضاءلت اهميتها عندما أوجد المسلمون الكوفة بالقرب منها عندما انهوا الحكم الساساني في العراق ، لتقوم بنفس الوظيفة بالنسبة لهم .

ومما يلفت النظر ان العرب اختطوا وشيدوا في العصرين الجاهلي والاسلامي مئات من المدن والقلاع والحصون في خارج الجزيرة وداخلها[٤] .

فالعناية اذن بدراسة الحضارة العربية قبل الاسلام لها أكثر من دلالة تأثير في الحضارة العربية التالية التي ازدهرت في العصر الاسلامي وكان لها أثر في تقدم شعوب الشرق والغرب ، واذا أخذنا بالرواية التي تقوم « ان معبد النوبهار في مدينة بلخ قد شيد بتأثير مكة »[٥] أدركنا مبلغ تأثير العصر العربي قبل الاسلام في الشرق أيضا .

---

(١) د . مصطفى جواد ود . احمد سوسه ـ دليل خارطة بغداد ص ٤ .

(٢) W - Obeary - Arabia before Muhammad , PP . 156 - 159 .

(٣) يوسف رزق الله غنيمة ـ الحيرة ـ ص ٥٨ ، ٧٦ .

(٤) د . ناجي معروف ـ عروبة المدن الاسلامية ص ٥ ـ ٥٨ العدد السابع .

(٥) ياقوت ـ معجم البلدان ـ مادة نوبهار .

والخلاصة ـ انه منذ فجر التاريخ كانت أرض العراق مسرحا تحتل عليه الامم ادوارا مملوءة بالوقائع والمآسي والاهوال وذلك لكونها مطمح أنظار الشعوب بالنسبة لموقعها الجغرافي والسياسي ولما حوته أرض العراق من الخيرات والنعيم .

القسم الأول

مدن هذا العصر وعوامل نشأتها

تمهيد :

كانت القرون الوسطى ، وبصورة خاصة القرن الثامن والتاسع والعاشر مرحلة مهمة في تاريخ المدن التي أسسها العرب في العالم الاسلامي ومنها العراق[1] . فهذه المنطقة التي كانت الموطن الأصلي والنواة القديمة للمدنية ، كانت تابعا للمدنية الرومانية الأوربية والفارسية في العصور الكلاسيكية . ولكن مع الاسلام عادت الى الصدارة، حيث كان العصر الذهبي لنشأة المدن ، في حين كانت أوروبا في هذه العصور متخلفة حضاريا[2] .

ولم يقتصر دور العرب في حضارتهم الاسلامية على انشاء المدن بل أعادوا الحياة الى الشبكة الرومانية والفارسية فكثّفوها وأضافوا اليها ووسعوا جبهتها بالمدن الجديدة ، كما خلقوا فيها قيما جديدة ، باختيار نمط جديد من المواقع المفضلة ، كما وصلوا باحجامها الى مستويات ربما لم تصل اليها المدنية من قبل على الاطلاق[3] .

وكان من الطبيعي أن يكون نصيب العراق من هذه الحركة العمرانية الحضرية شيئا صغيرا وذلك لقربه من شبه جزيرة العرب ، موطن الاسلام ، واعتباره منطقة تخومية حيوية توجهت اليها أنظار العرب في الجاهلية والاسلام . وفي هذا الدور

(١) د . جمال حمدان ـ جغرافية المدن ص ١٠٧ .

(٢) G - Hamdan , The Pattern of Medieval urbanisna in the Arab World » , Geography - Vol - 47 - P .

(٣) د . جمال حمدان : المصدر السابق ص ١٠٩ .

تظافرت عدة عوامل أدت الى ظهور كثير من المدن في هذا القطر ، فيمكن على ضوء ما تقدم تحديد أربعة عوامل رئيسية لنشأتها وهي :

أ ـ العامل الحربي .

ب ـ العامل الاداري .

ج . ـ العامل السياسي .

د ـ العامل الديني .

كان العامل الحربي ممثلا في تمصير كل من البصرة والكوفة بالعراق ، والأجناد بالشام ، والفسطاط بمصر ، وكانت هذه الأمصار (ك) من ضرورات الفتح في البداية ، اذ لا بد من انشاء مراكز عسكرية للسيطرة ، ويلاحظ جميعاً أنها مواضع على هامش الصحراء[1] .

أما العامل الاداري فكان سببا في نشأة مدينة واسط من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي الوالي الأيوبي ، بعد أن لاحظ بنفسه عدم جدوى التنقل في اقامته لادارة الولاية بين الكوفة والبصرة . فرأى من حسن ادارة العراق ، هو أن يتخذ مكانا وسط بين هاتين المدينتين ، يكون مقرا لحكمه ، ويؤمن منه السيطرة الكاملة عليهما . كما انه يقضي بواسطته على التجزئة الادارية في الولاية . فكان دقيقا باختياره موقع واسط لهذا الغرض، فبنى فيه[2] ، أقام بها ثم نزلها الأمراء من بعده[3] .

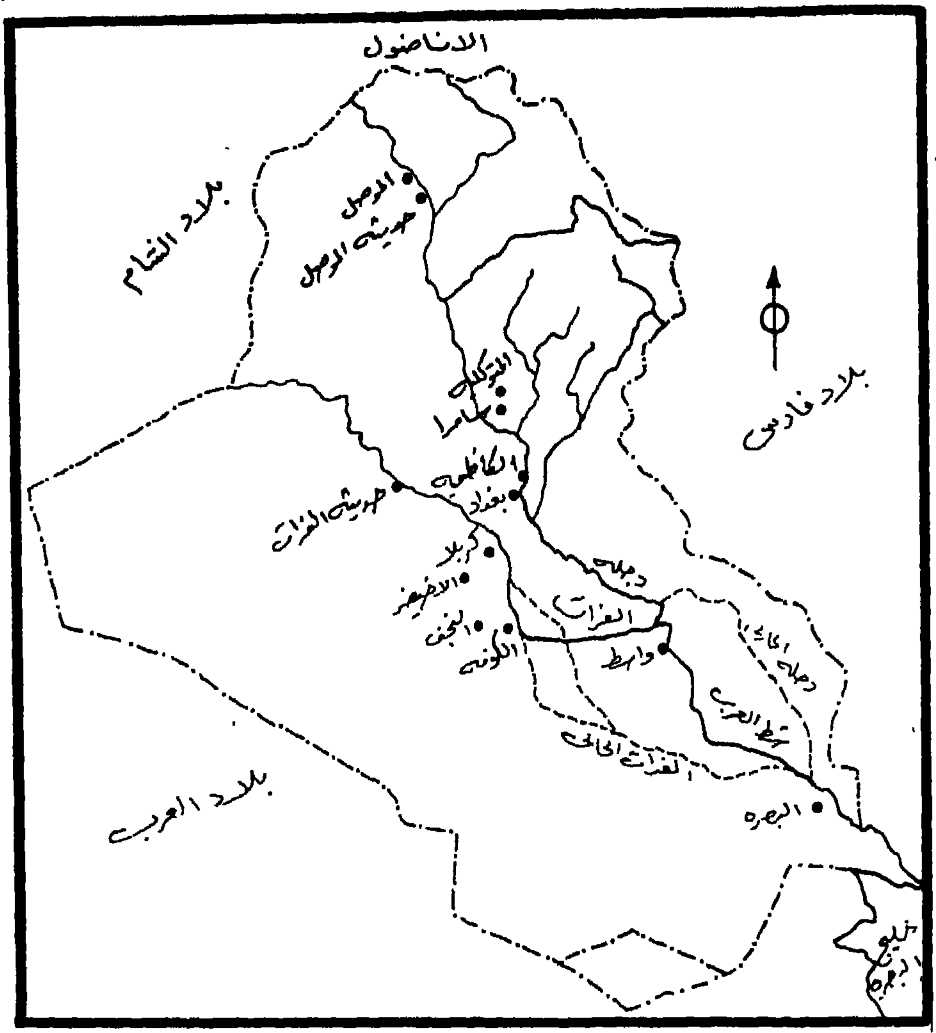
في حين كان العامل السياسي وتطوره من أسباب نشأة عدة مدن بالعراق ، نتيجة لأسباب ادارية وعسكرية واقتصادية ونفسية . فقد صاحب هذا التطور السياسي عند قيام دولة بني العباس ، محاولات ناجحة لتنظيم مراكز ادارية جديدة ، وذلك لحماية مصالح الدولة السياسية والاجتماعية من الأخطار الداخلية والخارجية ،

---

(١) Cornish Vougha , «The great capitals - P .72 .

(٢) بحشل واسط : ص ٤٣ .

(٣) اليعقوبي : البلدان ص ٣٢٢ .



شكل (٣)

مواقع المدن العربية الاسلامية في العراق حتى نهاية القرن الثالث الهجري عن لسترنج « بلدان الخلافة الشرقية . .

ولتأمين هذه المصالح انشأ العباسيون مدن ستراتيجية هي هاشمية الأنبار وهاشمية الكوفة وبغداد وسامراء والمتوكلية لتجميع الأنصار والأشياع في مواقع مختارة ، تخدم الوظيفة السياسية باحسن وجه . ولا بد لي من الاشارة هنا على أن العامل السياسي عند قيام دولة بنى العباس ، قد لعب دورا جوهريا أيضا في مسألة نشأة المدن لأغراض سياسية بمصر . فنشأت العسكر لتكون مركزا اداريا للحكومة الجديدة بدلا من الفسطاط ، كما أبدل ابن طولون العسكر بالقطائع حينما استقل بالولاية عن السلطة العباسية ـ في حين انشأ الفاطميون لنفس الغرض القاهرة عند دخولهم بمصر لتكون مقرا لحكمهم وعاصمة لهم[1] .

لكن العامل الديني واضح في قيام عدة مدن دينية في العراق فحول مشهد الامام الحسين (رضي الله عنه) نشأت مدينة كربلاء ، في حين كان ضريح الامام علي سبب في اقامة مدينة النجف قرب الكوفة وحول قبري الكاظميين ـ موسى الكاظم ومحمد الجواد ـ ظهرت مدينة الكاظمية شمالي بغداد وعلى ضفة دجلة اليمنى ، وكان لزيارة المسلمين لهذه الأضرحة أثرمهم في نشأة هذه المدن وتطورها على مرور الزمن . تلك كلمة اخرى موجزة عن العامل التي نشأت عنها المدن في العراق وسنعود لها بدراسة تفصيلية .

---

(١) د . احمد فكري ـ المدخل : مساجد القاهرة ومدارسها ص ١٧ .

الفصل الأول

العامل العسكري

- تمهيد
١ ـ البصرة
٢ ـ الكوفة
٣ ـ الموصل

تمهيد :

جاء الاسلام بنظام شامل لرعاية شؤون الدنيا ولتنظيم علاقة الانسان بربه ، فرفض مبدأ التعصب القبلي وما ينطوي عليه من مفاهيم وأفكار ، وجعل للأمة وحدة سياسية متماسكة بدل التجزئة والتفرقة ، ودعا الى الجهاد في سبيل العقيدة ، ورفض الغـزو ، وأتـى بمفهـوم الشريعـة والقانـون ونبـذ الاعـراف القبلية ، وقضى على الاستغلال ، وحارب الجشع المادي بلا هوادة ، وأكد على العدالة الاجتماعية في كل مجال .

وكان طبيعيا في مجتمع تنتشر فيه المفاهيم والتقاليد والاعراف القبلية ، أن يبدأ الصراع بين الاتجاهات الاسلامية وبين هذا المجتمع الذي لم يقبل هذه الاتجاهات . بالسر والعلانية ، صراع في الواقع بين عنيف راكد وبين جديد يفيض بالحيوية والقوة والنشاط وفي واقعه يريد بناء مجتمع تسوده العدالة الاجتماعية .

وقاوم هذا المجتمع رسالة الله ، فدار صراع طويل في الجزيرة العـربية بـين المسلمين من جانب وقريش واليهود والمرتـدين بعـد ذلك من جانـب آخـر وانتصر الاسلام ، وانهاء هذا الصراع في داخل الجزيرة العربية يعني توحيد المسلمين عقائديا وسياسيا واقتصاديا وعسكريا في دولة واحدة وتحت قيادة واحدة .

وكان الجهاد الدافع الأول للفتوح ، على أننا يجب أن لا نغفل أثر التحديات الخارجية من قبل الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية الذي حتـم توحيد الجـزيرة العربية التصادم معهما ، كما أن النواحي الاقتصادية الى حد ما لها أثرها ، ففي البلاد

المجاورة له أثره أيضا ، وضرورة ايجاد مجال حيوي للعرب المسلمين بعد ايقاف الفتح في الجزيرة لها دوافعها أيضا ، حيث كانت من العوامل المساعدة الجانبية في هذه الفتوح .[1]

واذا كانت حروب الردة قد أكدت وحدة الجماعة الاسلامية ورسختها في صدر الاسلام فان الفتوحات الاسلامية قد جمعت القبائل بوحدة متماسكة تحت راية الجهاد ، وجعلت الأمة بكاملها هي الجيش .[2]

وحمل العرب راية الاسلام خارج الجزيرة ، ولا يعنى الفتح بالضرورة اسلام البلاد المفتوحة ، لأن اعتناق الاسلام أمر شخصي ، بل ان الفتح يعنى ترسيخ سيادة الاسلام في البلاد المفتوحة ، اضافة الى انه حركة تمثل التيار الاسلامي ، وتوجيه لقوى القبائل في اطار الأمة وكأساس في طياتها ، وتكليف مفروض على المجموع .[3]

خرج العرب تحت راية الاسلام للفتوح في خلافة أبي بكر ومن بعده استمرت في عهدي عمر وعثمان ، فاصطدموا بالمملكتين الكبيرتين في الشرق والغرب وهما الفرس والروم ، وحقق المسلمون في هذا المجال نصرا مؤزرا أدهش الفاتحين أنفسهم ، فتم تحرير سوريا سنة ١٤ هـ بعد ان بوشر به عام ١١ هـ وقد بوشر به بتحرير العراق في الوقت ذاته وتم نهائيا عام ١٧ هـ أما تحرير مصر فقد تم سنة ٢٠ هـ وقد تم فتح بلاد فارس (ايران) نهائيا باستثناء بعض المقاطعات المحيطة بها عام ٢٩ هـ وقد ساعدت طبيعة البلاد الجبلية فيما وراء النهر على تنظيم شيء من الدفاع الوطني خلافا للأمر في الولايات البيزنطية ـ حيث أصبح نهر السيرداري منذ أواسط القرن الثامن الحد الفاصل بين الامبراطورية الاسلامية وبين المقاطعات الواقعة تحت

(١) الدكتور أحمد شلبى : موسوعة التاريخ والحضارة الاسلامية : ١/ ٢٨٥

(٢) الدكتور عبد العزيز الدورى : الجذور التاريخية للقومية العربية ص ٦ .

(٣) الدررى : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص ١٧ .

السيطرة الصينية وقبائل البدو الرحل من تتر ومغول .[١]

وهكذا دخلت تحت سيطرة العرب والمسلمين اقاليم شاسعة امتدت من نهر الهندوس شرقا الى نهر تاج في اسبانيا غربا ومن بحر اورال شمالا الى اقليم بلاد النوبة جنوبا وكلها مناطق تتباين الى حد ما مع طبيعة العرب ، كما أن هنالك مفارقات شتى بين البيئة والتاريخ جعلت الفرق كبير بين هذه البلاد ، ولترسيخ سيادة الاسلام في هذه البلدان المفتوحة جرى تنظيم هذه البلدان في اطار وحدة فضفاضة على أساس من الاتفاقات المشروطة لتأمين خضوع السكان واستسلامهم .[٢]

وقد خلف وضعهم الجديد في الأمصار المفتوحة اختلافا بين المراكز الجديدة التي أنشأوها كالبصرة والكوفة في العراق والفسطاط بمصر والقيروان بعد ذلك بتونس (افريقية) لتكون دور هجرة لهم ولأسرهم وعيالهم ، وهي مدن عربية أساسا ذات نمط عسكري وديني خالص ، وبين مدن قديمة عامرة ذات تراث محلي وخارجي ، اتخذوا فيها مراكز لقواتهم مثل اجناد الشام وفلسطين واجناد مرو بخراسان .[٣]

وألاحظ هنا ، أن الحيوية انتقلت بفعل هذه الهجرة الى تلك المراكز تدريجيا من شبه جزيرة العرب باستثناء مكة والمدينة ، وتمثلت فيها فعالياتهم ونواحي نشاطهم العامة .

ويبدو أن هذه المعسكرات التي أوجدتها الجيوش العربية الاسلامية في عهد الخليفة عمر كانت طلائع المدن العربية الاسلامية في العراق وغيره من المناطق . حيث أسس العرب في زمن أمير المؤمنين عمر ست أمصار[٤] ثلاثة منها في العراق وهي البصرة والكوفة والموصل وأصبحت هذه الأمصار قواعد عسكرية ، وظائفها الأساسية هي ايواء المجاهدين وعوائلهم ، ومراكز ادارية للمناطق التي تم فتحها ،

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٧ وما بعدها .

(٢) شكري فيصل : حركة الفتح الاسلامي ص ١٦ وما بعدها .

(٣) د . الدررى : مقدمة في تاريخ العرب الاقتصادي ص ١٧

(٤) د . ناجي معروف : عروبة المدن الاسلامية ص ٧ .

وحلقة وصل بين المدينة المنورة العاصمة والمناطق المفتوحة ، كارسال النجدات ، والأوامر العسكرية ، بالاضافة الى انهم اتخذوها خطا مفتوحا ، يؤمن رجعتهم في حالة تعرضهم للخطر ، يحتمون بها عندما يضايقهم العدو ، كما انها مراكز تموينية للجيوش التي تحارب في الجبهات الحربية .

لذلك فان مواضع هذه الأمصار وبيئتها الداخلية ، وتنظيم ادارتها كانت تتفق مع الأغراض التي وجدت من أجلها ، كما كانت تنسجم مع روح الاسلام ، وأساليب الحياة العربية البسيطة .

ومما تجب الاشارة اليه ، ان العرب المسلمين أيضا انتبهوا الى ترميم واصلاح بعض المعسكرات القديمة الساسانية والبيزنطية وصيروها صالحة لاغراضهم العسكرية فمنها مثلا معسكر الرزق في البصره الحديثة والموصل وعين النمر . والمدائن التي اتخذها المعتصم في العصر العباسي الأول معسكرا لجيوشه [1] . وان بعض هذه المعسكرات قد تمت وحافظت على عمرانها وأصبحت مدنا مأهولة بالسكان الى يومنا هذا ، كالكوفة والبصرة والموصل في العراق والفسطاط بمصر والقيوان بتونس والرباط بالمغرب ، وذلك لأسباب ادارية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وجغرافية .

والعرب في الواقع كونوا في الأقاليم المفتوحة طبقة خاصة ، تحيى في معسكرات عظيمة تعيش بالواردات التي تجمع من السكان غير المسلمين ، فهي في الحقيقة حارس أمين يراقب تحركات الأعداء ، وضابط اجتماعي جديد يرعى المصالح الاسلامية في تلك الاقاليم .

لذلك فان نشوء معسكرات البصرة والكوفة والفسطاط وغيرهما من المعسكرات كان يدل على نزعة نحو الاستقرار البشري في هذه الفترة من عمر الدولة العربية الاسلامية الفتية .

---

(١) د . مصطفى جواد ود . أحمد سوسه : دليل خارطة بغداد ـ ص ٣٧ .

ولا بد من الاشارة هنا الى أن هذه المعسكرات التي تحولت بسرعة الى مراكز حضرية ، كانت أحد العوامل المهمة في تثبيت شخصية الاسلام وتسهيل مهمة الفتوحات الاسلامية ، فالبصرة والكوفة قد انبثقتا كمدينتين من معسكرين أنشأهما العرب المسلمون في العراق ، قدر لهما ان تتركا طابعهما الساسي والاجتماعي والثقافي في التاريخ الاسلامي العام . فالبصرة مصرت في دلتا دجلة والفرات جنوب العراق وعلى بعد قليل من الخليج العربي ، في حين مصرت الكوفة على ضفة الرافد الغربي اليمنى للمجرى الأخير في وسط العراق غير بعيدة عن الحيرة[1] .

وفي مجال المدن التي نشأت بظروف عسكرية تقف البصرة والكوفة والموصل في مقدمة المدن العربية الاسلامية هذه في العراق خاصة وفي العالم الاسلامي عامة ، وسنتحدث عنها بتفصيل كاف فيما يلي .

(١) لسترنج ـ بلدان الخلافة الشرقية ـ ص ٢٣ .

ـ البصرة

مدينة البصرة قبل الاسلام :

يبدو مما تقدم أن العامل العسكري كان وراء نشأة مدينتي البصرة والكوفة فكانت بدايات هذا العامل عبارة عن غارات متلاحقة يقصد الغنيمة تشنها القبائل العربية على القرى والمعسكرات الساسانية في أرض السواد ، قبل الفتوح العربية الاسلامية للعراق .

ويبدو ان منطقة البصرة كانت تضطلع بدور مهم في حياة شبه جزيرة العرب قبل الاسلام ، فقد كانت غارات الاعراب في صحرائهم المجاورة متصلة على القرى والحاميات الفارسية ومسالحها في المنطقة[1] واتخذت شكلا منظما خاصة بعد النجاح الكبير الذي أحرزه نيو بكر بن وائل في موقعة ذي قار (حوالي ٦١١ م) حين هزموا القوات الساسانية في ميدان المعركة ، وأخذوا يغيرون على الاطراف الغربية من امبراطوريتهم [2] .

وقد لجأ الفرس الى المصانعة والمهادنة ، في محاولة منهم للحد من هذه الغارات المتلاحقة عليهم ، فتعاملوا مع كبرى القبائل الى جوارهم ، وهي بكر ، فعينوا رئيسها قيس بن مسعود الشيباني ، حاكما على منطقة الابله . قال المرزباني :

---

(١) الدكتور أحمد شلبي ـ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ١/ ١١٢ .

(٢) أبو الفرج الاصفهاني ـ الاغاني ـ ٢٠/ ١٣٣ .

« وكان قيس عاملا لكسرى هرمز بن ابرويز على طف العراقين والأبله . . وكان قيس ضمن لكسرى احداث بكر بن وائل فتعبثت بكر بأصحاب كسرى فحبسه بايوان حلوان حتى مات في حبسه » [1] .

وربما كانت قبيلة بكر تسعى للقيام بدور تسببه بما كان عليه الحال في الحيرة فقد ذكرت المصادر أنه « لما مات النعمان جعلت بكر بن وائل تهاجم السواد فوفد قيس بن مسعود الى كسرى فسأله أن يجعل له أكلا وطعمه على أن يضمن له على بكر أن لا يدخلوا السواد فاقطه الابله وما والاها وقال : هي تكفيك وتكفي اعراب قومك »[2] . ولما وصل العرب المسلمون الى منطقة البصرة عام ١٢ هـ (٦٣٣م) « لم تكن يومئذ الا الخربية وكانت منازل خربه وبها مسالح لكسرى تمنع العرب من الدخول الى تلك الناحية » [3] .

هذا اضافة الى أن المنطقة كانت مألوفة لدى العرب من ناحية مهمة أخرى . فقد كان النشاط التجاري الذي يتمركز في فرصة الابله يجذب القوافل التجارية العربية الى هذه البقعة التي عرفها العرب قبل الاسلام باسم أرض الهند [4] .

ومن المرجح أن بداية سوق البصرة الشهير بالمربد ، ترجع الى هذه الفترة المبكرة في العصر الجاهلي ، وكون هذه السوق تقع على طرف الصحراء غربي البصرة[5] قد يقوم شاهدا على نمو هذه السوق مستقلا عن المدينة وسابقا لنشأتها .

ومن الجائز أن السلطات الفارسية في سعيها لدرء خطر هؤلاء المقيمين من العرب وابعادهم عن الاتصال المباشر بالمناطق المأهولة ، قد حددت مكان السوق على طرف الصحراء بهذه الكيفية ، ومن ثم عرفت منطقة المربد بباب البادية [6] .

---

(١) المرزباني ـ معجم الشعراء ـ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .
(٢) الاصفهاني ـ الاغاني ـ ٢٠/ ١٣٢ .
(٣) أبو حنيفة الدنيوري ـ الاخبار الطوال ـ ص ١٢٣ .
(٤) الهمداني ـ صفة جزيرة العرب ـ ص ٢٠٤ .
(٥) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ١/ ٦٤١ .
(٦) المقدسي ـ أحسن التقاسيم ـ ص ١١٧ .

ولا بد ان العرب المجاورين للفرس وبخاصة بنى بكر بن وائل كانوا لخبرتهم الطويلة في الاغارة على أطراف الامبراطورية الفارسية والتحرش بها - كما مر بنا - أسرع من غيرهم في ملاحظة الضعيف والخور لهذه الامبراطورية والذين بدأوا يستأنفون غاراتهم القديمة على المناطق الغنية القريبة منهم ، بعد أن أخلى خالد بن الوليد هذه المناطق وذهب الى الشام وكان قائد هذه الغارات سويد بن قطبه العجلى[1] .

وقد جلبت حركات سويد هذه أنظار الخليفة عمر ، فأرسل شريح ابن عامر السعدى ليكون ردءا له . وقد انضم شريح الى قوات سويد وظل يكافح حتى قتل بدارس في احدى غاراته على الاهواز [2] .

وعندما بلغ الخليفة مقتل شريح بن عامر وما آل اليه أمر المنطقة من الفوضى وعدم الاستقرار ، فرأى أن يوليها من قبله فولاها قائدا عرف بالقوة والادارة هو عتبة بن غزوان [*] في ربيع الأول سنة ١٤ هـ [3] . ليقود الحركات الاسلامية في تلك المنطقة .

وكانت تصحبه حملة عسكرية لتخوض المعارك بدقة في هذه المناطق وقد اندمجت قوات سويد بن قطبة تحت راية عتبة بن غزوان فتوحدت الحركات العسكرية في هذه المنطقة بقيادة عتبة بن غزوان[4] .

أول احتكاك له مع الفرس كان قرب الابله التي كانت مرفأ على ضفة شط

(*) سنتحدث عن الصحابى عتبه بن غزوان الذي لم يعن بدراسة شخصية المحدثون في ملخص بآخر الرسالة .

(١) البلاذري - فتوح البلدان - ص ٣٣٧ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه - ص ٣٤٢ .

(٣) ابن سعد - الطبقات - ٣/ ٦٩ .

(٤) الطبرى - تاريخ الرسل والملوك - ٣/ ٩٠ .

العرب الغربية [1] . فقاتلهم عتبة وجعل سويد بن قطبة وقسام بن زهير المازني في عشرة قوارس وقال : كونا في ظهرنا فتردان المنهزم وتمنعان من أرادنا ، ولكن المعركة بين العرب المسلمين والفرس لم تستمر طويلا ، فانهزم الفرس ودخل العرب المسلمون الابله وأصابوا فيها متاعا وسلاحا ومالا كثيراً [2] .

وكان في المنطقة ثلاث منازل هي الخربية والزابوقه وبنى تميم ، ففرق عتبه أصحابه فيما نزل هو بالخريبة ، وكانت مسلحة للاعاجم فتحها خالد في ١٢ هـ فخلت منهم ، فاخبر عمر بذلك فكتب اليه يأمره أن يتخذ لهم موضعا قريبا من الماء والمرعى ولا يفصله عنهم بحراً ونهراً . فأقبل الى موضع البصرة فاختطه [3] .

تمصيرها :

يجمع المؤرخون على أن مصر البصرة هو عتبة بن غزوان أحد قواد عمر بن الخطاب ، فكانت « من أقدم المدن التي بناها العرب المسلمون ، او هي اقدمها ولا تزال باقية الى الآن [4] .

ذكروا أن عتبة نزل منطقة البصرة في أربعين وثمانمائة رجلا ، واختطها « وكانت تسمى أرض الهند » [5] . أو أنها مصرت بموقع الخربية التي « عرفت فيما بعد بأنها ضاحية من ضواحي البصرة » [6] . وقالوا أن عتبة كتب لعمر « انه لا بد للمسلمين من منزل يشتون به اذا شتوا ويسكنون فيه اذا انصرفوا من غزوهم فأجابه بأن يجمع أصحابه في موضع واحد ويسكن قريبا من الماء والمرعى وان يكتب اليه بصفته » [7] ، وقالوا : بعد ان فتح العرب المسلمون توج وتونيدجان وطاسان كتبوا

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ١/ ٨٩ .

(٢) الطبرى ـ المصدر السابق ـ ص ٣/ ٩٣ .

(٣) البلاذرى ـ فتوح البلدان ـ ص ٣٣٧ .

(٤) جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ ٢/ ١٧٦ .

(٥) ابن الفقية ـ مختصر كتاب البلدان ـ ص ١٨٨ .

(٦) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة بصره ـ مجلد ٣/ ٦٦٩ .

(٧) البلاذرى ـ فتوح البلدان ـ ص ٣٤١ .

الى عمر ان يتخذوا مصرا لهم بطاسان فمنعهم لأن دجلة يحجزهم عنه قائلا : ان بيني وبينكم دجلة لا حاجة في شيء بيني وبينه دجلة ان تتخذوه مصراً ثم قدم عليه رجل من بني سدوس فقال له : يا أمير المؤمنين اني مررت بمكان دون دجلة فيه مصر ومصالح للعجم يقال له الخربية ويسمى أيضا البصيرة فأعجب ذلك عمر »(١) .

وقالوا أيضا : ان عمر استعمل عتبه بن غزوان الذي اختط البصرة وكانت تسمى قبل ذلك الخربية وبنى المسجد وان عتبة شهد بدرا وتوفى في خلافة عمر(٢) . وكذلك ذكروا ان عتبه مر بموضع المربد فوجد فيه الكذان الغليظ فقال هذا هو البصرة أنزلوها باسم الله ، فخط مسجد البصرة الاعظم وبناه بالقصب(٣) .

لا يشق علينا ترجيح أحد هذه النصوص فكل أقوالها متقاربة والذي يعنينا منها هو بيان العوامل التي اسهمت في تمصير هذه المدينة ، وقد كانت هذه العوامل التي أكدتها الروايات المختلفة المذكورة أعلاه ، عسكرية محضة تمثلت في رغبة السلطة بانتقاء العوائق الطبيعية بين العاصمة (المدينة المنورة) والمصر الجديد ، فأريد لهذا المصر أن يكون قاعدة تموين وعدة وامداد وظهيرا لحملات تحرير العراق ، فقد تحكمت الضرورات العسكرية في اختيار الموقع وما تلاه من خطط ، وكان هدف العرب الأول هو محاصرة القوات الساسانية في المنطقة ومنعها من امداد القوات الفارسية الى الشمال والتي كانت تواجه زحف العرب المسلمين الكبير على مواقعها(٤) . كما كان واضحا ان موقعا على أطراف الصحراء أضمن للسلامة ان دعت الضرورة في الاتصال السريع بداخل الجزيرة العربية لمواجهة أي خطر داهم على ساكني المصر .

ويلاحظ أنه بعد انتصار العرب المسلمين السريع في شمال السواد أي في واقعة

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ١/ ٦٤١ .
(٢) البكري ـ سمط اللآلىء ـ ١/ ٧٧ .
(٣) ابن قتيبه ـ المعارف ـ ص ٢٤٦ .
(٤) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٣٤١ .

القادسية المدائن وجلولاء على التوالي ، قد استأنفت من معسكر البصرة القوات الاسلامية التي كان يقودها عتبة بن غزوان مهاجمة حاميات الفرس على نهر دجلة شمال الابله وهي ميسان ودست ميسان وايرقباذ واجبرت المدافعين عنها على الفرار[1] . كما احتل أحد قواده مجاشع بن مسعود السلمى مدينة الفرات التي تقع عبر شط العرب ، دون ان يلقى مقاومة شديدة[2] ، في حين افتتح المغيرة بن شعبه نهر تيرى وقراه عنوة وقتل التوشجان وهو يومئذ صاحبها . ثم سار الى منطقة الاحواز فصالحه صاحبها البيرزان على الفي ألف درهم[3] . وقد انضمت قبائل تميم وبكر الى هذه الحملات[4] . وما ان انتشرت أخبار هذه الانتصارات حتى تقاطرت أفواج العرب من كل حدب وصوب ،[5] . وقد كانت قبيلة تميم المصدر الرئيسي لكثير من هذه الافواج المتقاطرة من الاعراب فيما تذكر الروايات[6] .

ويبدو ان العرب كانوا في غاراتهم الاولى يعتمدون على معسكرات متنقلة وما ان تضخم عدد المحاربين حين انضم اليهم عدد كثير من رجال القبائل أخيرا بدأ التفكير في اقامة مصر دائم ، لتلبية حاجات المحاربين المتزايدة ، وتنظيم امور الناس الذين اخذوا يتكاثرون بازدياد الفتوحات[7] . وكانت البداية متواضعة ، فضربوا الخيام والقباب والفساطيط ولم يكن بناء[8] .

ثم بنو مساكن بالقصب منها المسجد ودار الامارة ، وفيها السجن والديوان ،

---

(١) البلاذرى ـ المصدر السابق ـ ص ٣٤٢ .
(٢) تاريخ خليفة بن خياط ـ ٩٦/١ .
(٣) المصدر نفسه ـ ١٠١/١ وما بعدها .
(٤) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ٦٣٨/١ .
(٥) أبو حنيفة الدنيوري ـ الاخبار الطوال ـ ص ١٢٢ .
(٦) ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان ص ١٨٨ .
(٧) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ١/ ٦٤٠ .
(٨) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٤٧٦ .

فكانوا اذا خرجوا للفتح نزعوا ذلك القصب وحزموه وصفوه ، حتى يرجعوا من الفتح ، فاذا رجعوا اعادوا بناءه[1] وكانت هذه البداية نواة مدينة البصرة . وبعدها استعملوا اللبن والطين وسقف العشب ، وذكر الجاحظ : «لما بنى عتبة بن غزوان واصحابه بناء اللبن كتب اليهم عمر : قد كنت اكره لكم ذلك ، فاذا فعلتم فعرضوا الحيطان وارفعوا السمك وقاربوا بين الخشب » [2] .

وكان المقاتلون يأتون اولا دون نسائهم [3] ، مما يوضح طبيعة هذه الغارات الاولى ونظرة العرب اليها كأمر عارض محدود المكان والزمان ، ولكن سيل المهاجرين المتصل من كل أجزاء شبه جزيرة العرب وبخاصة من البحرين واليمن الى منطقة البصرة بقصد الجهاد والاقتصاد ، قد غير من هذه النظرة وجعل اختطاط قاعدة ثابتة لضبط التحركات الحربية في المنطقة وتنظيمها ، امرا ضروريا كما رأينا ـ فبنى العرب المسلمون على هامش الصحراء في منطقة البصرة سبع دساكير في الخربية والزابوقه وبنى تميم ، ووزعت الخطط على الناس بحسب انتماءاتهم القبلية [4] .

وبعد ان وطدعتبة بخ غزوان امر البصرة خرج في ذي القعدة من عام ١٦ هـ حاجا ، وخلف مكانه مجاشع بن مسعود على ولاية البصره ، وجعل على صلاة المسلمين المغيرة بن شعبه ، ولكن رجوعه منصرفا من الحج لمقر عمله سقط من راحلته عند موضع يقال له معدن بني سليم فمات رحمه الله وكان ذلك في محرم ١٧ هـ عن عمرينا هز سبع وخمسين سنة [5] .

---

(١) المصدر نفسه ـ ص ٤٨٣ .
(٢) البيان والتبيين ـ ٢/٢٢٦ .
ياقوت ـ المصدر السابق ـ ١/ ٦٣٩ .
(٣) وقد ذكر انه كان بين جماعة عتبة ست نساء فقط .
(٤) ابو حنيفة الدينوري ـ المصدر السابق ـ ص ١٢٥ .
(٥) ابن سعد ـ الطبقات ـ ٦/٧ .

ويبدو ان القبائل التي اندفعت للفتح وتوزيع الخطط عليها في المصر لم تترك بعد موت عتبة في شك من امرها حيال السلطة الفعلية ، التي تنظم سير الامور في هذه الاصقاع . فعزل مجاشع بن مسعود السلمي الذي وضعه عتبة بن غزوان خلفا له قبيل مغادرته البصره الى المدينة بهدف الحج في نهاية ١٦ هـ ، وعين بدله المغيره بن شعبه الثقفي قائلا : لعمري ان اهل المدر الأول ان يستعملوا من اهل الوبر ، ويعني باهل المدر المغيره لانه من اهل الطائف وهي مدينة وباهل الوبر مجاشعا لانه من اهل البادية » [١] .

ولكن تطور البصره الحقيقي يرجع في اصوله الى ولاية ابي موسى الاشعري ، التي امتدت من عام ١٧ هـ الى عام ٢٩ هـ (٦٣٨ م - ٦٥٠ م) ، وقد كان اجتماع كل هذه القبائل في مكان حضري واحد تجربة مثيرة ، بما تنطوي عليه من احتمالات الصدام وانشقاق بين هذه الجماعات المتنافرة . والواقع ان حدة النزاع كانت قد بدأت ترتفع قبل وصول ابي موسى الاشعري الى المصر ، كما يفهم من الكلمات التي ذكرها عملا لابي موسى وهو يعينه والياً على البصرة قائلا : « اني ابعثك الى ارض قد باض بها الشيطان وفرخ فالزم ما تعرف ولا تستبدل فيستبدل الله بك » [٢] .

وأول عمل قام به أبو موسى الاشعري عند وصوله الى المصر ، هو شروعه بتغيير هيكل منشآته ، الدينية والادارية والمدنية ، فبنى المسجد ودار الامارة باللبن والطين [٣] . كما أنه أول من صرف الخطط لمن هناك من العرب وجعل لكل قبيلة محلة ، ومن ثم امر الناس بالبناء [٤] . وغرست النخل لاول مرة ، وكان ابو بكرة اول من غرسها [٥] . وفتحت الاراضي التي ليست من أرض الخراج للافراد يزرعونها

---

(١) ياقوت - معجم البلدان - ١/ ٦٤٢ ، ابن الاثير : ٢١/ ٣٧٩ ، ٣٨٠ .
(٢) الطبري - تاريخ الرسل - ٤/ ٧٠ .
(٣) البلاذري - فتوح البلدان ص ٣٤٧ .
(٤) المصدر نفسه - ص ٣٤٨ .
(٥) ابن الفقيه - مختصر كتاب البلدان - ص ١٨٨ .

بموافقة الخليفة عمر [1] . ويبدو ان الرغبة في حيازة الارض وزراعتها كانت من القوة بحيث اضطر الخليفة الى ان يكتب الى اهل البصرة ، لما بلغه انهم قد اتخذوا الضياع وعمروا الارضين . محذرا اياهم ، : (لا تنهكوا وجه الارض فان شحمتها فيه) [2] .

ومثل هذا التطور الحضري الواسع يقف في تفرد في مجال المقارنة ، بنشأة القاعدة العسكرية التي كانت غايتها خدمة الاغراض الحربية للجيوش الفاتحة المحررة ـ ومن الواضح ان قسما كبيرا ومهما ممن استقروا بالمصر شرع منذ البداية في اقامة اسس ثابتة لمجموعة حضرية مستقرة لا تؤثر عليها تحركات الجيوش التي تخرج للفتح . ومع ان المدينة ظلت تحافظ في طبيعتها ووظيفتها العسكرية لاكثر من قرن ، الا ان هذا القسم المستقر من السكان ، والذي لم يتأثر كثيرا بموجات الهجرة لميادين القتال الى الشرق ، هو الذي ترك اثره الواضح على تاريخ الاسلام في هذه المرحلة التكوينية .

هـ ـ اسمها :

اختلف اهل اللغة والادب وغيرهم في معنى البصرة ، واختلفوا أيضا في سبب التسمية ولا سيما ارجاع أحدهم هذه التسمية الى الفارسية ، مما يجعلنا نشك في ان اسم البصرة غير ذلك .

فقد ذكر في القاموس المحيط ولسان العرب : ان معنى البصرة الارض الغليظة الرخوة الضاربة الى البياض او فيها بياض [3] .

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٤٩٠ .

(٢) الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ ٢/٢٢٦ .

(٣) الفيروز ابادي ـ ١/ ٣٣٣ فصل الياء باب الراء ـ ابن منظور ـ باب بصر ص ٦٧ .

وجاء في معجم البلدان عن معناها ما يلي : قال ابن الانباري : البصرة في كلام العرب الارض الغليظة ، وقال قطرب : البصرة حجارة رخوة فيهـا بياض . وقال ابن الاعرابي : البصرة حجارة صلاب ، ورايت في تلك الحجارة في اعلى المربد بيضا صلابا . وذكر الشرقي بن القطامي : ان المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول بها نظروا اليها من بعيد وابصروا الحصى عليها فقالوا : ان هذه بصرة يعنون حصبة فسميت بذلك . وقال قوم : البَصر والبصر والبُصر الكذان وهي الحجارة التي ليست بصلبة كانت ببقعتها عند اختطاطها . واحدة بصرة وبصره وبُصره . وقال الازهري : البصر بالكسر الحجارة الى البياض فاذا جاؤوا بالهاء قالوا بصره . وذكر بعض المغاربة : ان البصرة الطين الملك وقيل الارض الطيبة الحمراء : [1] .

وذكر خليفة بن خياط في تاريخه عن طريق خالد بن نعيم العدوي قال : مر عتبة بن غزوان بموضع المربد فوجد الكذ ان الغليظ فقال : هذه البصرة انزلوها بسم الله [2] . وفي تاريخ الرسل والملوك قال الطبري :ـ والبصرة يومئذ تدعى ارض الهند فيها حجارة بيض خشن . حتى اذا كانوا بالمربد وجدوا هذا الكذان قالوا : ما هذه البصرة ؟ ومن المعلوم ان معنى كذ ـ خشن[3] .

والملاحظ من هذه الاقوال ان معنى البصرة قد تردد بين الارض الرخوة او الغليظة الرخوة الضاربة الى البياض ، ومن الطبيعي ان تكون ارض البصرة كذلك لوقوعها في نهاية السهل الرسوبي المحاذي لحافة الصحراء ، وطبيعي ايضا ان تختلط الصخور الكلسية المنتشرة بين رمال الصحراء بالطمى الرسوبية فتصبح الارض رخوة

---

(١) ياقوت ـ ١/ ٤٣٠ .
(٢) ١/ ٩٧ ـ ابن قتيبة ـ المعارف ـ ص ٢٤٦ .
(٣) ٤ك ١٤ ـ حوادث ١٤ هـ .

فيها غلظة تضرب الى البياض ، وما زالت منطقة البصرة القديمة تحمل بعض هذه الصفات في المنطقة المعروفة حاليا باسم منطقة الزبير .

ويبدو من هذه الاقوال أيضا ان هذا المعنى قد ارتبط بطبيعة ارض البصرة فقط ، في حين انه توجد في العالم العربي مواقع لها طبيعة ارض البصرة ولا يطلق عليها معنى البصرة . مما يجعلني اشكك في هذه الاقوال .

أما اسمها فقد ذكره ياقوت عن قول احمد بن محمد الهمداني ـ انما سميت البصرة لان فيها حجارة سوداء صلبة [1] . وقد ورد في سبب تسميتها رأى اورده أبو علي الغالي لأبي حاتم : انما سميت البصرة للحجارة البيضاء التي في المربد وأنشد :

سقى البصرة الوسمى من حبها   فان بها متى صدى لا يريمها

وأنشدنا التوزي لعمر بن أبي ربيعة وكان قدم البصرة واقام بها اياما .

حبذا البصرة أرضا   في ليالي مقمرات[2] .

وقد ورد في سبب تسميتها بالبصرة رأي آخر ذكرته دائرة المعارف للبستاني ـ وهو : وقيل سبب تسميتها بالبصره ان عتبه بن غزوان كتب الى عمر يستاذنه في تمصيرها فوصفها له بقوله : اني أرى أرضا كثيرة القضة في طرف البر الى الريف ودونها منافع فيها ماء وفيها فضياء فقال عمر : هذه أرض بصرة قريبة من المشارب والمرعى والمحتطب[3] .

وهذه الآراء أيضا بعيدة الاحتمال لانها تقودنا الى اطلاق هذه التسمية على كل موضع في بلاد العرب له صفة ارض البصرة ، ولا سيما ان هذا النوع من الاراضي

---

(١) معجم البلدان ـ ١/ ٤٣٠ ـ صفة حزيرة العرب ـ ص ١٦٨ .
(٢) أبو علي القالي ـ ذيل الامالي والنوادر ـ ص ٢٤ .
(٣) البستاني ـ دائرة المعارف ـ مادة بصرة .

يكثر في العراق على جانبي السواد وبخاصة في غرب وشرق البطيمة ، ولكنهـا لم تسم البصرة .

وما يقال ان اسم البصرة قد عرب من يس راه لانها كانت ذات طرق كثيرة انشعبت الى اماكن مختلف ، وهو ما يفيد اللفظ الفارسي (في يس راه)[1] تقول يحمل العتفق في مضمونه اذ يتناول التشابه الصوتي بين الكلمتين ، كما انه يتضمـن من جانب آخر اطلاق التسمية بعد التمصير والنمو وهذا امر بعيد الاحتمال .

والذي يزيد من الشـــك في تلك الاقوال والآراء حول مسألة معنى وتسمية البصرة هي تلك المواضع الآرامية المنتشرة في منطقة البصرة وحواليها التي تحمل أسماء آرامية ومنها يكمص ويحص والبصيرة التي تعني محل الاكواخ وقد ورد اسمها على لسان ثابت السدوسي وهو بين يدي الخليفة عمر يصف له ارضها فقال : يا امير المؤمنين اني مررت بمكان دون دجلة فيه قصر يقال له الخربية ويسمى أيضا البصيرة بينه وبين دجلة اربعة فراسخ له خليج يجري فيه الماء الى أجمـة قصب فاعجب ذلك عمر[2] .

فليس من الغريب ان تكون البصرة تكبيرا لاسم القرية الارامية التي عرفت هناك قبل الفتح الاسلامي باسم البصيرة كما اشار اليها ياقـوت ، هذا مع العلم ان اللغة الآرامية كانت قبل الميلاد وفي القرون الاولى المسيحية لغة التجارة والسياسة والتدوين في جميع البلاد الواقعة شمال جزيرة العرب كالعراق وبلاد الشام[3] . وهذا ما يرجح أن يكون اسم البصرة الذي أطلقه العرب الفاتحون على مدينتهم الجديدة ماخوذاً من هذا الاسم الارامي المحلي ـ ومن ثم أخذ اللغويين وغيرهم في بيان هذا الاسم مختلفين كل الاختلاف في معناها وتسميتها .

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٤٧٧ .

(٢) ياقوت معجم ـ البلدان ـ ١/ ٤٣٠ .

(٣) ابراهيم امين غالي ـ سيناء المصرية عبر التـاريخ ـ ص١٢٦ .

٣ ـ الكوفة

تمهيد :

كانت بعض القبائل العربية ، كقبيلة بني شيبان وغيرها ، تنتشر على حدود المناذرة ، وكانت تقوم بغارات متلاحقة وخاطفة على السواد من ناحية الحيرة ، بقيادة رئيسها المثنى بن حارثه[١] . ورأى المثنى ان قومه غير قادرين على محاربة الفرس واخراجهم من العراق ، فذهب الى الخليفة ابي بكر الصديق ، وشرح له موقف عشيرته من الساسانيين ، وعدد له خيرات البلاد وطلب منه ان يوليه على من اسلم من قومه لمقاتلة الفرس ، وان يمده بمدد لانجاح هذه المهمة ، فلبى ابو بكر طلب المثنى ، وكتب له عهدا بذلك ، فعاد المثنى الى قومه وقبيلته[٢] .

ثم أرسل أبو بكر الصديق كتابا الى خالد بن الوليد يأمره بالتوجه الى العراق بعد الانتهاء من حروب الردة في اليمن ، وطلب أبو بكر من المثنى أن ينضم الى قوات خالد وان يكون تحت قيادته[٣] .

وكتب الخليفة الى خالد بعد ان فرغ من أمر اليمامة ان يحرر العراق من الجنوب على أن يبدأ بفرج الهند (الابله) [٤] وكتب أيضا الى (عياض بن غنم) أن يقصد

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٢٤٢ .
(٢) الطبري ـ ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٢/ ٥٥٤ .
(٣) البلاذري ـ المصدر السابق ـ ص ٢٤٣ .
(٤) الطبري ـ المصدر السابق ـ ٢/ ٥٥٣ .

العراق ويدخله من اعلاه ويسير حتى يلقي خالد في الحيرة [1] .

سار خالد الى جنوب العراق وتوقف بالنباج[2] وهناك التحق به المثنى بن حارثة مع عدد كبير من القبائل التي جاءت لنصرة خالد ، وكان هدف خالد بن الوليد ان يستولي على « الابلة » ثغر العراق[3] .

وكان الفرس قد أقاموا في الابلة حامية قوية ، وجعلوا حولها .المسالح والحصون درءا لها . التقت حملة خالد ، بكتيبة فارسية تحت قيادة هرمز سنة ١٢ هـ/ ٦٣٠ م فهزمتها عند كاظمة[4] . ثم واصلت هذه الحملة تقدمها حتى فتحت الابلة[5] . بعد مقاومة شديدة ، ومنها سارت متجهة الى الشمال تفتح الحصون والقلاع الفارسية المطله على جهتي نهر الفرات حتى وصلت الحيرة فحاصرتها ، وطلب اهلها الصلح من خالد ، فصالحهم وكتب لهم بذلك عهدا[6] .

ثم اتجه خالد بحملته الى الانبار ففتحها بعد حصار طويل ، ثم سار الى عين التمر ففتحها أيضا ، في حين كان عياض بن غنم ينظف القلاع والحصون من الجيوب الفارسية ، ولكنه تعرض الى حشد فارسي فطلب النجدة من خالد ، فسار خالد لنجدته ، فنزل دومة الجندل وقاتل فيها الفرس حتى هزمهم[7] . ثم بلغه ان

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل ـ حوادث سنة ١٥ هـ .

(٢) المصدر نفسه ـ حوادث ١٢ هـ ـ والنباج اسم موضع في بادية البصرة ـ الزمخشري ـ الجبال والامكنة ص ٢٩ .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ـ ١/ ٨٤ .

(٤) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٢/ ٥٥٤ . كاضمة ـ جون على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة ، بينها وبين البصره حلقتان ، وفيها ركاب كثيرة ، وماؤها شروب ، واستقاؤها ظاهر . ياقوت معجم البلدان مادة كاظمة .

(٥) ابن الاثير ـ الكامل ـ ٢/ ٢٩٥ .

(٦) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٢٤٣ .

(٧) المصدر نفسه ـ ص ٢٤٧ .

الفرس ، قد حشدوا قوات كبيرة لمهاجمة الانبار ، فقرر العودة الى الحيرة لمواجهة الموقف هناك ، وفي هذا الظرف جاءه امر من الخليفة ابي بكر يطلب منه الالتحاق مع قسم من جيشه الى الشام لمساعدة الجيوش الاسلامية التي تتعرض هناك لضغط بيزنطي عند وادي اليرموك ، على ان يستخلف المثنى بن حارثة على الجزء المتبقي من جبش المسلمين[١] ـ فاتخذ المثنى الحيرة قاعدة له سنة ١٣ هـ[٢] .

وكان الفرس قد جمعوا جيشا كبيرا ، التقى به المثنى عند بابل حيث دارت معركة حامية الوطيس ، استطاع المثنى فيها ان ينتزع النصر من العدو ، وقد كشفت هذه المعركة ، قلة جيش المسلمين ، فكتب المثنى الى ابي بكر يطلب منه العون والمدد ، فلما أبطأ عنه العون ، خرج المثنى الى المدينة ، حيث وجد أبا بكر مريضا واشتدت عليه الحمى ، فحدثه المثنى عن العراق ، وما يتطلب وضعه العسكري من عون ومدد ، فاستدعى ابو بكر عمر بن الخطاب وطلب منه ان يندب الناس مع المثنى ولا يشغلهم موته عن امر دينهم ، وقد توفي ابو بكر في اليوم التالي ، فتولى الخلافة عمر بن الخطاب ، فندب الناس الى العراق مع المثنى ، وسير معه جيشا كبيرا من المهاجرين والانصار، وجعل عليه ابا عبيده بن مسعود الثقفي ، وقد سبق المثنى هذا الجيش في العودة الى العراق ودخل الحيرة[٣] ، حيث وجد الفرس ، قد انشغلوا عن امر المسلمين لخلاف بين الاسرة الحاكمة على الملك ، ولكن مع ذلك كان رستم الذي أصبح الحاكم الفعلي للامبراطورية ، وقد أدرك الخطر الذي يهدد بلاده من العرب في ابعد مداه ، فاخذ يجمع الجيوش لملاقاة المسلمين[٤] . الا ان المثنى استعد هو الآخر لمقابلة جيوش العدو، فحدثت بينهما اشتباكات صغيرة متعددة ، هرب

(١) ابن الاثير ـ الكامل ـ ٢/٣٠٣ .
(٢) المصدر نفسه ـ ٢/٣١٢ .
(٣) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٢٤٤ .
(٤) كرستنسن ـ ايران في عهد الساسانيين ـ ص ٢٧٨ وما بعدها .

الفرس على اثرها الى كسكر في شمال البطيحة من أرض السواد ، فتبعهم المسلمون فهزموهم ، ولما علم رستم بخبر هذه الهزائم ، جهز جيشا كبيرا يقوده (بهمن جاذويه) ، لملاقاة جيش المسلمين الذي يقوده أبوعبيدة ، فحدثت بينهما معركة دارت رحاها عند الجسر حيث سميت به المعركة ، انكسر فيها المسلمون وقتل فيها ابو عبيدة وجرح المثنى فيها ايضا ، وذهب معظم جيشه بين قتيل وغريق ، ولم يبق منه الا القليل ، ولما علم عمر بهذه النكبة حزن حزنا شديدا على ما اصاب المسلمين ، فاعلن النفير العام ، واخذ يمد العراق بامدادات كبيرة ، وقد حقق المثنى في هذه الاثناء نصرا كبيرا في معركة البويب على الجيوش الفارسية والتي ثأر فيها لمعركة الجسر[1] .

ويبدو أن هذه المعارك بين العرب والفرس ، قد مهدت السبيل الى استعداد الطرفين لخوض معركة القادسية الفاصلة . بعد ان اعلن عمر التعبئة العامة ، كتب الى عماله يقول : « لا تدعوا احدا له سلاح او فرس او نجدة او رأي الا انتخبتموه ثم وجهتموه الى والعجل العجل »[2] . فاجتمع له جيش كبير وعهد بقيادته الى سعد بن ابي وقاص ، فسار به نحو العراق[3] .

وكان مع المثنى بن حارثه في العراق ثمانية آلاف من ربيعه ، ومعظمهم من بكر بن وائل ، ولكن المثنى توفي متأثرا بجراحه قبل ان يلقي سعدا[4] .

ومن جهة اخرى استعد الفرس لمواجهة جيش المسلمين ، بجيش ضخم قاده رستم ، فالتقى الجيشان في ١٥ هـ (٦٣٦ م) في القادسية القريب من الحيرة ودارت رحى معركة ضارية ، استمر القتال فيها ثلاثة ايام ، انتهت بهزيمة الفرس ،وقتل

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ـ ١/ ٩٢ ـ٩٣ .
(٢) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤ .
(٣) المصدر نفسه ٣/ ٩ .
(٤) الطبري ـ تاريح الرسل ـ ٤/ ١٦ .

رستم [1] .

وقد تتبع جيش المسلمين فلولهم الى المدائن ، فاستولى عليها ، ثم خاض معركة جلولاء شمال شرقي المدائن في سهل نهر ديالي ، وأحرز فيها ذلك النصر الرائع ،الذي دق به آخر مسمار في تابوت الحكم الفارسي في العراق[2] .

ويبدو ان الحاجة قد وضحت عندئذ الى مرحلة من الاستقرار ، في حياة العرب الى تمصير الكوفة التي ساتحدث عنها الآن .

تمصيرها :

لم تكن الكوفة معروفة بهذا الاسم ، قبل تمصيرها ، وانما كان موضعها أرضا خاليةمن السكان ، على الضفة الغربية للفرات الاوسط ، شرقي مدينة الحيرة ، وكان بينها وبين النهر لسان من الرمل ، يقترب عموديا من الفرات يسمى الملطاط[3] ، وكانت توجد على حافة البادية مسلحة ، تحرس (جسر الزوارق) ، المنصوب على الفرات ، الذي يفضى الى طريق يؤدي الى العاصمة طيسفون (المدائن)[4] وفي هذا السهل الخصيب المحصور بين الفرات شرقا والبادية الواسعة ،المطلة على مشارف الشام ، غربا بنيت هذه المدينة التي اتخذت اسم الكوفة عند تمصيرها .

وقدذكرالمؤرخون واللغويون عدة اسباب لتسمية الكوفة ، فقيل[5] : سميت

(١) كرستنسن ـ المصدر السابق ـ ص ٤٨٥ .
(٢) تاريخ خليفة بن خياط ـ ١/ ١٠٧ .
(٣) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٣٧٧ .
(٤) ماستيون ـ خطط الكوفه ـ ص ٦ .
(٥) البلاذري ـ فتوح ص ٣٧٥ ، الطبري ـ تاريخ ٣/ ١٤٤ ، ١٤٦ ياقوت ـ معجم البلدان ـ ٧/ ٢٩٦ ـ البكري ـ معجم ما استعجم ٤/ ١٤٢ ، ١٥٢، ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان ،ص ٦٣ ـ صفي الدين ـ مراصد الاطلاع ٣/ ١٨٧ .

الكوفة نسبة الى ارضها التي كانت أرضا رملية تخالطها حصباء . وقيل أيضا : ان سعد بن أبي وقاص ، عندما اختط موضع الكوفة ، قال للمسلمين : تكوفوا اي (اجتمعوا) ، وقيل أيضا : سميت الكوفة نسبة الى جبل صغير في وسطها ، يقال له كوفان ، وعليه اختطت ، وقيل : سميت بهذا الاسم نسبة الى جبل (ساتيدسا) محيط بها كالكفافة عليها . وقيل : انها ينبت في منطقة اسمها كويقة ابن عمر .

ولعل ارجح هذه الاقوال ، ان تسمية المعسكر بالكوفة ، قد اشتقت من لفظتين مشهورتين في المنطقة ، وهما كوفان وهوتل صغير، وكويقة بن عمر، وهي موضع . فلا بد للمسلمين قد سمعوا باسمهما ، يتردد على السنة سكان المنطقة ، حين كانوا يمسحون المنطقة ، بهدف اقامة المعسكر في أفضل مواضعها ، فاشتقوا من اسم احدهما اسما أطلقوه على مدينتهم في اثناء تمصيرها .

وكان تأسيس الكوفة احدى الضرورات الحربية ، التي فرضتها دواعي الفتح الاسلامي لبلاد فارس في عهد عمر بن الخطاب ، فقد اندفع الجيش العربي الاسلامي تحت قيادة الصحابي سعد بن ابي وقاص بعد فتوح السواد الفاصلة الى بلاد فارس . وكان من نتيجة هذا، ان طالت خطوط المواصلات ، بين المدينة حاضرة الدولة الاسلامية في ذلك الوقت وميادين القتال ، فكان من الضروري ان يتخذ الجيش الاسلامي المحارب ، نقطة ارتكاز له يستريح عندها من عناء السفر وعناء الحرب او معسكرا ثابتا قريبا من ميدان القتال . فأصدر عمر امره الى سعد ان : « يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيروانا » [1] . يرابط فيه الجنود مع اسرهم تحت السلاح ، ومن هنا كان الجنود المسلمون يسمون احيانا المقاتلة واحيانا المهاجرة .

وقد بدأ لسعد في أول الأمر ان المدائن هي التي يقصدها عمر في امره له ، في

---

(١)البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٢٧٤ .

ان تكون منطقة تصلح لاقامة هذا المعسكر الثاني للجيش الاسلامي ، ويتابع منها اندفاعه صوب الشرق ، ولكن على ما يبدو ان جو هذه المنطقة الرطب لا يلائم العرب الذين قد تعودوا جو الصحراء الحار الجاف ، فاجتووها أي استوخموها واستوثيوها [١] . فتغيرت تبعا لذلك الوانهم ، وضعفت اجسامهم فشكوا احوالهم الى عمر [٢] .

وعندما علم عمر ، بما آل اليه وضع المسلمين الصحي في هذه المنطقة ، أدرك بذكائه المعهود ، أهمية العامل الجغرافي في اختيار البيئة التي تصلح لنزول العرب المجاهدين ، الذين كان يحرص عليهم ان يظلوا ، محتفظين بنشاطهم وحيويتهم وقوتهم التي خرجوا بها من الصحراء ، كما أنه أدرك أيضا بثاقب فكره أنه لا تصلح لهم الا بيئة جغرافية تشبه البيئة التي خرجوا منها . في حين ـ من ناحية اخرى ـ انه لاحظ ، طبيعة المهمة التي خرج من اجلها، العرب ، هي مهمة حربية ، تفرض عليه ، الا يهمل الجانب الحربي في هذا الاختيار ، فرأى ان المنطق العسكري يقضي ، بالا توجد موانع طبيعية بين جيش المسلمين ومركز القيادة العليا في المدينة ، لكي يضمن بذلك السيطرة على مسالك المواصلات التي تصل بينهما ، فكتب الى سعد موضحا له : « ان العرب بمنزلة الابل ، لا يصلحها الا ما يصلح الابل ، فارتد لهم موضعا عدنا ولا تجعل بيني وبينهم بحراً [٣] .

يبدو ان هذه توصية رسمية ، تلزم سعد في التحول بالمسلمين من هذا المكان الموبوء ، فاخذ سعد مباشرة يفتش عن مواضع ، تتوفر فيها الشروط التي خصها عمر في كتابه اليه ، ففكر بالانبار الواقعة على ضفة الفرات الغربية ، حيث لا توجد

---

(١) المصدر نفسه ـ ص ٢٧٤ .
(٢) تاريخ خليفة بن خياط ـ ١/ ١٠٩ .
(٣) البلاذري ـ المصدر السابق ـ ص ٢٧٦ .

فواصل بينها وبين الجزيرة ـ كما اراد عمر ـ « واراد ان يتخذها منـزلا ، فكثر على الناس الذباب ، فتحول الى موضع آخر ، فلـم يصلـح ، فتحـول الى الكوفة ، فاختطها » [1] .

وجاء تمصير الكوفة على وجه التحقيق بناء على امر اصدره الخليفة عمـر الى قائده سعد ، ليتقي به المسلمون وخومة منطقة المدائن على ان يختـاروا منـزلا بريا وبحريا ، لا يفصله بينه وبينهم بحرا وجسرا[2] . فتم لهم ذلك في موضع الكوفـة الذي استحسنه « نفيله الغساني » بما يمتاز من صفات ارض مرتفعة عن المياه ، ومنحدرة عن الغلاة نبيت فيها الخزامى والاقحـوان والشيح والقيصـوم والشقائـق وغيرها . وقد أشار البلاذري : الى ان هذا المكان كان يقال له سورستـان اوخـد العذراء[3] . كما ان صفاتها المناخية حسنة كصفاء الجو وعذوبة النسيم ، وبخاصة اذا كان شماليا او غربيا .

هذا واضاف الى ميزاتها ميزة اخرى مهمة هي انها تقع على حافـة صحـراء الجزيرة العربية لا يفصل بينها وبين العاصمة ماء او جسر[4] . وذلك ليسهل ربط العاصمة بقواتها الحربية ، وليكون الخليفة على اتصال دائم بها ، حتى يسهل وصول المؤن والامدادات العسكرية دون ان يعيقهم بحر او نهر . يضاف الى ما تقـدم ان الخليفة عمر اراد الاحتفاظ بالعرب بعيدين عن المدن القديمة حتى لا يتأثروا بما يشاع فيها من ترف ونعومة عيش ، فيفقدوا بذلك ميزاتهم العسكرية ويضيعوا في وسط هذا الخضم من السكان ، وبالتالي يفقد الفتح سيادته على المنطقة .

وكما أرادها الخليفة عمر ان تكون دارا لهجرتهم ومستقرا لاقامتهم ومعسكرا

---

(١) المصدر نفسه ـ ص ٢٧٥ .
(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٣٧٥ .
(٣) المصدر نفسه ـ ص ٣٧٧ .
(٤) ابن خلدون ـ التاريخ ـ ٣/ ٣٢١ .

لحاميتهم ، يسيطرون منها على العراق، وفارس ، ويحرزون نفورهم ، ويمَدون اهل الامصار[١] . يتخذوها دار هجرةٍ وقيروانا[٢] .

وأراد سعد بعد موافقة الخليفة عمر ان يجمع جنده في هذه البقعة التي ارتضاها ان تكون دار جهاد للمسلمين وكوفة لجنده ، فرحل بهم سعد وأتى موضع الكوفة فعسكر فيه في شهر محرم من سنة سبع عشرة للهجرة[٣] .

وحين نزل العرب المسلمون ارض الكوفة ، اقاموا معسكرهم فيها ، ونشر سعد فسطاطه وخيامه عليها ، واخبر عمر ، انه نزل أرضا ، تلائم حالتهم الصحية ووضعهم العسكري[٤] .

ويبدو مما تقدم ، ان اختيار موضع الكوفة ، لم يكن أمرا عفويا ، وانما كان بعد بحث دقيق وتفتيش متواصل ، اظهرت نتائجه انه كان اختيارا موفقا ، وكانت الدواعي الى تأسيس الكوفة ، ترجع الى عاملين اساسيين هما : ـ

١ ـ عامل عسكري :

توغل العرب في فتوحاتهم الى مناطق واسعة خارج صحرائهم فابعدتهم هذه الفتوحات عن العاصمة (المدينة) ، وعلى هذا كان لا بد من المحافظة على خطوط مواصلات الجيش العربي الاسلامي بعد توغله في بلاد فارس ، وما ترتب من حاجتها الى معسكر ثابت ، يتخذها القائد نقطة ارتكاز ، وقاعدة حربية ، يستريح فيها الجند بعد القتال ، ويتابع منها تقدمه ـ او على حد تعبير عمر ـ « دار هجرة

---

(١) ابن سعد ـ الطبقات ـ ٦/١ .
(٢) البلاذري ـ المصدر السابق ـ ص ٣٧٥ .
(٣) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ١٤٧/٣ .
(٤) ابن الاثير ـ الكامل ـ ٤١١/٢ .

ومنزل جهاد »[1] ويحمى بها ثغور البلاد ، ويكون ايضا مركزا لتموين ساحات القتال بالجند والمؤن[2] ـ وكما اوضح عمر ـ « يحرزون ثغورهم ، ويمدون اهل الامصار »[3] .

٢ ـ عامل جغرافي :

أظهر الانتقال من البيئة الصحراوية الى البيئة السهلية والجبلية في مناطق الفتوح نتائج سلبية على صحة الجند فتغيرت تبعا لذلك الوانهم وذبلت أجسامهم ، فعالج العرب المسلمون هذه الظاهرة ، وهي يجب ان تكون مواضع بناء المدن ، في مناطق صحية ، خالية من الحشرات ، وغير موبوءة وتتمتع بمناخ لا وخم فيه وهو الأمر الذي دفعه ـ وهو القائد الاعلى للجيش ـ الى التفكير في وسيلة ، تحفظ على جيشه حيويته ، وقوته ، وتعينه على المضي في الرسالة الكبرى التي غادر صحراءه من اجلها ، وهي الجهاد في سبيل الله .

ويبدو ، أن مسألة القلق على صحة الجيش المحارب ، لم تكن السبب الوحيد الذي دفع عمر الى الأمر بتأسيس الكوفة وانما أضيف الى هذا رغبته في حفظ العرب جيشا محاربا بعيدا عن الشعوب المغلوبة ، كما فعل مع الجيش العربي الاسلامي الذي حرر مصر عندما امره بعدم الاقامة في الاسكندرية .

ولما استقر العرب في الكوفة ، وجد سعد بن أبي وقاص ، ان حياة الخيام التي يحيونها في معسكرهم ، لا تلائم المجتمع الجديد الذي ألفوه ففكروا في بناء بيوتهم من القصب والبردى ، كي تكون اكثر ملائمة واكثر واقعية من حياة الخيام ، فكتب سعد

---

(١) الطبري ـ التاريخ ـ ٣/ ١٤٧ .

(٢) د. محمد حسين الزبيدي ـ الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة ـ ص ٢٥ .

(٣) ابن سعد ـ الطبقات ـ ٦/ ١ .

الى الخليفة عمر يستأذنه في بناء بيوت المعسكر من القصب ، فأجابهم « ان المعسكر أجدُّ لحربكم ، واذكى لكم ، وما أحب أن أخالفكم فابتنوا بالقصب » [١] .

من هذا يبدو ان عمر لم يكن راغبا كل الرغبة في سكنى العرب في المدن ، واتخاذهم بيوتا ، لأن هذا يبعدهم عن حياة الخشونة ، وينقلهم الى حياة الترف التي يخشاها . وكان يرى الى جانب ذلك أيضا ، ان حياة المعسكرات بما فيها من تقشف وشظف عيش ، خير حياة لهؤلاء المقاتلين الذين يجب أن يكونوا دائما على أهبة الاستعداد للقتال ، والذين لم يخرجوا من جزيرتهم ليستقروا ، وانما خرجوا منها مقاتلين ، كما يفرض عليهم جهادهم المقدس في سبيل الله . ولكنه لم يرد الوقوف أمام تيار هذه الرغبة الجامحة ، وترك للجيش وقائده حرية الاختيار والتصرف .

ان هذا النمط من البناء لم يثبت أمام الظروف الطبيعية وعاديات الزمن ، فقد وقع في هذه المدينة الناشئة حريق ، دمر ثمانين عريشاً ، ولم يبق فيها قصبة[٢] . فحتم هذا الوضع على أهلها ، أن يفكروا في بناء بيوتهم من اللبن والطين ، حتى تكون أكثر ملائمة واستقرار واثباتا من بيوت القصب أمام تحديات الطبيعة والزمن .

ويبدو ان سعدا خشي معارضة الخليفة ، وادرك أن معارضته في هذه المرة ستكون أشد ، فلم يكتب اليه كما فعل بالمرة السابقة ، وانما بعث اليه وفدا منهم ، يخبره بالحادث الاليم ويستأذنه في هذه الخطوة الجريئة[٣] .

ومرة اخرى رأى عمر ، ان في هذه الخطوة خطرا على الجيش المقاتل ، وربما من ورائها نعومة مترفة ، تهدد الحياة الخشنة ، التي يجب أن يظل هذا الجيش مقيما عليها ، ولكن التيار كان جارفا ، وليس من الحكمة معارضته فسمح لهم بذلك ، ولكن بشروط ، رأى انها تحفظ على جيشه شيئا من حياته الخشنة ، وتبعده عن الترف

---

(١) ابن خلدون ـ التاريخ ٢/ ٣٤٢ .

(٢) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٤/ ٤٤ .

(٣) ابن الاثير ـ الكامل ـ ٢/ ٤١١ .

والاسراف ، فقال لهم : (افعلوا ، ولا يزيد أن أحدكم على ثلاثة بيوت ، ولا تطاولوا في البنيان ، وألزموا السنة تلزمكم الدولة) [1] وهذه كما اعتقد مبررات ، . تلزم الدولة القيام بواجباتها نحو الفرد .

وهكذا صارت الكوفة ترسم طريقها نحو المدينة خطوة بعد خطوة ، وكان المسجد أول ما أقامه سعد من المنشآت على هذه الأرض الجديدة [2] . ثم بنى بعده قصر الامارة وبيت المال[3] ، وخططت المناهج من حول المسجد ، ثم وزعت القبائل من حول المسجد على هذه المناهج[4] . في حين بدأت قوالب اللبن ، فرفع القواعد من بنيان هذه المدينة الناشئة[5] .

ومما هو جدير بالذكر ، انه بنفس الوقت الذي أخذت فيه كل من البصرة والكوفة تنميان عمرانيا وتتمازجان اجتماعيا ، مصر عمرو بن العاص بأمر عمر الفسطاط في ٢١ هـ بمصر[6] ، لتقوم بنفس الدور الذي تمارسه البصرة والكوفة بالعراق .

حقيقة ان سعد ، قد ارسى في أثناء امارته قواعد مجمع حضري ، تتمثل فيه الانشطة الدينية والعسكرية والمدنية ، فكان هذا المجمع في واقعه يمثل حجر الاساس ، الذي وضع الكوفة على عنية التطور نحو المدينة . الا أنه بدأ تطور الكوفة ، يتلمس طريقه نحو شكل المدينة الثابت ، في امارة المغيرة بن شعبه سنة ٢٢ هـ[7] ، فأدخل الآجر لأول مرة وبشكل محدود في بناء بعض الدور فيها . وأول تلك

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ٢/٤١٢ .
(٢) ابن طاهر المقدسي ـ البدء والتاريخ ـ ٥/ ١٧٥ .
(٣) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٢٧٦ .
(٤) الطبرى ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٤/ ٤٥ .
(٥) د . يوسف خليف ـ الشعر في الكوفة ـ ص ٢٦ .
(٦) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٨٦ .
(٧) تاريخ خليفة بن خياط ـ ص ١٢٩ .

المساكن بنيت في محلة كثره [١] .

ويبدو ان تطور الكوفة - وهي في طريقها تستكمل مقوماتها باعتبارها مدينة يرجع الى امارة زياد بن أمية في ٥٠ هـ [٢] - فقد أصبح الأجر في عهد هذا الأمير هو المادة الرئيسية المستعملة في البناء ، فأخذ المسلمون يشيدون دورهم به بدلا من الطين واللبن [٣] . في حين أعاد زياد بناء المسجد ودار الامارة بالآجر ، وأدخل بعض التعديلات والتحسينات عليهما ، فوسع المسجد وزاد فيه [٤] . فقد جعله - كما يذكر ماستيون [٥] - أكبر وأجمل مسجد اسلامي آنذاك .

والواقع - على حد تعبير كرزول [٦] - ان فن العمارة في الكوفة أخذ يسجل تقدما ملموسا في أيام زياد .

وهكذا تحولت الكوفة - كما يقرر زرتشتين [٧] - الى مدينة منظمة بيوتها من الآجر .

ومما يجب ذكره أنه في الوقت الذي أخذت فيه الكوفة تتكامل عمرانيا وتتفاعل اجتماعيا في امارة زياد بن أبيه ، مصر القائد المسلم عقبه بن نافع بأمر معاوية الأول القيروان في ٥٠ هـ بتونس على هامش الصحراء [٨] ، لتسد مسد الفسطاط في تقديم الخدمات العسكرية للمقاتلة المسلمين بجبهة القتال الافريقية ولتقوم أيضا بنفس الدور الذي قامت به البصرة والكوفة في الجبهة الشرقية .

---

(١) ماستيون - خطط الكوفة - ص ٩ .
(٢) الدكتور على حسنى الخربوطلي - تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي - ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ ،
(٣) ياقوت - معجم البلدان - ٧/ ٢٩٧ .
(٤) البلاذرى - فتوح البلدان - ص ٢٧٧ .
(٥) خطط الكوفة - ص ٢٨ .
(٦) Early Muslin architecture Vol - I - P . 33 .
(٧) The Encyclobidia of Islam , Art al Kufa .
(٨) ابن الاثير - أسد الغابة في معرفة الصحابة . قسم ١ حـ ٣ ص ٤٢١ . ابن عبد البر - الاستيعاب - ٣/ ١٠٧٦ . تاريخ خليفة بن خياط - ١/ ١٩٥ .

وقد ذكرنا سابقا ان الكوفة والبصرة ، قد أنشئتا ، لتكونا معسكرين ثابتين للجيوش العربية الاسلامية ، في تدفقها على بلاد فارس . وعلى الرغم من ان هذين المعسكرين قد تحولا ـ مع الزمن ـ الى مدينتين ، فان مهمتها العسكرية استمرت لهما . فقد ظل المقاتلون ، يفدون اليهما من وسط وأطراف الجزيرة العربية ، فيستقرون فيهما الى أن يصدر لهم أمر الخليفة بالخروج الى الفتح ، او بامداد غيرهم من الجيوش العربية الاسلامية المجاهدة في مختلفة الأرجاء[1] .

وان المتتبع لحركة الفتح الاسلامي ، يجد ان البصرة والكوفة ، لعبتا دورا خطيرا في هذه الحركة ، فمنذ نشأتهما وهما لا يكفان عن المشاركة في كافة ميادين القتال في الجبهة الشرقية .

وامدت البصرة في امارة عتبة بن الغزوان القوات العربية الاسلامية المحاربة في القادسية سنة ١٥ هـ[2] ، كما انها تمكنت في امارة أبي موسى الاشعري (١٧ ـ ٢٩ هـ) من توطيد سيطرتها على كور دجلة في (١٧ هـ)[3] وفتح اصفهان وضم وقاشان في (٢١ هـ)[4] في حين اشتركت مع أهل البحرين في بعض فتوح مقاطعة فارس في (٢٤ هـ ـ ٢٨ هـ)[5] ، وقد لقي أهل البصرة في هذه الفتوحات مقاومة شديدة من القوات الساسانية[6] .

وقد اتسعت جبهة القتال التي تقوم بها البصرة في امارة عبد الله بن عامر بن كريز (٢٩ ـ ٣٥ هـ) [7] ، فأصبحت قواتهم مسئولة عن الفتوح في كافة المقاطعات

---

(١) الطبرى ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٣/ ١٤٧ .
(٢) البلاذرى ـ فتوح البلدان ـ ص ٢٥٦ .
(٣) تاريخ خليفة بن خياط ـ ١/ ١٠١ .
(٤) البلاذرى ـ المصدر السابق ـ ص ٢٥٧ .
(٥) تاريخ خليفة بن خياط ـ ١/ ١٣١ ـ وما بعدها .
(٦) بوليوس فلهاوزن ـ تاريخ الدولة العربية ـ ص ٣١ .
(٧) زامباور ـ معجم الانساب والاسرات الحاكمة ـ ص ١/ ٦٥ .

الواقعة شرقي الخليج العربي ، والتي كانت حتى ذلك الوقت تقوم بها الجيوش الاسلامية من قاعدتها في البحرين[1] .

واستطاعت البصرة من فتح ما تبقى من اقاليم فارس وسجستان وكرمان ، ثم شاركت بالفتوحات العربية الاسلامية في خراسان[2] .

وأدت هذه الفتوحات السريعة الواسعة الى ازدياد دخل البصرة ، وانتشار الرخاء الاقتصادي فيها ، الأمر الذي شجع التجار ورجال الاعمال على التوافد عليها ، وبذلك بدأت الحياة المدنية تنمو فيها سريعا .

والكوفة منذ نشأتها كمصر ، وهي لا تكف عن المشاركة في حركة الفتح الاسلامي ، ويذكر الطبرى ، أن أول قتال اشترك فيه جند الكوفة ، كان بعد تأسيسها بقليل ، فتم لهم به فتح الجزيرة الفراتية ، واخضاعها في (١٧ هـ) ، وفي السنة نفسها ، اشتركت حامية الكوفة في فتح رامهرمز . ويستروبها وتد[3] .

والكلام على فتوح الكوفة كثير ، وقد حفلت به كتب التاريخ والفتوح[4] ، وتغنينا عنه شهادة الخليفة عمر بن الخطاب ، التي عبرت بوضوح في أكثر من مناسبة عن الدور الفعال الذي لعبته الكوفة في حركة الفتح الاسلامي ، فقد ذكر ابن سعد في طبقاته : (كتب عمر بن الخطاب الى أهل الكوفة : يا أهل الكوفة انتم رأس العرب وجمجمتها ، وسهمي الذي أرمي به ، ان اتاني شيء من هاهنا وهاهنا)[5] . وفي مناسبة ثانية يقول عمر أيضا : « الكوفة رمح الله ، وفية الاسلام ، وجمجمة

---

(١) الديار بكري - تاريخ الخميس - ٢/ ٢٨٥ .

(٢) تاريخ خليفة بن خياط - ١/ ١٤٠ .

(٣) الطبرى - تاريخ الرسل والملوك - ٤/ ٥٣ .

(٤) تاريخ خليفة بن خياط - البلاذري - فتوح البلدان - الطبرى - تاريخ الرسل والملوك - السعودي - مروج الذهب ومعادن الجوهر - ابن الاثير الكامل في التاريخ .

(٥) ٦/ ٣١٢ .

العرب ، يكفون نفورهم ، ويمدون الامصار »[1] . وفي ثالثة يسجل عمر شهادة رائعة لاهل الكوفة فيقول : « جزي الله أهل الكوفة خيرا ، يكفون حوزتهم ، ويمدون أهل الامصار »[2] .

ولم يكن عمر وحده ، شهد للكوفة بهذا ، بل شهد لهم بذلك أهل الشام أيضا ، ويحدثنا ابن سعد في طبقاته : أن رجلا من أهل الشام ، قال لوفد من أهل الكوفة ، قدموا على عمر بـ « يا أهل الكوفة ، انكم كنز أهل الاسلام ، ان استمدكم أهل البصرة امددتموهم ، وان استمدكم أهل الشام امددتموهم »[3] .

وتستمر مشاركة جند الكوفة بعد عمر في الفتوح ، فيذكر البلاذري ان مغازي الكوفة في عهد عثمان ، كانت السرى واذربيجان[4] ، كما انهم شاركوا في الحروب في أيام الدولة الاموية ، فبأمر معاولة الاول ، قاتل أهل الكوفة الخوارج الحرورية[5] ، وفي أيام عبد الملك بن مروان قام أهل الكوفة بدور خطير في قتال الخوارج الازارقة بالاهواز مع المهلب بن أبي صفره في (٧٢ هـ) ، ثم مضوا بعد ذلك الى السري للجهاد[6] .

ويبدو أن الكوفة منذ نشأتها ، كانت تتحمل مقابلة الجيوش الساسانية كالبصرة ، ولكن هذا التحمل كان قويا ، وله أكبر الاثر في انتصار المسلمين وانتشار الاسلام ـ وحسبنا أن نشير الى تلك القائمة عن فتوح الكوفة وأيامها التي يقدمها ابن الفقيه الحمداني[7] ، ففيها دلالة واضحة وجلية من ان الكوفة لعبت دورا خطيرا

---

(١) الطبرى ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٤/ ٥٩ .
(٢) المصدر نفسه ـ ٤/ ٥٢ .
(٣) ٦/ ٨٥ .
(٤) البلاذرى ـ فتوح البلدان ـ ص ١٩٧ .
(٥) الطبرى ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٥/ ١٦٦ .
(٦) تاريخ خليفة بن خياط ـ ١/ ٢٦٥ .
(٧) مختصر كتاب البلدان ـ ص ١٦٥ .

في حركة الفتح الاسلامي وان الكوفيين قاموا بدور فعال فيها . فالكوفة بحق ـ على حد تعبير الامام علي ـ « كنز الايمان وجمجمة الاسلام ، وسيف الله ورمحه ، يضعه حيث يشاء »[1] .

والمتتبع لحركة الفتح الاسلامي ، يجد ان الكوفة والبصرة كانتا المعسكرين الاساسيين اللذين انطلقت منهما الجيوش الاسلامية لفتح المناطق الشرقية والشمالية الشرقية التي تمتد شرقي دجلة حتى بلاد السند ، كما تمتد شمالا حتى ارمينية واذربيجان[2] . فقد تسنى لهما نتيجة لذلك تحديد حدود الامبراطورية الاسلامية في هذا الميدان .

وقد أشرفت البصرة والكوفة على الشئون الادارية في العراق ، وما جاوره شرقا وشمالا من الاقاليم المفتوحة ، باعتبارهما مصرين أنشأهما العرب الفاتحون لاغراض الادارة والفتح . فكانت البصرة ولاية تدير شئون جنوب العراق أو ما ارتبط به من اقاليم البحرين واقاليم فارس وسجستان وكرمان في بلاد فارس[3] . في حين تدير ولاية الكوفة الاقليم الاوسط من العراق وما اتصل به اداريا من اقليم الجزيرة في شمال غرب العراق واقاليم ارمينية واذربيجان وبلاد الجبل والسرى وخراسان في بلاد فارس[4] .

---

(١) نفس المصدر ـ ص ١٦٣ .
(٢) فيليب حتى ـ تاريخ العرب (مطول) ٢/ ٢٩٣ .
(٣) لسترنج ـ بلدان الخلافة الشرقية ـ ص ١٩ .
(٤) المصدر نفسه ـ ص ٢٠ .

٤ ـ الموصل

ـ تمهيد :

في هذا التمهيد نتناول بالحديث دراسة جغرافية وتاريخية عن المكان ، قبل أن ينشيء المسلمون هذه المدينة .

فمن الناحية الجغرافية ، الموصل اليوم من أجل مدن العراق وأشهرها وتلي بغداد سعة ، وتبعد عنها بمسافة (٨٠) فرسخا الى الشمال منها ، على ضفتي نهر دجلة ، وتعد من أهم محافظات شمال العراق ، وهي ـ على ما يذكر القزويني[١] ـ احدى قواعد الاسلام ، رفيعة البناء ووسيعة الرقعة محط رحال الركبان .

ولموقع الموصل وطبيعتها آثار واضحة على مجرى تاريخها الحضاري عبر تعاقب العصور ، فقد رسمت عوامل البيئة الطبيعية لهذه المدينة نوع نشاطها الحضاري بشكل أضحى من الصعب دراسة أي ناحية منه دون فهم البيئة الجغرافية اللازمة لها .

وموضع الموصل يقع في منطقة سهلة خصبة تعد من الناحية التضاريسية والجيولوجية جزءا من منطقة جغرافية واحدة متشابهة تمتد من وادي الفرات غرباً حتى دجلة شرقاً ، ثم تتصل هذه المنطقة جنوبا بدون فواصل بالسهل الرسوبي المنبسط

---

(١) أثار البلاد وأخبار العباد ـ ص ٤٦١ .

(أرض السواد) الذي يجري فيه نهرا دجلة والفرات حتى مصبهما في الخليج العربي .

وتحجز هذه المنطقة عن سواها سلاسل جبلية مرتبطة بعضها ببعض تقع شرق دجلة وشماله تمتد من عقدة ارمينية شمال شرقي العراق الى البحر المتوسط شمالاً والى الخليج العربي شرقا ، فتشكل هلالا عظيما يصل بين منطقتين مهمتين هما الخليج العربي والبحر المتوسط .

ويقع موضع الموصل وأطرافه في زاوية شمالية شرقية من ذلك الهلال حيث تلتقي سلاسل الجبال بالسهول ، بمعنى أنه يقع في أهم منطقة استراتيجية مؤسسة في تلك المنطقة وبدوره يجعل منها منطقة توازن دقيق بين طرفي ذلك الهلال الكبيرالغربي أي بلاد الشام والشرقي الى اقليم العراق وهو توازن كان له الاثر الواضح في تحديد مجرى نشاط موضع الموصل الحضاري على الدوام .

وبالاضافة الى ذلك فان لموضع الموصل أهمية أخرى تتعلق بحكم موقعها المتوسط ، حيث يمثل قاعدة متقدمة لحضارات السهل وأرض الجزيرة الفراتية في المنطقة الجبلية المحيطة به . وفي نفس الوقت أنه يشكل احدى المنافذ الرئيسية للمنطقة الجبلية المطلة على السهل، لذلك فان موضع الموصل كان وما يزال نقطة احتكاك وتفاعل دائم بين الجبل والسهل، كما انه يعد جغرافيا نقطة التقاء بين أربع اقاليم طبيعية مهمة . فهو من ناحية انتقال من الصحراء المنبسطة الحافة الى الجبال ، الممطرة وما ورائها وهو من ناحية أخرى منطقة التقاء بين اقليم الجزيرة والسهل الرسوبي (سواد العراق) ، ولا شك أن لكل اقليم من هذه الأقاليم تأثيره الخاص المتميز في تشكيل الحياة الحضرية منذ القدم لموقع الموصل مما منحه بتوالي العصور شخصية محلية واضحة المعالم ظاهرة السمات .

ويبدو ان لخصائص موقع الموصل هذه أثرا في تنشيط الحركة الحضرية

والاستيطانية التي كانت بدايتها قبل الميلاد ، فقد انشأ الانسان العراقي القديم الذي خرج من كهوف المنطقة الجبلية بعد انحسار الجليد في فترة فرم « ك » الى خطة الدائم ، قرى زراعية هي حلف والاريجية وحسونه[1] ، كما شيد الاشوريون بعد ذلك شبكة من المدن خلال تاريخهم الطويل ، تطل على نهر دجلة من الجانبين في موقع الموصل وهي اشور وكالح واربيسل ودهوك ودور شروكين ونينوى[2] . وبعد الميلاد أقام العرب القاطنين في الجزيرة الفراتية قبل الاسلام مدينة الحضر التي لا تزال آثارها شاخصة الى اليوم بالقرب من موضع الموصل ، وأقاموا فيها امارة عربية تعتمد على التجارة والزراعة[3] ، كما بنى الساسانيون مدينة نوارد شير على موضع الموصل[4] ، وبالقرب منها شمالا أقام البيزنطيون مدنا محصنة هي الزعفران وهو سنجار ولا تزال هذه المدن قائمة الى اليوم[5]في حين مصر العرب في صدر الاسلام عندما فتح العراق بأكلمه الموصل بدوافع عسكرية وصحية ، على الجانب الغربي من نهر دجلة في شمال العراق ، لتقوم بنفس الدور الذي اضطلعت به البصرة والكوفة في وسط وجنوب العراق . ولتراث مكانة نينوى الحضارية في شمال العراق .

أما من الناحية التاريخية فقد كان الموضع قبل تمصير الموصل حصنا اشوريا يقع على الضفة الغربية من نهر دجلة[6] ـ اطلق عليه الاراميون اسم الحصن العبوري ازاء نينوى عاصمة الآشوريين التي تقع بجوار ضفة دجلة الشرقية وتعرف اطلالها اليوم بتل قويتجق[7] .

---

(١) د . محمد رشيد الفيل ـ جغرافية العراق التاريخية في العصور القديمة ص ٢٣ .
(٢) دروني مكاي ـ مدن العراق القديمة ـ ص ٢٠٥ .
(٣) القزويني ـ آثار البلاد وأخبار العباد ـ ص ٣٥٤ .
(٤) كرستنيسي ـ ايران في عهد الساسانيين ـ ص ٣٦٧ .
(٥) يوسف غنيمة ـ مدن العراق ـ ص ١٩ .
(٦) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ١/ ١٨١ .
(٧) دروني مكاي ـ مدن العراق القديمة ـ ص ١١٧ .

شيد الآشوريون هذا الحصن لصد غارات الاعداء من الجهة الغربية وللاشراف على السهول الغربية المقابلة لمدينة نينوى .

وفي سنة ٦١٢ ق . م سقطت مدينة نينوى على يد الكلدانين والماذين فقتلوا أهلها ولم ينج من سكانها الا القليل ولا شك أن التخريب والقتل أصاب الحصن الغربي ومن حوله . وبعد أن هدأت الأحوال واستتب الأمن في البلاد تراجع بعض السكان الذين سلموا من سيوف الاعداء الى نينوى ، كما ان قسما منهم رجعوا الى الحصن الغربي فرعوه وسكنوا فيه[١] .

وفي القرن الثاني للميلاد كان حول الحصن الغربي بيوت قليلة أيام السلوقين ومن بعدهم البارتيزة ، حيث أخذ السكان في هذا العهد يتراجعون الى الحصن فأعادوا بناءه ، وبنوالهم دورا حوله وغرسوا أشجار قريبة منهم . وبنى أحد الرهبان المسمى ايشو برفس في سنة ٥٧٠ م ديرا على التل المذكورة[٢] .

وفي القرن السادس للميلاد اشتد النزاع بين الفرس الساسانيين والروم البيزنطيين على سيادة الهلال الخصيب وأخذ كل من الطرفين يعزز قوته فرمموا القلاع القديمة التي كانت قد خربت كما وسعوا بعض القلاع لحاجتهم اليها ، وأنشأوا قلاعا غيرها ، فقد اهتم كسرى ابرويز بن هرمز ٥٩٨ م - ٦٢٨ م في تعمير الحصن الغربي لخطورة موقعه الحربي فوسعه وجدد ما كان قد انهدم منه وعززه بحامية قوية ، وأتى بجلو من فارس ، واسكنهم حول الحصن المذكور[٣] .

وأمرهم ببناء الدور فكثرة العمارة حول الحصن . وظهر اسم نوادر شير في هذه

---

(١) ليشو عدناج - الدبورة في مملكتي فارس والعرب - ص ٥٠ . نقله للعربية بولس شيخو .
(٢) كرستنسن - ايران في عهد الساسانيين - ص ٣٦٧ .
(٣) المصدر نفسه - ص ٣٦٨ .

الفترة بين البلاد ـ ومعناه عرين الاسد وذلك لحصانة المكان ، الا أن الحصن الغربي الذي ظهرت حوله نوادر شير كثير ما يغلب على اسمها وبخاصة عند السكان القدماء الذين كانوا يقطنون هذه الديار قبل نقل الفرس اليها فكانت المصادر الآتية الآرامية ـ كما أشرنا ـ تسمى هذا الموقع حصنا عبوريا ومعناه في العربية الحصن الغربي وذلك تمييزا له عن الحصن الشرقي الذي كان يقابلها في الجهة الشرقية من نهر دجلة[1] .

لكنها لم تسلم من الخراب لأنها كانت مسرحا للحروب التي دارت بين الساسانيين والبيزنطيين[2] .

٢ ـ تمصيرها :

في سنة ١٨ هـ تم فتح الصحن صلحا من قبل العرب المسلمين في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[3] . حيث كان هذا الحصن يشتمل قبل الفتح على مدينة صغيرة فيها محلة لليهود وأخرى للمجوس وبيع للنصارى حولها بيوت لهم[4] .

وأول من تنبه الى خطورة موقعها من العرب هوالفاروق عمر فاتخذها مركزا للفتوحات ، وجعل بها ـ على ما يذكر اليعقوبي[5] ـ أحد الاجناد الستة التي جندها . وعين واليا عليها عتبة بن فرقد السلمي الذي أنزل العرب القائمين فيها[6] .

---

(١) ليشوعدناج ـ الدبورة في مملكتي فارس والعرب ـ ص ٥٢ .
(٢) سعيد الديوه جي ـ الموصل في العهد الاتابكي ـ ص ٥ ، ٦ .
(٣) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٤٠٧ .
(٤) ابن الاثير ـ الكامل ـ ٢ / ٢٥٨ .
(٥) التاريخ ـ ٢/ ١٧٦ .
(٦) ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان ـ ص ١٢٨ .

وولاها بعد السلمى عرفجة بن هرشمة البارقي في سنة ٢٠ هـ الذي سعى الى تمصير المدينة بأمر عمر ، فاختط منازل العرب الفاتحين وابتنى الامارة والمسجد الجامع على غرار ما خططت به الكوفة والبصرة . وأطلق عليها اسم الموصل لأنها تصل السهل بالجبل والفرات بدجلة ، كما وصلت بين العراق والشام ، وغدت الموصل - على ما يذكر اليعقوبي[1] - من الامصار المهمة ، تستقبل المقاتلة والمهاجرة من العرب كالبصرة والكوفة .

وفي خلافة عثمان بن عفان (٢٤ هـ - ٣٥ هـ) نزلت القبائل العربية الموصل وسكنتها ، وأول القبائل التي نزلتها هي الازد وطي وكندة وعبد القيس نزلها - على ما يذكر البلاذري[2] - أربعة آلاف منهم ، كما فتحت جيوشها ارمينية واذربيجان وأرسلت منها الامدادات أيام عثمان الى الاناضول بهدف المساهمة في فتح بلاد الروم .

وتتابعت اليها القبائل في خلافة الامام علي (٣٥ هـ - ٤٠ هـ) من الكوفة والبصرة هروبا من الفتن ، فاتسعت الموصل كثيرا حتى غدت من القواعد المهمة في الاسلام[3] ، ولم ينقض دور الخلفاء الراشدين الا والموصل قد صارت من المدن التي تذكر ، وكان مقدار ما يجيىء منها في خلافة معاوية بن أبي سفيان خمسة وأربعين مليون درهم[4] .

٣ - الموصل في العصر الاموي (٤٠ - ١٣٢) :

نالت الموصل اهتمام الامويين ، نخظرا لموقعها الحربي ومركزها الاقتصادي -

(١) التاريخ - ٢/ ١٧٧ .
(٢) فتوح البلدان - ص ٤٠٨ .
(٣) ابن الاثير - الكامل في التاريخ - ٣/ ٤٠١ .
(٤) المصدر نفسه - ٣/ ٤٠٢ .

وبعدها عن القلاقل والفتن التي يثيرها أهل الكوفة والبصرة بين آونة وأخرى ضد الادارة في العراق ، وهذا مما زاد من اهتمام الامويين بها ، فكانوا كثيرا ما يولون عليها أميرا من البيت الاموي ، وممن تولاها منهم سعيد بن عبد الملك الذي حفر بها نهر سعيد ، كما بنى سور الموصل وأعاد فرتها بالحجارة[1] ، والحر بن يوسف واليها أيام هشام بن عبد الملك الذي بنى فيها قصرا متيفا تفنن في بنائه وزخرفته ، وطلى سقوفه بماء الذهب وسماه بالمنقوشة ، وشق نهرا وأجراه وسط المدينة ثم أكمله من بعده الوليد بن تليد سنة ١٢١ هـ أيام هشام بن عبد الملك[2] ، وغرس الاشجار على جانبي الطرق[3] .

ونهضت الموصل عمرانيا في آخر العهد الاموي على يد مروان بن محمد ، فقد اهتم هذا العاهل بالمدينة حيث نصب عليها جسرا ، واعتنى بطرقاتها وسورها وألحقها ـ على ما يذكر واليس بدج[4] ـ بالامصار العظام وبنى قلعتها ، ووسع الجامع وأضاف اليه المغارة .

٤ ـ الموصل في العهد العباسي من ١٣٢ هـ ـ ٣٦٨ هـ :

تكبت الموصل في بداية هذا العهد سنة ١٣٣ هـ حين هدم سورها وقتل كثير من سكانها ، فتقلصت عمارتها وتعطلت لعدة سنين بسبب خروج أهلها على محمد بن صول واليها في عهد أبي العباس[5] .

وحظيت الموصل باهتمام المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨) اذ قام عمه اسماعيل بن علي

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٣٣٩ .
(٢) الازدي ـ تاريخ الموصل ـ ٢/ ٢٦ وما بعدها تحقيق . د . علي حبيبه .
(٣) ابن الاثير ـ المصدر السابق ـ ٣/ ٤٠٤ .
(٤) رحلات الى العراق ـ ص ٢٧٥ . ترجمة فؤاد جميل .
(٥) الازدي ـ المصدر السابق ـ ٢/ ١٥٢ .

الذي عين واليا عليها بنقل الأسواق المحيطة بالجامع الى مقبرة أهل الموصل ، ونقل المقبرة الى الصحراء ، وبنى المسجد المعروف بمسجد أبي حاضر[١] . كما أن الخليفة المهدي وسع المسجد الجامع سنة ١٦٧ هـ بعد اضافة الأسواق المحيطة به ولكن سرعان ما تكبت المدينة وهدمت أسوارها من قبل الرشيد (١٧٠ هـ - ١٩٣ هـ) بعد ثورة المدينة عليه[٢] . ولكنها مع ذلك كان لها مركز اقتصادي نشط في عهده ، فقد بلغت جباتها (٢٤) مليون درهم و ٢٠,٠٠٠ رطل عسل وهذه أرقام تعطينا فكرة عما وصلت اليه الموصل من التقدم الاقتصادي بعد تكبتها[٣] . وكانت جبايتها في عهد المعتصم بعد أن خزل منها كورتي تكريت والطيرهان (٤) ملايين دينار[٤] .

وملكها بنو حمدان في أواخر القرن الثالث الهجري (٢٩٣ - ٣٦٧) حيث توسعت المدينة في عهدهم ، فكثرت أسواقها وخاناتها وحماماتها المبنية بالحجارة المهندسة والحصر[٥] ، وأسس فيها أبي القاسم جعفر بن محمد بن حمدان أول دار علم في الاسلام[٦] .

وبالموصل قبر النبي جرجس ، وبجانبها الشرقي يوجدرستاق(ك)نينوى وفيه قبر النبي يونس ، وتل التوبة وهو الموضع الذي خرج - على ما يذكر المقدسي[٧] - اليه النبي يونس لدعوة أهل نينوى الى التوبة ، فاجتمع - على ما يقول القزويني[٨] - عليه القوم لما عانوا العذاب ، وتابوا وآمنوا فكشف الله تعالى عنهم العذاب . وفي

---

(١) الازدي - تاريخ الموصل - ص ١٦٧ .
(٢) المصدر نفسه - ص ٢٥٨ .
(٣) البهنساوي - الوزراء والكتاب - ص ١٨٦ .
(٤) ابن ضرداذية ؛ المسالك والممالك - ص ٧ .
(٥) الاصطخري - مسالك الممالك - ص ٨٣ .
(٦) سعيد الديوحي - مدارس الموصل - مجلة سومر - ص ١٦٤ سنة ١٩٦٨ .
(٧) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - ص ١٤٦ .
(٨) آثار البلاد واخبار العباد - ص ٤٦١ .

هذا الموضع أيضا يوجد جامع حوله دور للزوار بناها ناصر الدولة الحمداني[1] وعلى نصف فرسخ منه عين يستشفي بمائها يقال لها عين يونس نسبة الى النبي يونس ، وبجوارها مسجد ، ويرى بقربها شجرة اليقطين التي غرسها هذا النبي (ع)[2] .

ويبدو ان الموصل لم تشترك في الاضطرابات التي قامت ضد الدولة الاموية في كل من البصرة والكوفة لذلك حافظت على اهميتها الادارية .

في حين فقدت البصرة والكوفة أهميتها الادارية عندما شاركتا بكثير من الاضطرابات والفتن التي قامت ضد الدولة الأموية ، التي أدت الى ارباك الادارة الأموية في العراق ، ويبرز هذا الأرباك الاداري بشكل واضح ابان ولاية الحجاج ، وكان من الطبيعي ان ينقل الحجاج بن يوسف (٧٥ هـ ـ ٩٥ هـ) ادارته الى مكان آخر ، فانشأ واسط لهذا الغرض .

وهذا ما سأتحدث عنه في الفصل التالي .

والخلاصة هي : أن هذه المعسكرات التي أنشأتها دواعي الفتح العربي الاسلامي على هوامش الصحراء ، وأصبحت مع الزمن مدنا ، ما هي الا معاقل لتوكيد الفتح ، وحاميات لتغذية جهات القتال بالرجال والمؤن ، ونقاط ارتكاز لحركة الفتح العربي الاسلامي ، ودور هجرة ومنازل جهاد ، ومعالم لنشر الدين ، وبذور بعث جديد للحضارة الانسانية باجتياز المكان والزمان . كما أنها أقرت التزامات الدولة اتجاه المجاهدين في السكن والوظيفة وفي اللقمة والهدمة ، في حين احالت نسيب البدوي الى ساكني المدن . وهنا وضع الأساس لما نراه في العصور التالية من تقديم القلم على السيف ، فيصبح العالم نمطا مقبولا في المجتمع .

---

(١) المقدس ـ احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٣١ .
(٢) ابن حوقل ـ صورة الأرض ـ ١/ ٢١٥ .

الفصل الثاني

العامل الاداري

١ ـ مقدمة

٢ ـ واسط

١ ـ مقدمة :

للعامل الاداري أثر كبير في نشأة وتطور المدن منذ القدم في العراق ، فقد انشأ السومريون عندما أقاموا حكمهم في جنوب العراق مدنا ادارية لغرض التمركز والانطلاق ، ومن مدنهم التي شيدوها لهذا الغرض الوركاء واور واريدو وسيار ولجنن وغيرها ، وكانت كل واحدة من هذه المدن تكون وحدة ادارية وسياسية ، وهذا ما يسمى عند الباحثين بدويلات المدن السومرية . كما أقام الاكديون مدينة اكد في وسط العراق على فرع من نهر دجلة لنفس الغرض . في حين نشأت بابل جنوب اكد على ضفة الفرات الشرقية لتكون مركزا اداريا وحضاريا من قبل عدة سلالات حاكمة توالت على حكم العراق يومذاك . وقد أطلق اسم بابل على بلاد الرافدين نظرا لما كان لهذه المدينة من علو في الادارة والحضارة . واستجابة للتطورات الادارية والسياسية . فقد شيد الآشوريون في شمال العراق في أثناء حكمهم الطويل، مدنا ادارية عديدة أقيمت معظمها على ضفتي نهر دجلة ، فنشأت آشور على ربوة بالقرب من ضفة دجلة الغربية لتكون مركزا اداريا ووحدة انطلاق عسكرية ابان تأسيس الحكم الآشوري ، وبعدها انشأ الآشوريون نينوى ونمرود ، وخراساباد بالقرب من ضفة دجلة الشرقية ، وأربيل على ضفة الزاب الأسفل ، ورايات على ضفة الفرات الشمالية وعانات على ضفته الجنوبية لنفس الغرض .[1]

(١) دروثي مكاى ـ مدن العراق القديمة ـ ص ١٠ وما بعدها .

وفي العصور الوسيطة نشأت سلوقية لتدير البلاد في العهد السلوقي في ضفة نهر دجلة الغربية[1] . كما نشأت قبالتها نيسفون على نفس النهر لتكون القاعدة الادارية للحكم الفرنسي الذي أعقب الحكم السلوقي في حكم البلاد[2] ومن بعدهم أصبحت في ٢٢٦ م مركز الادارة في الحكم الساساني للقطر وسماها العرب بالمدائن[3] وجنوبها أقيمت كسكر وميسان على ضفة دجلة الشرقية لادارة منطقة البطيحة[ك] كما انشئت الابلة في جنوب البطيحة على ضفة شط العرب الغربية لتكون مركزا تجاريا بحريا اضافة الى عملها الاداري في جنوب العراق[4] . في حين أقيمت الأنبار على ضفة الفرات الجنوبية لتدير المناطق القريبة من بلاد الشام الرومية[5] .

أما في العصر العربي الاسلامي الاول ، فقد انشأ العرب أيام الخليفة عمر ابن الخطاب شبكة من المدن العسكرية بعد تحريرهم للعراق فأصبحت فيما بعد مراكز للادارة ، فمصروا البصرة مقابل الابلة في جنوبه ، والكوفة في وسطه قرب الحيرة ، وحديثة الفرات قرب الاتيار ، وفي شماله أقاموا الموصل مقابل نواردشير الفارسية على ضفة دجلة الغربية وجنوبها شيدوا مدينة الموصل على نهر دجلة تقابل اربائيلوا (اربيل الحالية) ، فشحنوها بالمقاتلة ، كما شجع الخلفاء الأولون القبائل على الهجرة الى المدن الجديدة والمراكز الأخرى كالمدائن والانبار وكسكر وميسان للالتحاق بالقوات المقاتلة ، وجعلوا ذلك شرطا للعطاء[6] ، وأعطيت للقبائل أراضي ليستقروا عليها وروعي في ذلك توفر المراعي الدائمة أو المؤقتة لماشيتهم وذلك ضمانا للاستيطان

---

(١) المصدر نفسه ـ ص ٢٥

(٢) Seton Loyed , Ruind Cities of Iraq - P.13.

(٣) القزويني ـ آثار البلاد واخبار العباد ـ ص ٤٥٣

(٤) المصدر نفسه ص ٤٤٦/ ٤٦٤/ ٢٨٦

(٥) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ٢/ ١٢٥

(٦) ابن عساكر ـ تاريخ دمشق ـ ١/ ١٧٥

والاستقرار وتوكيدا للادارة والفتح ، وتثبيتا للسيادة الاسلامية فيه .

وبذلك استطاع أمير المؤمنين عمر الاستيطان الحضري هذه التي شملت كل مناطق العراق ، ان يعيد للعراق وجهه العربي ويجدد بواسطتها وضعه الاداري من حيث تثبيت دعائم الحكم العربي الاسلامي .

وتقف واسط التي شيدها الحجاج والى العراق أيام عبد الملك ابن مروان مثالا حيا للمدن التي نشأت بفعل هذا العامل ـ سنتكلم عنها بالتفصيل فيما يلي :

١ - واسط

(١) وضع العراق الاداري قبل واسط :

بعد استكمال فتح العراق قسمه الخليفة عمر بن الخطاب الى ثلاث مناطق ادارية ، وقد أدى هذا التقسيم الى تمصير كل من البصرة والكوفة والموصل وتعيين عامل في كل منهما . فكان أول عامل على البصرة هو عتبة بن غزوان ، كما كان سعد بن أبي وقاص أول أمير على الكوفة ، في حين كان عرفجة بن هرثمه البارقي أول والي على الموصل بعد تمصيرها من قبله .

وجعل كل أمير مستقلا عن الآخر في النواحي الادارية والمالية والقضائية واستمر العمل بهذا النظام في الثلاث ولايات حتى مجيء الامام على بن أبي طالب الى الكوفة فاتخذ منها مقرا لخلافته في ٣٦ هـ ، فاتبعت البصرة والموصل بالكوفة ، الا ان معاوية الأول استطاع أن ينقل في نفس السنة تبعية الموصل الى دمشق بعد ازاحة واليها مالك الأسدي من قبل الامام علي ، ويستمر ارتباط الموصل بدمشق حتى سقوط الدولة الأموية .

وبعد اغتيال الامام علي في ٤٠ هـ ، أصبح العراق تابعا للحكم الأموي ، فاتبع معاوية الأول (٤١ هـ - ٦٠ هـ) النظام الاداري الذي كان سائدا في أيام عمر وعثمان وذلك بتعيين واليين هما المغيرة بن شعبة على الكوفة وزياد بن ابيه على البصرة ، الى ان جمع المصرين لزياد ابن أبيه في ٥٠ هـ بعد وفاة المغيرة بن شعبة ،

فكان زياد يقيم ستة أشهر بالكوفة وستة أشهر بالبصرة [1] .

ويبدو ان الفتن والاضطرابات التي كانت سائدة في العراق آنذاك هي التي دفعت الخلفاء الأمويين الى جمع المدن تحت أسرة والي واحد .

وعندما خضع العراق لسلطان عبد الله بن الزبير ، جمع عبد الله المصرين لاخيه مصعب سنة ٦٧ هـ بعد أن قضى على ثورة المختار ابن أبي عبيدة الثقفي في الكوفة[2] .

وبعد أن انتصر عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير سنة ٧٢ هـ ولى أخاه بشرا على الكوفة ، وولى خالد بن عبد الله بن اسيد على البصرة في نفس هذه السنة ولكن عندما اضطرب امر العراق ، واشتد خطر الخوارج جمع عبد الملك ادارة العراق لبشر بن مروان في ٧٣ هـ [3] .

ولكن بشرا لم يعمر طويلا بل مات بعد ستة أشهر من توليه[4] . فاعقبه خالد بن عبد الله بن اسيد ، ولكن خالدا هذا لم يستطع ان يقوم بعمل حاسم ضد الخوارج [5] فرأى عبد الملك (٦٥ ـ ٨٦ هـ) ان الحجاج بن يوسف (٧٥ ـ ٩٥) خير من يوكل اليه أمر العراق لما عرف من شدة وحزم ، وكان عبد الملك باختياره الحجاج قد اختار أكفأ رجال دولته لمواجهة خطر الازارقة في الشرق ، واعادة النظام والاستقرار في العراق [6] الذي حتمت ظروفه الادارية القلقة الى انشاء مدينة واسط .

---

(١) الطبرى ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٥/ ٣٤
(٢) المصدر نفسه ـ ٦/٩٣
(٣) المصدر نفسه ـ ٦/ ١٩٤
(٤) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ٤/ ٣٦٦
(٥) المبرد ـ الكامل في اللغة ٣/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦
(٦) اليعقوبي ـ التاريخ ـ ٢/ ٢٧٣

(٢) نشأة واسط :

لم تكن واسط معروفة بهذا الاسم قبيل نشأتها ، وانما كان موضعها أرضا مرتفعة خالية من السكان ، تقع على الضفة الغربية من نهر دجلة شمال البطيحة غربي مدينة كسكر ، التي تقع قبالتها على الضفة الشرقية من نهر دجلة ، وقد ربط المدينتين جسر من السفن . أشار اليه اليعقوبي اذ قال : واسط وهي مدينتان على جانبي دجلة ، فالمدينة القديمة في الجانب الشرقي من دجلة ، وابتنى الحجاج مدينة في الجانب الغربي ، وجعل بينهما جسرا من السفن[١] وأطلالها اليوم تعرف بالمنارة .

وذكر المؤرخون والجغرافيون عدة أسباب لتسمية واسط فقيل : سميت واسط لأن الموضع الذي اختاره الحجاج لبناء مدينته كان يسمى واسط القصب ، فسميت واسط بهذا الاسم[٢] . وقيل ان أرضها كانت أرض قصب لذلك سميت واسط القصب[٣] وقيل سميت واسط لأن موقعها بين البصرة والكوفة والاحواز فهي تبعد خمسين قدما عن كل من المواقع الثلاثة[٤] . وذكر البلاذرى ان الحجاج عندما فرغ من بناء مدينته كتب الى عبد الملك بن مروان (٦٥ هـ ـ ٨٥ هـ) ، اني اتخذت مدينة في كرش من الأرض بين الجبل والمصرين وسميتها واسطا[٥] ويؤكد هذه الرواية كل من بحشل والاصطخري وابن حوقل وياقوت[٦] .

ولعل أرجح هذه الأقوال هما القولان الأخيران ، قول اسحاق ابن التميم في احكام المرجان وقول البلاذري الذي يعتبر حجة في الفتوح والخطط ، لأن اسم

(١) البلدان ـ ص ٣٢٢
(٢) محمد بن عبد الله الحميري ـ الوضي العطار في خبر الأقطار ورقة ٣٦٦
(٣) السمعاني ـ الانساب ـ ص ٥٧٦ .
(٤) اسحق بن المنجم ـ احكام المرجان ـ ص ٧
(٥) فتوح البلدان ـ ص ٣٥٥
(٦) تاريخ واسط ـ ٤٣ ، مسالك المالك ـ ٤٨ ، صورة الأرض ـ ٣٢٩ معجم البلدان ـ مادة واسط .

المدينة على ما يبدو هو اسم جديد اطلق عليها واستحدث على بنائها وانه عربي بلا شك .

كان تأسيس واسط أحدى الضرورات الادارية التي فرضتها ثلاثة أسباب هي :

١ ـ ازدواجية الادارة :

عندما جاء الحجاج واليا الى العراق أخذ ينتقل في اقامته كسابقيه من الولاة بين الكوفة والبصرة حسبما تقتضيه الظروف الحربية آنذاك ـ وكان يعين نائبا عنه يقوم مقامه بادارة المصر الآخر[١] ، فعند اقامته في البصرة استخلف عروة بن المغيرة الثقفي محله لادارة الكوفة[٢] .

وهكذا نجد الحجاج منذ أن وصل الى العراق أخذ ينتقل في اقامته بين الكوفة والبصرة ، فرأى من الضروري ان يتخذ مكانا وسطا بين هاتين المدينتين يكون مقرا له ، ويؤمن السيطرة الكاملة عليهما ، فيشرف على اعمال سكانهما ، واعمال نائبيه فيهما .

٢ ـ التمرد والفتن :

أيد أهل البصرة والكوفة معظم الفتن التي قامت ضد ولاية الحجاج في العراق ، وكان آخر هذه الفتن هي فتنة ابن الأشعث ، وقد انضم لها أهل البصرة والكوفة ، حيث قتل ـ كما مر بنا ـ في أثناء وقائعها عدد كثير من سكان هذين المدينتين ، فلم يكن بوسع الحجاج ان يتخذ من الكوفة والبصرة مقرا لحكمه ، اذ

---

(١) الطبرى ـ تاريخ الرسل والملوك ٥/٣٤٨

(٢) بحشل ـ تاريخ واسط ـ ٤٣

كان يدرك تماما أن صدور سكان هذين المدينتين تنطوي على الحقد عليه لذلك فان اتخاذ مقرا للحكم في وسط الجماعة لا تدين له بالطاعة نوعا من المجازفة والمخاطرة[1] .

ويبدو ان فتنة ابن الاشعث والفتن التي سبقتها أعطت السلطة أيام الحجاج انذارا في ان تفكر بنقل ادارة البلاد لموضع آخر ،بدلا من الكوفة والبصرة . .

٣ ـ عزل جند الشام عن أهل العراق :

ان الوجود العسكري الشامي الذي استنجد به الحجاج لقمع الفتن والاضطرابات والتمرد الذي انضم اليه أغلب أهل العراق ضد الادارة الأموية ، قد فرض على الحجاج فكرة نقل العاصمة الى مكان آخر بدلا من البصرة والكوفة ، حيث أراد الحجاج عزل جند الشام عن اهل العراق منذ بداية ولايته ، فقد ذكر البلاذرى[2] : ان الحجاج قدم البصرة سنة ٧٥ هـ فاسكن جند الشام حول مقره الذي بناه هناك وكان يبعد عن البصرة فرسخا واحدا ، ومنعهم من دخول البصرة بعد انتصاره يوم الزاوية ، في حين يذكر الطبرى[3] : انه عزل جند الشام عن بيوت الكوفه بعد انتصاره في وقعة دير الجماجم على ابن الأشعث .

ومحاولة الحجاج هذه لعزل جند الشام عن الاتصال بأهل الكوفة والبصرة أنه أراد في اجرائه هذا ان يحول دون اختلاط الجند الشامي بأهل البصرة والكوفة لأن سكان هاتين المدينتين كانوا يعتنقون أفكارا وآراءا معادية للحكم الاموي .

ولذلك أراد الحجاج ـ على ما يذكر ابن ابي الحديد[4] ـ بناء مدينة تكون

---

(١) فلهاوزن ـ الدولة العربية ـ ص ٢٠٣
(٢) انساب الاشراف ـ ١١/ ٣٤١، ٣٤٩
(٣) تاريخ الرسل ـ والملوك ـ ٦/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤
(٤) شرح نهج البلاغة ـ ١/ ٢٧٧

معسكرا خاصا لجند الشام ، لكي يعتمد عليه في قمع الحركات التي تقوم عليه في المستقبل ، فقلع ـ على حد تعبير فلهاوزن[1] ـ الحكومة من الأرض الأم التي تمت فيها ، فعزل ادارتها علنا في ميدان عسكري ، وليس عن أسلوب آخر لصيانة حكم الأمويين في العراق .

وأرى الحجاج ـ في ضوء ما تقدم ـ كان مصيبا في انشاء مدينة واسط لتكون مركزا موحدا لادارة الولاية بدلا من الكوفة والبصرة ، ومعسكر دائما ومنيعا لجند الشام يستطيع بواسطته قمع كل عصيان يعكر أمن الولاية .

٤ ـ عوامل اختيار موضع واسط :

لم يكن اختيار موضع واسط امرا مرتجلا ، وانما كان بعد تفتيش متواصل وبحث دقيق أبرزت نتائجه فيما بعد انه اختيار موفق ، بدليل ان انشاء مدينة واسط في هذا الموضع كان ختاما للفتن التي قامت في ذلك العصر .

ويمكننا أن نحصر العوامل التي دفعت الحجاج لاختيار موضع واسط في عامل اداري وعامل اقتصادي وعامل صحي .

فالعامل الاداري يتضح في اختيار الموضع وسطا بين الكوفة والبصرة ـ وقد أشار الى ذلك المؤرخ بحشل فقال : في هذا الصدد : « وقال الحجاج اتخذ مدينة بين المدينتين يعني الكوفة والبصرة ، تكون بالقرب منهما ، أخاف أن يحدث في احد المدينتين حدث وأنا في المصر الآخر فمر بواسط القصب فاعجبته ، فقال هذا واسط المصرين [2] .

---

(١) الدولة العربية ـ ص ٢٠٣

(٢) تاريخ واسط ـ ص ٤٣

ويبدو أن اعجاب الحجاج بموقع واسط حصل نتيجة ادراكه لأهمية الموضع من الناحية الادارية لأن الحجاج كان قد اكتسب خبرة ادارية من جراء تنقله ـ كما مر بنا ـ بين الكوفة والبصرة وعرف مضار ازدواجية الادارة ، لذلك عول على اختيار هذا الموضع ليوحد به ادارة ولايته ويقضي بالانتقال اليه على الازدواجية ومضارها بالنسبة للادارة فيها .

كما أنه يجب أن لا نغفل من جانب آخر أهمية موضع واسط من الناحية العسكرية التي تعتبر احدى فوائد موضع واسط الادارية ، فوجود دجلة في شرف الموضع والفرات في غربه ، يكون له استراتيجية حربية ممتازة ، فانه يصعب ـ على ما يقرر ابن رسته[1] ـ العبور من دجلة أو الفرات اذا ما قطعت الجسور ، فتتهيأ للحجاج الفرص للاستعداد والقضاء على الثورات من مدينة المنيعة واسط . هذا اضافة الى اهمية موضع واسط من ناحية قريبة من المشرق ، فان الحجاج بعد ان تم له القضاء على الفتن التي قامت عليه في العراق أراد أيضا من هذا الموضع أن يدير العمليات العسكرية لمواصلة الفتوحات في المشرق ، فجهز الجيوش وسيرها للفتح[2] .

أما العامل الاقتصادي ، فكان من مميزات موضع واسط ، فوقوع هذا الموضع على نهر دجلة أدى الى ان تكون للمدينة أراضي خصبة تمتد من دجلة الى الفرات فقد استفاد الحجاج والأمراء من بعده ارواء الأراضي الخصبة الممتدة بين النهرين من مياه هذين النهرين . وقد أفاض المؤرخون والبلدانيون العرب في ذكر الأراضي الزراعية التابعة لمدينة واسط ، فقال الاصطخري[3] « وهي - يعني واسط ـ خصيبة كثيرة

---

(١) الاعلاق النفيسة ـ ص ١٨٧

(٢) الطبرى ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٦/ ٣٢٧

(٣) مسالك الممالك ص ٥٨

الشجر والنخيل والزرع وليس لها بطائح وأراضي رساتيقها متصلة معمورة . وذكرها ابن حوقل [1] » انها خصبة كثيرة الشجر والزرع وليس لها بطائح ولها أرض واسعة ونواح فسيحة وعمارة متصلة ، ونواحي واسط عمل مفرد من أعمال العراق لعامل جليل تبيه خطير . ووصفها المقدس بقوله [2] : « واسط قصبة عظيمة كثيرة الشجر معدن السمك حسنة الاسواق واسعة السواد » .

ومنح موضع واسط أهمية تجارية واسعة النطاق فقد كانت منذ انشائها ملتقى عدة طرق برية ومائية ، ساعدت على تنشيط الحركة التجارية وتبادل السلع في انحاء مختلفة من البلاد [3] .

وهنا تبرز نظرة الحجاج الاقتصادية في اختيار موضع واسط ، حيث أراد أن تكون مدينته في موقع خصب يتصل بطريق ، ليكون مرتقا للرعية ومصدر رزق لها ، وقد أشار ابن الفقيه الى ذلك بقوله [4] - ان الحجاج عندما أراد بناء مدينته قال لرجل ممن يثق بعقله ، أمضى وابتع - على ما يأمر به الحجاج - موضعا في كرش من الأرض التي فيه مدينته . ولذلك يسمى أهل واسط الكرشيون .

في حين كان للعامل الصحي أثر واضح في اختيار موضع واسط ، فعندما أراد الحجاج بناء مدينته حذا حذو أسلافه بتأكيده على الناصيتين الطبيعية والصحية الى جانب النواحي الادارية والاقتصادية ، فارسل الحجاج رجلا ، وأمره أن يلتمس له مكانا في كرش من الأرض وليكن على نهر جار ، ويبدو انه سار - على ما يقرر ياقوت[5] - الى قرية يقال لها واسط القصب ، فبات بها واستطاب ليلها واستعذب

---

(١) صورة الأرض - ٢٣٨

(٢) احسن التقاسيم - ص ١١٨

(٣) لسترنج - بلدان الخلافة الشرقية - ص ٥٥

(٤) مختصر كتاب البلدان - ص ٢٠٢

(٥) معجم البلدان - ٤/ ٨٨٣

أنهارها واستمرأ طعامها وشرابها ، فكتب الى الحجاج بالخير ومدح له الموضع .

ولاختيار الموضع المقترح ، ارسل الحجاج الأطباء للتأكد من صحة ما أخبره به ففحصوا الموضع وجالوا في مواضع أخرى غيره ولكنهم رجعوا وقالوا : ما أصبنا مكانا أوفق من موضعك هذا في حفوف الريح واثق البرية[1] .

وعندما وضحت للحجاج صورة الموضع الادارية والاقتصادية والصحية بعث ـ من يشتري له هذا الموضع ، فاشتراها ـ على ما يشير بحشل[2] ـ من صاحبها داوردان بعشرة آرف درهم ـ ليقيم مدينة عليه ، بعد أن أذن له عبد الملك في بناء مدينته ـ بين المصرين .

ويبدو أن طبيعة هذا الموضع وصفاته الصحية تنفق مع رغبة العرب في السكن بالاماكن الخلوية الفسيحة كأماكنهم في جزيرتهم ، وهذا ما يؤكد استمرارية الاتجاه العام لبناء المدن العربية الاسلامية وبخاصة في العراق بتلك المناطق .

٥ ـ خطط المدنية وتاريخ نشأتها :

كانت خطط مدينة واسط على مثل ما خططت به كل من البصرة والكوفة فقد ذكر البلاذري[3] : انه عندما وصلت الى الحجاج اخبار خروج ابن الأشعث سنة ٨١ هـ أتى الى موضع واسط فاتبنى به مسجدا ، يذكر موقعه ـ المقدسي[4] ـ في الغرب من طرف الاسواق بعيدا عن الشطءوبجنبه ـ على ما يذكر ابن سرته ـ[5]مقر الحجاج

(١) يافوت ـ معجم البلدان ـ ٣/ ٧٥٩
(٢) تاريخ واسط ـ ص ٤٣ .
(٣) انساب الاشراف ـ ١١/ ٣٣٧ طبعة اهلورت .
(٤) احسن التقاسيم ـ ص ١١٨ .
(٥) الاعلاق النفيسة ـ ص ١٨٧ .

وهو في الجانب الغربي منه وفيه قبة مشرفة خضراء ترى من قم الصلح وهي بلدة تقع شمال واسط على ضفة دجلة الشرقية .

وكانت دار الامارة في واسط تقع على ما أثبتته التنقيبات الأثرية في موضع واسط من قبل مديرية الآثار العامة العراقية[1] ـ على الجدار القبلى من مسجد الحجاج وبالقرب منها أقيمت ـ على ما يذكر المقدسي[2] ـ دواوين الحكومة ودار الرزق والسجن .

فكانت هذه المنشئات الدينية منها والحكومية تؤلف قسما من أقسام المدينة له كيانه الخاص ، ويقع على الأغلب في وسط المدينة ، وحمل الحجاج ـ على ما يؤكد بحشل[3] ـ فراغا حول هذا القسم يسمى الرحبة ، يشرع منه الطرق واليه تفضي الشوارع ـ ثم عين مكان السوق العام منه وبعدها شرع المخططون يقطعون القطائع ، ويقيمون فيها المرافق ، فاختطت كل قبيلة المكان المخصص لها[4] .

وقد امدتنا المصادر التاريخية بأسماء مساجد أخرى صغيرة يمكن أن نطلق عليها اسم مساجد الاحياء . فذكر بحشل[5] ـ مسجد سيار بن دينار وهو أحد رواة الحديث في مدينة واسط ـ كما ذكر مسجد عبد الحميد في حين ذكر خليفة بن خياط في تاريخه[6] مسجد حسان التبطي على دجلة قرب المدينة .

ويبدو أن هذه التشكيلة البنائية احيطت ـ على ما يقوله المبرد[7] ـ بسور

---

(١) رقم الاصبارة ـ ٣/١٨ ـ التقرير ـ ١٠٥٢ .
(٢) احسن التقاسيم ـ ص ١١٨ .
(٣) تاريخ واسط ـ ص ٤٤ .
(٤) بحشل ـ تاريخ واسط ـ ص ١٤٠ .
(٥) المصدر نفسه ص ٩٧ .
(٦) ٢/ ٤٣٦ .
(٧) الكامل في اللغة ـ ٢/ ٦٢٥ .

وخندق ـ أما طت عنهما اللثام تنقيبات مديرية الآثار العراقية في ٥ آيار كانون ثان من عام ١٩٤٢ ، وكان السور الذي عثرت عليه نصف دائرة مبنى بالأجر تحيط باطلال المدينة من جهاتها الثلاث الشمالية والغربية والجنوبية الغربية[١] .

وكان على دجلة ـ على ما يذكر بن رسته[٢] ـ جسر متخذ من السفن ، طوله ـ على ما يقرر الشيرزي[٣] ـ ستمائة وثمانين ذراعا ، كان يربطها بالجانب الغربي ، وله في جانبه الغربي رصيد من الأجر كشفته بعثة التنقيبات التابعة لمديرية الآثار العراقية ـ طول قاعدته (٤٧) مترا وهو متحرش الجانبين يبلغ سمكه من الوسط أكثر من مقربه ـ أما في جانبه الشرقي فقد عثرت البعثة على مسفاة خاصة به ، وهي تقابل تماما الرصيف الاجري الممتد من الجهة الغربية مقابلة تامة[٤] .

وبالقرب من الجسر كانت هناك مسرعة (ك) أطلق عليها اسم مشرعا القبل وان سبب هذه التسمية ـ على ما يعتقده البلاذري[٥] ـ هو أن عامل الحجاج على السند محمد بن القاسم الثقفي ، اهدى الى الحجاج من السند فيلا ، فاخرج في هذه المشرعة ، ولا بد أن هذه المشرعة كانت تستخدم لا تزال البضائع التجارية الى السفن وتفريغها منها .

اما تاريخ بنائها فقد أعطت المصادر التاريخية والبلدانية نصوص متقاربة في تاريخ بناء هذه المدينة ، فابن قتيبة يذكر[٦] انه عندما هرب ابن الأشعث الى سجستان

---

(١) الاضباري ـ رقم ١٨/٣ ـ التقرير ـ ١٠٥٢ .
(٢) الاعلاق النفسية ـ ص ١٨٧ .
(٣) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ـ ص ١٨٦ .
(٤) مديرية الآثار العامة ـ المصدر السابق ـ رقم التقرير ٤ ـ ١٠٥٢ .
(٥) فتوح البلدان ـ ص ٣٥٧
(٦) الامامة والسياسة ـ ٣٨/٢ .

أمر الحجاج جيشه بالرجوع الى مدينة واسط حيث كان قد بناها وأقام بها في ذلك الوقت .

ويذكر البلاذري[1] : انه عندما وصلت الى الحجاج أخبار خروج ابن الأشعث أتى الى موضع واسط فاتبنى به مسجدا وقال هذا مكان وسط فسميت واسط القصب ثم بناها بعد ذلك .

وأشارت المصادر الى فتنة ابن الأشعث انها بدأت سنة ٨١ هـ[2]،ويذكر الذهبي[3] : ان الحجاج في سنة ٨٢ هـ انشأ مدينة بالعراق وفي واسط جعل فيها دار الامارة .

اما اليعقوبي فيذكر[4] ـ ان الحجاج بنى مدينة واسط في السنة التي هرب فيها ابن الأشعث اي سنة ٨٣ هـ ، ويتفق الطبري[5]مع اليعقوبي في تاريخ بناء هذه المدينة .

ففي ضوء ما تقدم ان المؤرخين والبلدانيين قد تقاربت اشاراتهم في تاريخ بناء مدينة واسط ، وهي تحصر تاريخ البناء بين سنة ٨١ هـ وسنة ٨٣ هـ .

ويبدو من سير الاحداث التاريخية ان الحجاج أخذ يعد العدة لبنائها من تعيين الموضع وشرائه وجلب المواد الانشائية له ، وتهيئة العمال والفنيين لبنائها ، حين قيام فتنة ابن الأشعث في سنة ٨١ هـ التي لم يؤثر قيامها على سير العمل في بناء هذه المدينة ، وعندما بلغه أخبار فتنة ابن الأشعث أمر بالشرع في بنائها ، وانه بعد هروب

---

(١) انساب الاشراف ـ ١١/ ٣٣٧ طبعة اهلورت .
(٢) تاريخ خليفة بن خياط ـ ١/ ٢٧٩ ـ الطبري ـ تاريخ الرسل ـ ٦/ ٣٣٤
(٣) دول الاسلام ـ ١/ ٥٩ .
(٤) تاريخ ـ ٢/ ٢٧٩ .
(٥) تاريخ الرسل والملوك ـ ٦/ ٣٨٣ .

ابن الاشعث ـ كما لاحظنا أمر الحجاج أصحابه بالتوجه نحو مدينة واسط .

واشارة بحشل حول ارسال كتاب من قبل الحجاج الى عبد الملك يذكر فيه[1] : اني اشتريت موضع مدينة واسط ، واتفقت عليه وعلى حرب ابن الاشعث ما صار الي عن الخراج ـ خير دليل على ما تذهب اليه في تثبيت تاريخ بناء هذه المدينة .

ويتضح ـ مما تقدم ـ ان الحجاج بدأ في بناء مدينته في ٨١ هـ واستمر هذا البناء الى نهاية سنة ٨٢ هـ وأصبحت جاهزة للسكنى مع بداية عام ٨٣ هـ .

ومنذ ذلك التاريخ اضطلعت مدينة واسط بادارة العراق وأقاليم الدولة الأموية في المشرق[2] ، وان امراء العراق منذ نشأتها كان بعضهم ـ يقيمون فيها ، ويشرفون منها على ادارة العراق والمشرق الاسلامي ، كما كان ولاة واسط مسئولين عن تعيين عمال البصرة والكوفة ، وكان هؤلاء العمال تابعين لوالي واسط ومسئولين أمامه .[3] .

وعندما بويع أبو العباس السفاح بالخلافة في نفس السنة ، أرسل مددا بقيادة أخيه أبي جعفر المنصور ، وجعله قائدا للجيش الذي كان يحاصر مدينة واسط[4] الا أن الجيش العباسي لم يتمكن من فتحها مما أدى الى استمرار حصار المدينة[5] .

وقد بقي ابن هبيرة مصمما على الاستمرار في المقاومة ، ويبدو أنه لم يفكر في

---

(١) تاريخ واسط ـ ص ٤٤ .
(٢) جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ ١/ ١٤٦
(٣) سيد أمير علي ـ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ـ ص ١٦٣ .
(٤) ابن قتيبة ـ الامامة والسياسة ـ ٢/ ١٢٥ .
(٥) الطبري ـ المصدر السابق ـ ٧/ ٤٥١

الاستسلام الى أن بلغته أخبار مقتل مروان الثاني في أبي صير بمصر . فجرت مفاوضات بين الطرفين ، فأعطى أبو جعفر أمانا لابن هبيرة وكتب به كتابا شاور فيه ابن هبيرة العلماء أربعين يوما . ثم وافق عليه وارسله الى أبي جعفر ، فارسله أبو جعفر الى الخليفة لأخذ موافقته ، وبعد ان وافق الخليفة عليه ، امر أبا جعفر بتنفيذه[1] .

حقيقة ان أبا جعفر أراد ان يفي بعهده لابن هبيرة وجيشه[2] الا أن الخليفة أمر ابا جعفر بقتله وذلك للتخلص منه[3] .

والجدير بالذكر هو أن أبا جعفر ارسل في اليوم الذي قتل فيه ابن هبيرة الى قواده فقتلهم[4] ، ثم أعطى الامان لأهل واسط عدا بعض الاشخاص[5] ، وولى الهيثم بن زياد الخزاعي عاملا على واسط ، ثم ذهب الى الحيرة[6] .

وبمقتل ابن هبيرة فقدت واسط ريادة الادارة على العراق والمشرق لتنتقل الى الكوفة ، ومن بعدها الى بغداد ومنها الى سامراء التي اقتضت السياسة العباسية يومئذ انشائهما تتابعا ـ وهذا ما سنتحدث عنه في الفصل القادم ـ باذن الله تعالى .

---

(١) الطبري ـ المصدر السابق ـ ٧/ ٤٥٤

(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ٤/ ٢١١ .

(٣) مؤلف مجهول ـ العيون والحدائق ـ ٣/ ٢١٠ .

(٤) ابن حبيب أسماء المقتالين ـ ٦/ ١٩١ .

(٥) الدنيوري ـ الاخبار الطوال ـ ص ٣٧٥ .

(٦) ابن وكيع ـ اخبار القضاة ـ ٣/ ٣١٢ .

الفصل الثالث

العامل السياسي

- تمهيد
- بغداد
- سامرا والمتوكلية .

تمهيد :

كانت الادارة ضرورية أولية منذ قيام المجتمع المستقر ، وكان لا بد لها من ان تمارس من نقطة مركزية ، ففي المشرق القديم وبخاصة في العراق كانت العوامل العسكرية والادارية والتجارية متلازمة في نشأة المدن ، وقد أتى على العوامل السياسية لقيام المدن في العراق حين من الدهر عندما اختلطت فيه فكرتها اختلاطا كاملا بفكرة المدينة ، وتم هذا في عصر ويلات المدن التي تبلورت في أوروك واوير في جنوب العراق أيام السومرين وأكاد أيام الاكدين ، وبلغت القمة في بابل بوسطه . وقد تشكلت المدينة سياسيا فيه بشكل الوحدة المكانية الادارية التي قامت من أجلها وتناسيت معها وتطورت بتطورها .

وفي الأسلام أيام الراشدين والامويين ، نشأت وتمت وتوسعت المدن في أثناء حركة الفتوح العربية الاسلامية وبعدها في شمال ووسط وجنوب العراق ، فأصبحت هذه المدن مركزا للفتوح والادارة ، فقد كانت كل الجماعات القبائلية التي صحبت الجيوش العربية الاسلامية ، تحت ، مساحات معينة مركزها منطقة ملمومة واضحة الشخصية ، سهلية مكشوفة قابلة للسكن والزراعة ولو أنها كانت هامشية أو على رابية ، ومثل هذا التشكيل الحضري من وحدات السكنى كان عاملا مساعدا للبدايات السياسية . وفي أيام العباسيين وغيرهم من حكام المسلمين تبلورت فكرة المدنية السياسية ، ومن هنا يمكننا أن نؤرخ لتشييد المدينة سياسيا في الحضارة العربية

الاسلامية ، منذ أن تطورت السيادة في الاسلام من سيادة عامة الى سيادة أسرية ، لأن هذا التطور كان مصحوبا بمحاولات لتنظيم مراكز تجمع السكان تنظيما اداريا وتعيين هيئات مخلصة للاشراف على شئون الافراد ، وتنسيق العلاقات وفض المنازعات التي تحدث بينهم والسهر على استتباب الامن ووضع مصطلحات للرقابة والضبط الاجتماعي الذي يخدم الكيان السياسي الجديد . ومن ثم حرصت الاسر التي تنال النجاح وعن تكوين مدينة تكون مركزا لها ودليلا على انتصارها ، وقد تكررت هذه الظاهرة في الحياة الاسلامية .

ولهذا الاتجاه أمثلة متعددة في نشاط وتطور كثير من المدن السياسية في العالم العربي الاسلامي ، فمثلا نجد أيام العباسيين تعددت العواصم الانتقالية فمن الكوفة الى الحيرة فالانبار فهاشمية الكوفة ومن بعدها بغداد ومرو وسامرا والمتوكلية في العراق ، وفي مصر تعددت العواصم المنشأة أيضا فمن الفسطاط الى العسكر الى القطائع ومن بعدها القاهرة . كما تعددت وتطورت المدن السياسية على أيدي العرب في الاندلس ، فمن قرطبة الى الزهراء والى اشبيلية فغرناطة .

وفي مجال المدن التي نشأت بظروف سياسية تقف بغداد وسامرا في مقدمة المدن العربية الاسلامية التي نشأت كحواضر في العراق خاصة وفي العالم الاسلامي عامة ـ وسنتحدث عنهما بتفصيل كاف فيما يلي .

٢ ـ « بغداد »

أ ـ نشأتها :

كان طبيعيا ان يرفض العباسيون ـ بعد أن أقاموا دولتهم ـ الابقاء على مدينة دمشق حاضرة للخلافة ذلك ان بلاد الشام كانت مقر بني أمية ، وبها عصبيتهم من العنصر العربي الذي يناصرهم ، ويرفض انتقال الخلافة الى غيرهم . لذا نقل العباسيون حاضرة دولتهم الى العراق قريبا من أنصارهم الفرس الذين اقاموا ملكهم على أكتافهم ، وبذل الفرس أموالهم ودماءهم في سبيل اقامة هذه الدولة ، يضاف الى ذلك أن العراق غني بموارده الطبيعية وفي مأمن من غارات البيزنطيين لبعده عن حدودها(١) .

ولم تكن كل من الكوفة والبصرة ـ وهما المدينتان الكبيرتان اللتان كانتا موجودتين منذ الفتح العربي للعراق ـ تصلح لأن تكون احداهما حاضرة للدولة الجديدة ، ذلك أن أهل الكوفة كان معظمهم شيعة يعارضون الحكم العباسي بل ويسعون الى نقل الخلافة للعلويين . أما البصرة فلم تكن تصلح هي كذلك لوقوعها في الجنوب .

حاول السفاح (١٣٢ هـ ـ ١٣٦ هـ) عند بداية الدولة العباسية ان يتخذ الكوفة عاصمة له ، الا أنه تحول عنها لضعف ثقته باخلاص أهلها ، ونشر بعض

---

(١) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٣٢١ .

النصوص الى أنه أحدث بناء في قصر ابن هبيرة واتخذ هذا الموضع عاصمة له وأطلق عليها اسم الهاشمية[1] ،ولكنه لم يرتح له ، فانتقل الى الحيرة ولقربها من الكوفة سارع في الانتقال الى الانبار ، وأنشأ مدينة بالقرب منها على شاطىء الفرات ، سماها الهاشمية نسبة الى جده هاشم بن عبد مناف[2] . وتوفي أبو العباس ، ولم يضع حلا مرضيا لمشكلة العاصمة .

ولما خلفه أبو جعفر المنصور (١٣٦ هـ - ١٥٨ هـ)لم يشأ أن يقيم في مدينة أخيه وسلفه أبي العباس لسوء موقعها ، اذ بنى مدينة بين الكوفة والحيرة سماها الهاشمية أيضا ، لكنه هجرها بعد فترة قصيرة ، لأن المنصور شعر بصعوبة اقامته فيها بعد مؤامرة الراوندية ضده[3] . ثم انها قريبة من الكوفة ومعظم أهلها يناصر العلويين - جعلته لا يشعر بالطمأنينة - لأنهم قد يثورون عليه في ايما وقت ، وحقيقة افسدوا جنده وأنصاره عليه[4] .

وعلى ذلك فقد اهتم المنصور باختيار مركز جديد لدولته ، فخرج بنفسه يرتاد له موضعا يتخذه مسكنا لنفسه وجنده ، ويبني به مدينة ، فانحدر الى جرجرايا ، ثم صار الى قرية بغداد ، ثم وصل الى الموصل ثم عاد الى بغداد وضرب عسكره على العراة ، وتدبر موقعها ، فاختاره ليكون موضعا لعاصمته الجديدة ، وذلك لأسباب متعددة ، منها انها على دجلة حيث العمارة على جانبي النهر في حين كانت العمارة على الفرات تقتصر على ضفته الشرقية ، فيروي المقدس : (ان المنصور استشار بعض سكان منطقة بغداد فقالوا : « نرى ان تنزل اربع طساسيج (مناطق زراعية) ، ففي الجانب الشرقي بوق وكلوذي ، وفي الجانب الغربي قطربل

(١) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ٧ / ٤٥٥ب .
(٢) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ٧/ ٤٥٥ .
(٣) المصدر نفسه - ٧/ ٥٠٥ ، ٥٠٦ .
(٤) ابن الطقطقي - الفخري في الاداب السلطانية - ص ١٤٣ .

وبادوربا ، فتكون بين نخل وقرب ماء ، فان اجدب طسوج [5] ، وتأخرت عمارته كان في الآخر فرج »[1] .

ثم لاحظ وقوعها في وسط العراق : « وأنت تتوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله وكنت قريب من البر والبحر والجبل »[2] .

الكـوفـة كذلك لأهمية وقوعها على الطرق التجارية لأن ذلك يكفل تموينها ويسهل عملية الاتصال بينها وبين أنحاء المملكة ، ويشجع التجارة . وعلى حد اقرر أهل قرية بغداد وهم يخاطبون المنصور : « تجيك الميرة في السفن الفراتية والقوافل من مصر والشام في البادية ، تجيك الآلات من الصين في البحر ومن الروم والموصل في دجلة »[3] .

« وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية » . وما حول ذلك ، وهذه الفرات يجيء فيها كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك »[4] .

كما انه لاحظ خصب البقعة التي تقع فيها بغداد ، الامر الذي ييسر لسكانها رغد العيش ، يضاف الى ذلك سهولة الدفاع عن موضع بغداد ، فان هاجمها أحد كانت دجلة والفرات وروافدهما خنادق لهما ، فاذا ضربت القناطر ، احتاج العدو الى العبور ، لذلك فان الهجوم عليها أمر صعب[5] .

ويقول اليعقوبي « ان المنصور وصف بغداد بأنها : « مشرعة للـدنيا كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة والابلة والاحواز وفارس واليمامة والبحـرين ومـا

(١) المقدسي ـ أحسن التقاسيم ـ ص ١١٩ ـ ١٢٠ .
(٢) المقدسي ـ أحسن التقاسيم ـ ص ١٢٠ .
(٣) المصدر نفسه ـ ص ١٢٠ .
(٤) الطبري ـ تاريخ الرسل ـ ٧/ ٦١٤ .
(٥) ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص ٣٤٣ .

يتصل بذلك فإبلها ترقي وبهـا ترسي ، وكذلك ما يأتـي من الموصـل وديار ربيعـة واذربيجان وارمينة مما يحمل في السفن بدجلة ، وما يأتي من ديار مصر والرقة والشام والثغر ومصر والمغرب مما يحمل في السفن بالفرات فيها يحط وينزل ، ومدرجة أهل الجبل وكور خراسان»[٥] .

كما أنه اهتم بحصانة موقعها ، فقد قيل له وأنت بين انهـار لا يصـل اليك عدوك الا على جسر او قنطرة ، فاذا قطعت الجسر واضربت القناطر لم يصل اليك عدوك[١].

أصاب المنصور في اختياره بغداد حاضرة لدولته ، وقد ذكر ابن خلدون في مقدمة عن الشروط الواجب توافرها في الحاضرة فقال : أما ان تقع على هضبة متوعرة من الجبل وأما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل اليها الا بعد العبور ، وطيب اهواء للسلامة من الامراض ؛ وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الاقوات[٢] .

وكانت الارض التي تقع فيها بغداد منذ القـدم من أهـم مراكز الحضـارة ، وازدهرت فيها بصفة خاصة الثقافة الشرقية القديمة ، وكانت من أهم المراكز التجارية حيث تلتقي فيها عدة طرق تصلها بمختلف البلاد ، وشهدت هذه الارض حواضر عظيمة مثل بابل وسلوقية والمدائن ، وورثت بغداد هذه الحواضر ، بل واستخدم في بنائها انقاض مدينة المدائن التي يبعد عنها ويتسرب من ثلاثين كيلومترا .

كانت بغداد قبل بنائها قرية قديمة تقع على الشاطيء الغربي لنهر دجلة في أعلى المكان الذي يقترب فيه نهر الفرات من نهر دجلة ، وكان يعقد فيها سوق شهري او

---

(١) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

(٢) الطبري ـ المصدر السابق ـ ٧/ ٦١٧ .

(٣) ابن خلدون ـ المصدر السابق ـ ص ٢٤٤ .

سنوي يأتيه التجار من بلاد الفرس والصين. وتعرضت للتحرير العربي سنة ١٣ هـ . حينما هاجمها القائد العربي المتنبي بن حارثة الشيباني . واستولى عليها وغنم من غزوة لها مغانم كثيرة[١] ، وقد أثبت البحث الحديث وجود مدينة قديمة في موضع بغداد ، أمنيته المكتشف الاثاري الانكليزي السير هنري رولنسون سنة ١٨٤٨ م ، وظهر اسم نبوخذ نصر الثاني (٦٠٤ ق. م - ٥٦١ ق. م) على أحجار هذه المدينة ، وقامت في هذا المكان أيضا مدينة اسمها في الكتابات المسمارية يغددو او يكددو[٢] ، ولم تَكن المدينة هذه ذات شأن في ذلك الزمان[٣] .

وكان في موضع بغداد الذي اختاره المنصور عدة قرى منها بغداد والمخرم وبستان القس والعتيقة ، وحرض المنصور على ان يطمئن على احوال هذه القرى الصحية والمعيشية ، فاستدعى رؤساءها وسألهم عن أحوال قراهم ، فطمأنوه على حسن اختياره ، ولم يكتف بذلك بل عهد الى بعض رجاله ان يبيتوا في هذه القرى ويدرسوا احوالها ، فلما انتهوا من مهمتهم ، قدموا على المنصور واجمعوا على افضلية هذه عما سواها فازداد المنصور تفاؤلا بنجاح المشروع الذي أقدم عليه[٤] .

٢ - تسميتها :

لمؤلفي العرب آراء عديدة وتخريجات متنوعة في معنى كلمة بغداد واشتقاقها شأنهم في ذلك تجاه كل لفظة غريبة عن لغتهم ، وقد جمع ياقوت[٥] أكثر هذه الآراء

---

(١) لسترنج - بغداد في عهد الخلافة العباسيه - ص ٩ .

(٢) H - Rawlirron , Baghdad , Ency . of Britanica - Vol - II - P . 234 .

(٣) A - Baven . Fand og the two rivers P . 42 .

(٤) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ٥/ ١٤ .

(٥) للتفاصيل حول اسم بغداد واشتقاقه - يراجع :

أ - معجم البلدان - ٢/ ٤٦٥ وما بعدها .

ب - الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد - ١/ ١١ .

حـ - ابن الجوزي - مناقب بغداد - ص ٦ .

وأشهرها ، حيث تدعي نسبة الاسم للغة الفارسية الا انني اجد ذكرا قديما لبغداد في الآثار المسمارية ، فاستبعد ان يكون اسم بغداد فارسيا . ومما يؤكد رأي هذا وجود آثار مدينة قديمة تحمل اسم يكددوا وبغددوا - كما مر بنا - وهو لفظة آرامية ، ولعل هذا الاسم الآرامي يشير الى اسم بغداد ، بدليل وجود عدة اماكن تحمل أسماء آرامية في جوار موضع بغداد ، كيعقوبة وبتدين وباكيفا ، ولعل من الارجح ان لفظة بغداد أصلها بيت كداد الارامية ومعناها بيت القطيع او الحظيرة ، فاكتفى بالباء المقتضبة ، من بيت ، وهذه ظاهرة لغوية معروفة الانتشار في القرى الآرامية الاسماء ، كما ترى في لفظة بتدين وتعني بيت الدين ، وبكيفا - بيت الصخره ، بعقوبة بيت العقوبة اي السجن ، وبصرياثا - بيت الاكواخ . . الخ .

ويؤيد هذا أيضا ما اشار اليه الطبري[1] ، بقوله : وكان في قرن الصراة مما يلي الخلد من الجانب الشرقي - قرية ودير كبير كانت تسمى سوق البقر . ويؤكد المسعودي[2] هذه الاشارة مع الطبري ، الا انه يذكر الغنم بدل البقر .

أما دار السلام أو مدينة السلام فقد سماها المنصور . ولمؤرخي العرب اختلاف في اشتقاق هذا الاسم ، فبعضهم ينسبون المدينة الى نهر دجلة المدعو نهر السلام . على أنني أرى أن المنصور دعاها دار السلام تفاؤلا بما ورد في القرآن الكريم عن الجنة ، اذ يدعوها دار السلام في قوله تعالى « لهم دار السلام عند ربهم ، وهو وليهم بما كانوا يعملون »[3] ، « والله يدعو الى دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون[4] . كما انني الاحظ كثيرا ما كان يتردد ذكر دار السلام في المكاتبات الرسمية وعلى العملة[5] .

(١) تاريخ الرسل والملوك - ٧/ ٦١٨ .
(٢) التنبيه والاشراق - ص ٢٦٥ .
(٣) سورة يونس - الاية - ٢٥ .
(٤) سورة الانعام - الاية ١٢٧ .
(٥) ابن مسكويه - ٤/ ١٢٧ مخطوط .

أما العامة فانها ظلت تدعو المدينة بغداد وبغداد والمؤرخون والشعراء كذلك ، وما نقل عن موسى بن عبد الحميد النسائي قال : « كنت جالسا عند عبد العزيز بن أبي رواد فأتاه رجل فقال له : من أين أنت ؟ فقال له من بغداد . فقال : « لا تقل بغداد ، ولكن قل مدينة السلام . فان الله هو السلام ، والمدن كلها له » (٣) .

ويبدو أن اسم « مدينة السلام » أطلق على مدينة المنصور الدورة المحدودة المسورة التي كانت تشبه حصنا حصينا ، كما ذكرته سلفا ، فتسمية بغداد بمدينة السلام كان من باب اطلاق اسم الجزء على الكل ، والرجوع الى اسم « بغداد » هو رجوع الى الاصل والى الاسم الاقدم وهو اخف في الاستعمال من مدينة السلام .

ويبدو ان ازوار نهر دجلة وانعطافه فجأة نحو الغرب عند موضع بغداد المودة هو الذي ارجحه لهذه التسمية .

٣ ـ تأسيسها :

جند المنصور كافة الخبرات الموجوده في مملكته لانجاز مشروعه الكبير ، فاستدعى اليه من كل بلد من بلدان دولته المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الارضين والبنائين والفعلة والصناع من المداءين والحفارين والتجارين حتى اجتمع على ما قبل ـ نحو مائة الف من ارباب المهن والصناعات(١) ـ واسند مهمة الاشراف على عملية البناء الى رجال ممن يثق بهم من ذوي الفضل والعدالة والفقه والامانة والمعرفة بالهندسة فكان ممن احضر لذلك الحجاج بن ارطاة وابو حنيفة النعمان بن ثابت(٢) .

افتتح المنصور مشروع تأسيس مدينته في يوم تاريخي مشهود من عام ١٤٥ هـ

---

(١) يقوت ـ معجم البلدان ـ ١/ ٦٧٨ .
(٢) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٢٣٨ .
(٣) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٧/ ٦١٨ .

حضره رجال الدولة ، ووضع اول لبنه بيده وقال : « بسم الله والحمد لله ، والارض لله يورثها من يشاء من عباده والعافية للمتقين ، ثم أمر عماله أن يبدأوا في البناء على بركة الله » [1] .

الا أن بناء بغداد لم يقدر له ان يتم سريعا ، فلما بلغ سور بغداد مقدار مقامه، امر المنصور بوقف البناء ، بعد ان نمى الى علمه انتقاض محمد ذي النفس الزكية بالمدينة المنورة عليه ، واقام بالكوفة حتى فرغ من قمع ثورة العلوين بقيادة الاخوين محمد وابراهيم عام ١٤٥ هـ ، وعاد الى بغداد ليستأنف عملية البناء ، وكان مولاه اسلم قد أحرق ما أعد لبناء المدينة من الخشب والساج خوفا من ان ينتصر العلويين ويزحفوا الى بغداد فيستولوا على ادوات بنائها[2] .

ومهما يكن من أمر فقد استأنف المنصور بناء مدينته بغداد وجعلها المدورة ويذكر اليعقوبي[3] : انه لا يعرف في جميع اقطار الدنيا مدينة مدوره غيرها . ويشير لسترنج[4] . الى انها بنيت مدورة لئلا يكون الملك اذا نزل وسطها الى موضع منها اقرب منه الى موضع .

وقد استغرق بناء المدينة مدورة ما بين ١٤٥ هـ - ١٤٩ هـ حيث اصبحت جاهزة للسكن ، بعد ان انفق المنصور عليها اربعة ملايين وثمانمئة وثلاث وثلاثين ألف درهم[5] ، هذا مع رخص الاسعار ، اذ كان « الاستاذ من الصناع يعمل يومه بقيراط الى خمس حبات ، والعامل البسيط بحبتين الى ثلاث حبات ، وسعر التمر

---

(١) لسترنج - بغداد في عهد الخلافة العباسية - ص ١٧ .
(٢) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ٧/ ٦٥٠ .
(٣) البلدان - ص ٢٣٨ .
(٤) لسترنج - المصدر السابق - ص ١٨ .
(٥) ابن الاثير - الكامل - ٥/ ٢١ .

ستين رطلا بدرهم ، والسمن ثمانية ارطال بدرهم ولحم البقر تسعين رطلا بدرهم ولحم الغنم ستين رطلا بدرهم[1] .

والحق بمدينة بغداد مجمعات عمرانية ذات نشاط تجاري ، بالقرب منها ، قد وضع أساسه المنصور بين الصراة ونهر عيني ، ونقل اليه أسواق بغداد ، وأفرد ـ على حد تعبير استاذنا الدكتور شلبي[2] ـ لكل حرفه أو مهنة سوقا خاصة ـ ومن هذه الاسواق سوق العطارين وسوق الحدادين وسوق التجارين وسوق اليزازين ، . . الخ ، وهذه ميزة تميزت بها اسواق بغداد دون غيرها من أسواق العالم يومذاك .

وتربط المصادر التاريخية الاولية[3] بين نصيحة اسداها رسول ملك الروم وبين نقل المنصور الاسواق من طاقات بغداد الى ضاحية قريبة من بغداد تدعى الكرخ ، او اشارة من احدهم لابي جعفر « ان الغرباء وغيرهم يبيتون فيها ولا يؤمن ان يكون فيها جواسيس » [4] . الا انني ارى ان المدينة قد ضاقت مساحتها بنمو هذه الاسواق المستمر مما اضطر المنصور الى نقل اسواق بغداد الى مكان آخر خارج المدينة .

لم يكتف المنصور بتأسيس مدينة على الضفة الغربية لدجلة ، بل عول سنة ١٥١ هـ على توسيعها ، وذلك باقامة مدينة جديدة على الجانب الشرقي لدجلة ، سماها الرصافة ، وعمل لها سورا وخندقا ومسجدا جامعا وقصرا ، واجرى لها الماء ، ويرجع السبب فيما شرع فيه المنصور ، انه خشي من اجتماع جنده في مكان واحد ،

---

(١) الخطيب البغدادي ـ ١/ ٧٠ .

(٢) موسوعة التاريخ الاسلامي واعضاءه الاسلامية ـ ٣/ ٢٢٩ .

(٣) الطبري ـ تاريخ ـ ٧/ ٦٥٣ ، الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ـ ١/ ٨٠ ياقوت ـ معجم البلدان ـ ٤/ ٣٥٤ ,

(٤) الطبري ـ المصدر السابق ـ ٧/ ٦٥٣ .

فرأى في تفريقهم على جانبي دجلة ، صالحا للدولة ، ونباتا لها ، فاذا ثار عليه جند الضفة الغربية ، ضربهم بجند الضفة الشرقية[١] ، وامر ابنه المهدي بالاقامة في الرصافة مع عسكره ، واقطع المنصور اخوته وقواده نواحي في البلدة الجديدة ، وتنافس الناس في النزول بالرصافة لمحبتهم المهدي ولاتساعه عليهم بالاموال والعطايا ، ولان الرصافة كانت اوسع الجانبين أرضا . ذلك ان الناس قد سبقوا الى الجانب الغربي . ولم تلبث ان عمرت الرصافة بالاسواق ومنازل التجار والجند وسائر الناس[٢] .

اتسع الجانب الشرقي من بغداد في عهد المهدي (١٥٨ ـ ١٦٨ هـ) الذي خاف اباه في الحكم ، واستقرت فيه الاسر الغنية واتباعها من الموالي والعبيد ، واقطع المهدي رجاله مواضع بها ، ونشأت في الرصافة عدة محلات اهمها محلة الشماسية ومحلة المخرم ، ومحلة ابي حنيفة ـ وبها مقبرة الامام ابي حنيفة ـ ومحلة باب الطاق ، والطاق قسما من اقسام قصر لاحدى بنات المنصور ، ثم صار في زمن الرشيد مجمعا للشعراء ، والى جوار هذا الطاق سوق الصاغة ودار صاحب الشرطة . كذلك نشأت محلة دار الروم نسبة الى أسرى الروم الذين انزلوا فيها عهد الخليفة المهدي ، فشيدوا هناك بيعة ودورا لهم[٣] .

ولكن اتساع بغداد الحقيقي كان في عهد الرشيد (١٧٠ ـ هـ ١٩٣ هـ) اذ شيدت في الرصافة قصور فخمة اهمها قصر جعفر بن يحيى البرمكي ، وتوسع الناس في البناء بالقسم الشرقي من بغداد ، فبنوا فيه القصور المنيعة والمنازل المزخرفة ، واتخذوا فيه الاسواق والمساجد والحمامات ، وكان نصيب محلة الشماسية في عهد

(١) ياقوت ـ المصدر السابق ـ ٤/ ٢٥٤ .
(٢) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٢٥١ .
(٣) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ٤/ ٢٥٥ .

الرشيد من هذه الحركة العمرانية كبيرا ، لان البرامكة اتخذوا قصورهم بها ـ فشيد يحيى بن خالد قصره المعروف بقصر التين بها ، كذلك اتخذ ولده الفضل قصرا هناك ، وامتدت قطائع البرامكة من الشماسية حتى البردان[1] .

وخلاصة القول ان بغداد صارت من أهم المدن الاسلامية ، بل والعالمية في العصر العباسي الأول ، واحتلت بسرعة بسرعة مكان الصدارة في العالم والثقافة والنشاط التجاري والاجتماعي في العالم[2] ، وكثرت ثورتها وازدهرت في عهد الرشيد ، وتجلى ذلك في بلوغ العمران عنايته ، وازدحام الناس بانحائها ، حتى قيل ان تعدادهم زاد على مليون نسمة[3] .

على ان بغداد لم تنعم بازدهارها طويلا ، بل تعرضت بعد عامين من وفاة الرشيد الى التخريب والتدمير ، ذلك الخلاف الذي نسب بين الامين والمأمون ولدي الرشيد وما لبث ان تطور هذا الخلاف الى حرب بين الاخوين ، وحاصرت قوات المامون بغداد اربعة اشهر بقيادة هرثمة بن اعين وطاهر ابن الحسين ـ قائدي المامون ـ وعزل هرثمه الجانب الشرقي عن الجانب الغربي وهدم سوره في حين حاصر طاهر بن الحسين الجانب الغربي[4] .

واشتبكت قوات طاهر بن الحسين مع قوات الامين (١٩٣ هـ ـ ١٩٨هـ) في معارك متعددة كان من نتيجتها تدمير حي الحربيه بعد ان رمى بالنفط والنيران والمنجنيقات ، وأرسل طاهر الى اهل الارباص يطلب منهم التسليم ، فمن اجابه كفا عنه ومن ولمن لم يجبه قاتله وأحرق منزله ، وهدم طاهر بعض قناطر بغداد[5] ،

---

(١) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٢ ٢٥٣ .
(٢) رصاد كوك ـ بغداد مدينة السلام ـ ص ٣٣ .
(٣) جميل المدور ـ حضارة الاسلام في دار السلام ـ ص ٩٣ .
(٤) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٨/ ٤٤٦ .
(٥) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ٢/ ١٦٦ .

وشن هجماته على الكرخ وحاصر بغداد ، وتحصن محمد الامين بالمدينة هو وانصاره وشدد طاهر الحصار ، وفي سنة ١٩٨ هـ وقع الامين في الاسر بعد ان حوصر في قصر الخلد ، ولم يلبث ان قتل ، فوقفت الحرب بعد ان تحولت بغداد الى خرائب ورماد حتى اتت النيران على أحياء بأكملها ودمرت هذه الحرب قصرى الخلافة ، باب الذهب في وسط المدينة ، والخلد على دجلة(١) .

وكان مقتل الأمين أثر سيء في نفوس أهل بغداد فاشتدت معارضتهم للمأمون وثاروا على وزيره الحسن بن سهل حتى غادر بغداد سنة ٢٠١ هـ ، وزاد اهل بغداد ، معارضة للمأمون حين بايع لعلي الرضا بولاية العهد ، وأمر الناس بلبس الخضرة ـ شعار العلويين ـ بدلا من السواد ـ شعار العباسيين ـ لذلك بايعوا ابراهيم بن المهدي ولقبوه المبارك ، وظل يحكم بغداد مدى عامين غير ان خيانة قواده ، وتمردهم عليه اجبرته على تسليم المدينة وزمام الحكم الى المأمون(٢) ، ونزل المأمون بالجانب الشرقي حيث نقل اليه مقر حكمه الى قصر جعفر بن يحيى البرمكي في محلة الشماسية ، وقام بتوسيعه ، وبني حوله وقريبا منه منازل لخاصته واصحابه وحاشيته سميت بالمأمونية(٣) .

وقدر لبغداد ان تنزل عن مركزها الممتاز بعد وفاة المأمون في عام ٢١٨ هـ الى حاضرة الدولة الجديدة سامراء ، ذلك ان المعتصم الذي خلف اخاه المامون في حكم الجماعة الاسلامية جمع جيشا من الترك ، وكان هؤلاء يؤذون الناس بمدينة السلام ، وضاقت بهم بغداد ، فتذمر أهل بغداد ، وتقدموا بالشكوى الى المعتصم (٤) ، فرأى الخليفة ضرورة الانتقال من بغداد مع عسكره ، ووقع اختياره على سامرا ـ كما

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ٢/ ١٦٦ .

(٢) الطبري ـ المصدر السابق ـ ٨/ ٥٦٦ .

(٣) ابن الطقطقي ـ الفخري في الاداب السلطانية ـ ص ١١١ .

(٤) ابن الطقطقي ـ الفخري في الاداب السلطانية ـ ص ١١١ .

ستري ـ وبذلك فقدت بغداد اهميتها كحاضرة اسلامية كبرى .

حقيقة ظلت بغداد محتفظة بقدر كبير من النشاط الادبي والازدهار الاقتصادي لكن انتقال حاضرة الخلافة عنها ، افقدها السيادة على الدولة الاسلامية الكبرى .

٢ ـ سامراء

أ ـ توطئة :

ترتبط نشأة سامرا بالخليفة المعتصم ومن هنا ينبغي ان تورد المامة بسيطة فيما يتصل عن مجيء المعتصم للحكم .

بويع المعتصم (٢١٨ هـ ـ ٢٢٧ هـ) للخلافة في اليوم الذي توفي فيه أخوه المأمون على عين اليد ندون بالقرب من طرسوس ببلاد الشام ، في يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب عام ٢١٨ هـ[١] .

والمعتصم هو محمد بن الخليفة هرون الرشيد بن الخليفة المهدي بن الخليفة أبي جعفر المنصور مؤسس بغداد ، وكنيته أبو اسحق وأمه تدعى ماردة بنت شبيب[٢] .

وأمر المعتصم وهو بطرسوس بهدم ما بنى من مدينة طوانة ، التي كان المأمون قد أمر ببنائها في أثناء اقامته هناك مع جيشه في محاربة الروم البيزنطيين ، وحمل ما فيها من المادة والآلة وأحرق الباقي ، وصرف أهلها وساكنيها الى بلادهم . ثم توجه الى بغداد ومعه ابن أخيه العباس فوصلها في أول شهر رمضان عام ٢١٨ هـ[٣] .

وأقام المعتصم أول الأمر في دار المأمون في الجانب الغربي من بغداد ثم انتقل

---

(١) اليعقوبي ـ تاريخ ـ ٢/ ١٦٣ .
(٢) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٨/ ٦٦٧ .
(٣) ابن الأثير ـ الكامل ـ ٥/ ٢٣١ .

هو وأهل بيته الى دار شيدت له في الجهة الشرقية من بغداد[1] ان هناك أسبابا سياسية عديدة توضح رغبة المعتصم في عدم البقاء ببغداد ، وتوضح المصادر العربية ان العامل الرئيسي لانتقال المعتصم من بغداد الى سامرا هو معاملة الجند الاتراك السيئة لسكان بغداد ، وهؤلاء الجند كانوا في الواقع اضافة جديدة للجيش ظهرت خلال فترة حكم المعتصم في استخدام الاتراك .

وبغداد وما تعانيه من تمزق سياسي منذ خلافة هرون الرشيد بسبب المؤامرات والتكيات والحروب ، لا تستطيع ـ وهي مثقلة بهذ المعاناة ـ القيام باخماد أو على الاقل صد تلك الاخطار التي تهدد كيان الدولة داخليا وخارجيا . فرأى المعتصم من حسن سياسته ترك بغداد ، والتحول بعسكره الجديد الى معقل آخر لعله يتمكن من هذا المعقل اخماد ما يهدد الدولة داخليا وصد هجمات الروم المتكررة على حدود الدولة خارجيا ، اضافة الى ان اولئك الجنود الأتراك كانوا أصلا مسئولين ، وفق ما يقوله جميع المؤرخين ، عن اثارة المشاكل وخلق المتاعب في بغداد ، مما حدا بالمعتصم الانتقال منها الى سامراء . وسوف نبحث في هذه الأسباب بالصفحات التالية من هذا الفصل .

ب ـ نشأتها :

رأى المعتصم بعد أن آلت اليه الخلافة بعد وفاة أخيه المأمون ان جنود بغداد من الابناء لا يوثق بهم لكثرة الاضطرابات التي كانوا يثيرونها فعول على تأليف جيش من الاتراك لما اتصفوا به من شدة البأس[2] .

كذلك بعد أن المعتصم يشعر بضعف ثقته بالفرس حين رأى كثيرا من الجند

(١) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٢٥٥ .
(٢) ابن مسكويه ـ تجارب الأمم ـ ٥/ ٢١٠ .

يتعصب للعباس ابن أخيه المأمون ، ونادوه باسم الخلافة ، فساءت علاقته بالعباس منذ ذلك الوقت ، وما لبثت أن قبض عليه حين علم أنه يدبر مؤامرة لاغتياله ، سجنه ومنع عنه الماء حتى مات(١) .

ولم تمر تلك الحادثة على المعتصم دون أن يفكر في تلافي وقوع أمثالها فرأى ان يستعين بقوم غير الفرس وغير العرب ، وهداه تفكيره الى الأتراك(٢) .

وفضلا عما تقدم فان أم المعتصم تركية تسمى ماردة(٣) ، وكان في طباعه كثير من طباع هؤلاء الأتراك من القوة والشجاعة والاعتداد بقوة الجسم ، فدعته العصبية التركية الى التفكير في الاستعانة بالعنصر التركي(٤) .

كان المعتصم قد خص الاتراك بالنفوذ ، فقلدهم قيادة الجيش وجعل لهم مركزا في مجال السياسة والحرب ، وحرم العرب مما كان لهم من قيادة الجيوش ، كما أسقط أسماءهم من الدواوين ، وأعلى من شأن هؤلاء الترك المجلوبين ، وأدر عليهم الهبات والارزاق وأثرهم على العرب والفرس في كل شيء ، فشعروا بقوتهم لكنهم اساءوا استعمال هذه القوة فساروا في شوارع بغداد راضين خيولهم دون أن يعبأوا بالمارة فيصدموا شيخا ضعيفا او أمرأة عجوز ، فأذى من ذلك اهالي بغداد(٥) .

واضطر أهالي بغداد الى رفع شكاياتهم الى الخليفة بعد أن تفاقمت الحوادث التي ارتكبها هؤلاء الأتراك ، يقول ياقوت(٦) : « اجتمع أهل الخير على باب المعتصم وقالوا له : أما أن تخرج من بغداد ، فان الناس قد تأذوا بعسكرك أو نحاربك ،

---

(١) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٩/ ١٢ .
(٢) د . محمد جمال سرور ـ تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ـ ص ٢٢ .
(٣) الدكتور احمد شلبي ـ موسوعة التاريخ والحضارة ـ ٣/ ١٩٢ .
(٤) ابن مسكويه ـ تجارب الامم ـ ٥/ ٢١٢ .
(٥) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ٤/ ٩ .
(٦) معجم البلدان ـ ٥/ ١٤ .

فقال : كيف تحاربوني ؟ قال : نحاربك بسهام السحر ، قال : وما سهام السحر ، قالوا : ندعو عليك ، فقال المعتصم : لا طاقة لي بذلك » .

ويقول صاحب العيون والحدائق[1] : ان المساكن والطرق ، ضاقت على الناس ببغداد لكثرة العساكر التي تجمعت مع المعتصم » .

ويذكر ابن الطقطقي[2] : « قيل ان المعتصم استكثر من المماليك فضاقت بهم بغداد » .

ومما زاد في حراجة الوضع ، سوء تصرف الاتراك ، اذ أنهم كانوا « عجما جفاة يركبون الدواب فيتراكظون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة ويطأون الصبي »[3] .

فلم يرضخ البغداديون لمنكرات الأتراك بل كان « ينسب عليهم وعلى الأتراك الغوغاء فيقتلون بعضا ويضربون بعضا وتذهب دماؤهم هدرا لا يعدون على من فعل ذلك »[4] .

وثقل وجود الأتراك على أهل بغداد فتذمروا منهم بشدة ، كما عز على المعتصم صد رجاله فقرر الانتقال[5] .

ويبدو على ما تقدم ان المعتصم كان يخشى الفتنة وثورة أهل بغداد وبعض العساكر بها لسخطهم على تقريب الاتراك . فيرى الطبري : « ان المعتصم قال

---

(١) مؤلف مجهول - ٣/ ٥٠ .
(٢) الفخري في الاداب السلطانية - ٢١٠ .
(٣) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ٩/ ١٤ .
(٤) اليعقوبي - البلدان - ص ٢٥٦ .
(٥) ابن الطقطقى - الفخري - ص ٢١٠ .

لأحمد بن أبي خالد اني اتخوف ان يصيح لي هؤلاء الحربية ، فيقتلون غلماني حتى أكون فوقهم فان رابني منهم ريب اتيتهم في البر والبحر حتى اتى عليهم »[١] .

ويبين ابن الطقطقي : « ان المعتصم خاف من الجند في بغداد ولم يثق بهم فقال : اطلبوا لي موضعا اخرج اليه وابني فيه مدينة واعسكر فيه فان رابني من عساكر بغداد حادث كنت بنجوة وكنت قادرا على ان اتيهم في البر والماء »[٢].

وهكذا كان عدم اطمئنان المعصتم للجند القدماء ببغداد وتشككه بنوايا أهل تلك المدينة ، عاملا مهما بالانتقال من بغداد وانشاء سامراء .

وراح المعتصم يفتش عن موضع لبناء عاصمته الجديدة ، وأراد أول الأمر البناء بالشماسية ، فتركها لضيق المحل « ومره قربها من بغداد »[٣] . فمضى الى البردان ـ وهي قرية من قرى بغداد ـ بمشورة الفضل بن مروان وهو يومئذ وزير ، وأقام بها أياما ، وأحضر المهندسين ، ثم لم يعرض الموضع ، لأنه لم يرتح الى هوائها[٥] ، فصار الى موضع يقال له باحمشا ، على الجانب الشرقي من دجلة فقدر هناك مدينة على دجلة ، وطلب موضعا يحضر فيه نهرا فلم يجد[٥] ، فنفذ الى القرية المعروفة بالمطبرة ، فأقام بها مدة ، ثم مر بالقاطول فقال : هذا أصلح المواضع فصير النهر المعروف بالقاطول وسط المدينة ، ويكون البناء على دجلة وعلى القاطول[٦] .

وفي منطقة القاطول بدأ المعتصم البناء ، فارتفعت المباني والعمائر الى ارتفاع

---

(١) الطبري ـ تاريخ الرسل ـ ٩/ ١٥ .
(٢) ابن الطقطقي ـ المصدر السابق ـ ص ٢١٠ .
(٣) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٢٥٦ .
(٤) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ص ١/ ٥٥٢ .
(٥) اليعقوبي ـ المصدر السابق ـ ص ٢٥٦ .
(٦) اليعقوبي ـ المصدر السابق ـ ص ٢٥٦ .

معين ، فلاحظ الخليفة عبث البناء لصعوبة الأرض ولضيق الساحة فترك القاطول[1] ، وخرج المعتصم يتقرى المواضع حتى وصل محل سامراء الذي يبعد ستين ميلا شمال بغداد ، فوجد فيه ديرا للمسيحيين ، وأقام فيه ثلاثة أيام ليتأكد من ملائمة المحل ، فاستحسنه واستطاب هوائه ، وأمر بشراء أرض الدير ، فاشتراه بأربعة آلاف دينار[2] ، وأخذ في سنة ٢٢١ هـ في تخطيط مدينته الجديدة التي سميت سامرا[3] .

قال ابن خلكان[4] : « وسر من رأى فيها ست لغات » وذكر الجوهري[5] في الصحاح يفصل رأى : « سر من رأى بضم السين المهملة وفتحها) .

والاسم الآرامي هو الذي ، ارجحه لهذه المدينة ، ويبدو ان المعتصم حينما أقام بها أمر أن تسمى (سر من رأى) وبهذه الصيغة وجد اسمها في النقود العباسية المضروبة فيها :

واحضر المعتصم لها الصناع ، وأهل المهن من سائر الامصار وشيد بها قصرا له ومسجدا جامعا وثكنات لجنده ، وأفرد لأهل كل صنف سوقا كما اقطع القطائع لرؤساء الأتراك والاشروسية وغيرهم من مدن خراسان[6] .

وعندما اتم المعتصم بناء مدينته انتقل مع قواده وجنده في ٢٢١ هـ ، ولم يمض غير قليل على تأسيس سامرا حتى قصدها الناس وشيدوا بها مباني شاهقة[7] .

(١) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٢٥٧ .
(٢) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ٤/ ٧ .
(٣) المصدر نفسه ـ ٤/ ٩ .
(٤) وفيات الأعيان ـ ٤/ ١٦٨ .
(٥) ص ١٦٩ .
(٦) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ٤/ ١٠ .
(٧) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٢٥٩ .

جـ ـ سامرا بعد المعتصم :

بويع الواثق للخلافة في نفس اليوم الذي توفي فيه والده المعتصم[١] ، واسمه هرون الواثق ، وكان يكنى بأبي جعفر[٢] .

ولم يلبث الواثق في الجوسق الخاقاني ، وانما الواضح من بعض الروايات التارخية أنه بنى قصرا سماه الهاروني على نهر دجلة حيث جعل له دكة غربية ودكة شرقية[٣] .

ويبدو ان الفترة التي حكم فيها الواثق (٢٢٧ هـ ـ ٢٣٢ هـ) كانت من الناحية السياسية فترة هادئة اذا ما قيست بعهد المعتصم ، ولم يضف فيها شيئا كثيرا الى ما هو موجود في عمائر سامرا[٤] ، لذا فانها تعتبر من الناحيتين السياسية والمعمارية افقر فترة من الحكم العباسي في سامرا .

وفي سنة ٢٣٢ هـ توفي الواثق ، وبويع بعده المتوكل للخلافة في نفس السنة واسمه جعفر بن محمد بن هرون[٥] .

اختار المتوكل العيش في القصر الهاروني ، وفضله على جميع قصور المعتصم[٦] . واسكن ابنه المنتصر في قصر المعتصم الذي كان يعرف باسم الجوسق الخاقاني ، وابنه ابراهيم المؤيد في المطبرة ، وابنه المعتز في بلكوار الذي كان يقع في الجهة الشرقية من المطبرة[٧] .

---

(١) اليعقوبي ـ التاريخ ـ ٢/ ١٦٨ .
(٢) الطبري ـ تاريخ الرسل ـ ٩/ ١٢٣ .
(٣) اليعقوبي ـ ٢/ ١٧١ وما بعدها .
(٤) عدا القصر الهاروني .
(٥) ابن العماد ـ شذرات الذهب ـ ٢/ ٧٥ ـ ٧٦ .
(٦) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٢٦٥ .
(٧) المصدر نفسه ص ٥٦٢

وفي عام ٢٣٥ هـ عين المتوكل أولاده الثلاثة ولاة للعهد[١] ، ويبدو من روايات الطبري[٢] : ان المتوكل اعطى كل واحد منهم اسما جديدا يدعى به بعد وفاته . فلقب محمد بالمنتصر ، وأبو عبد الله بن قبيحة بالمعتز ثم لقب ابراهيم بالمؤيد .

وكان واضحا من روايات الطبري ان المتوكل قد قسم ممتلكات الدولة العباسية بين أولاده الثلاثة ، فأعطى المنتصر مقاطعة افريقية وغرب المعرب وللمعتر المقاطعات الشرقية من الدولة . في حين أعطيت مصر وسوريا للمؤيد[٣] .

كان للمتوكل رغبة فوية للبناء ، وكان يعد من أكثر الخلفاء اهتماما بالعمران في فترة الخلافة العباسية في سامرا ، وتميز عصره بعدد كبير من الجوامع والقصور فبنى الجامع الكبير وشيد له مئذنة عالية أشبه باللولب (ملوية) وحتى ينظر من بعد ، وترك الناس المسجد الذي بناه المعتصم لضيقة ، وأجرى المتوكل الماء من دجلة بقناتين تدخلان الجامع وتتخلان شوارع سامرا[٤] .

ومن الابنية الجليلة التي أقامها المتوكل قصور بلكوار والعروس والصبيح واللؤلؤ والمختار[٥] .

يقول ياقوت : « لم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى من **الأبنية** الجليلة مثل ما بناه المتوكل »[٦] .

---

(١) اليعقوبي - التاريخ / ٢/ ١٧٤ .
(٢) معجم - البلدان - ٣/ ١٧ .
(٣) الطبري - تاريخ الرسل - ٩/ ١٧٥/ ١٧٦ .
(٤) الطبري - ٩/ ١٧٦ .
(٥) اليعقوبي - البلدان - ص ٢٦٦ .
(٦) المصدر نفسه ص ٢٦٧ .

وقد كلفت كل هذه الابنية أموالا طائلة ، ويعطي ياقوت ان مجموع ما صرف من أموال كان (٢٩٤) مليون درهم(١) . وذكر المسعودي أيضا التكاليف الباهظة التي جلبتها عليه أعماله المعمارية فيقول « وقد قيل انه لم تكن النفقات في عصر من العصور ولا وقت من الاوقات مثلها في أيام المتوكل »(٢) .

وعاش المتوكل في بداية خلافته في القصر الهاروني ، ولكنه في سنة ٧٤٥ هـ رغب في ترك سامرا والبحث عن مكان آخر ، ولم تشرح لنا المصادر الدوافع التي دعت الخليفة المتوكل الى اتخاذ هذا القرار ، الا انني أرى انه نبع من رغبته في تثبيت مراكزه وتخليدا لذكراه ، وتأكيدا لنظرته هذه فقد بنى المتوكلية أو الجعفرية كما تسمى في موضع يقال له الماحوزة ، الواقعة شمال سامرا(٣) فهو يشبه بها اسلافه المنصور والمعتصم .

وتم البناء خلال سنة واحدة ، وأقيمت الأسواق في موضع منعزل وجعل في كل مربعة وناحية سوقا(٤) .

وفي الأول من شهر محرم لعام ٢٤٧ هـ انتقل الخليفة المتوكل الى المدينة . وعندما جلس في مجلسه ، اعطى مكافآت كبيرة الى كل واحد اسهم في العمل ، وقد تكامل له السرور فقال : « الآن علمت انـي ملك اذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها »(٥) .

ونقلت اليها الدواوين ، ديوان الخراج وديوان الضياع وديوان الزمام وديوان الجند وديوان الموالي والغلمان وديوان البريد وجميع دوائر الدولة الأخرى(٦) .

---

(١) المصدر نفسه ـ ١٨/٣ .
(٢) مروج الذهب ـ ٧/ ٢٧٦ .
(٣) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٤٦٠ .
(٤) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٣٦٧ .
(٥) اليعقوبي ـ المصدر السابق ـ ص ٣٦٧ .
(٦) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٣٦٧ .

وأقام المتوكل نازلا في قصره بالجعفرية ، ولكنه لم يتمتع بمدينته الجديدة كثيرا ، اذ بعد تسعة أشهر وثلاثة أيام من اقامته فيها تعرض لحادثة قتل في ٢٤٧ هـ بقصره الجعفري[١] ، وجميع المراجع العربية تكاد تجمع تقريبا على أن المتوكل قد قتل بامر وتدبير ابنه المنتصر .

وليس من الصعب تتبع أصول المؤامرة التي أودت بحياة الخليفة المتوكل ووزيره « الفتح بن خاقان » .

الذي يبدو ان بعض القادة الاتراك قد خشي من تعاظم قوة المتوكل ، واستيء من سيطرته وسطوته اذ أنهم كانوا يدركون أنه اذا غضب من أحد فانه هالك لا محالة مثلما فعل باثنين من وزرائه أحمد بن داود ومحمد بن عبد الملك الزيات وكما قتل ايتاخ التركي كذلك [٢] .

وامتعض المتوكل من سيطرة ونفوذ بعض الاتراك الموظفين الذين كانوا يحلمون باستعادة مجدهم الذي تمتعوا به في عصري المعتصم والواثق [٣] .

ومن المحتمل ان يكون الخليفة المتوكل قد فكر بصورة جدية في الفكرة القائلة بأن كل قومية يجب أن تمثل بصورة متساوية في الجيش العباسي ، وأراد ان يضع العرب والاتراك والاشروسنة والمغاربة في مراتب متساوية .

والواقع أن تحقيق هذه الرغبة كان من الصعوبة بمكان ، لأنها اصطدمت بمصالح الاتراك الذين تغلغلوا في كل مرافق الدولة ، فقد بدأ العنصر التركي يعارض بشدة هذا الاتجاه أو هذه الدعوة فأثار الشغب والاضطرابات لايقاف ما يسمى

---

(١) المصدر نفسه ـ ص ٣٦٧ .
(٢) ابن الاثير ـ الكامل ـ ٥/ ٢٨٠ وما بعدها .
(٣) الطبري ـ تاريخ الرسل ـ ٩/ ١٦٩ .

بالمساواة . ولا تقدم المصادر العربية الصورة الحقيقية للدوافع السرية والعميقة لاستياء الاتراك ، على الرغم من ان المؤرخ الطبري يشير الى ان جماعات الاتراك قد ألحوا في طلب رواتبهم فأرضاهم المتوكل[١] .

ويبدو ان انتقال المتوكل الى الجعفرية (المتوكلية) فيه عدم رضى للاتراك فمكثوا في سامرا والحقد يملأ صدورهم على المتوكل وهم يتحينون الفرصة الملائمة للقضاء عليه .

وفي النهاية وجدوا بشخص المنتصر ـ ولي العهد ـ مساعدا ومحرضا ، وخلال وقت قصير قتل الخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ، بيد ثمانية من الجنود الاتراك ذكر اليعقوبي أسماءهم[٢] .

بايع الناس المنتصر الابن الاكبر للمتوكل بالخلافة في اليوم التالي لاغتياله . وأمه بيزنطية تدعى حبشية[٣] ، في قصر والده الجعفري بالمتوكلية ، ويبدو ان المنتصر كره العيش في المدينة التي أقامها والده ، فقد ذكر المؤرخين أنه انتقل الى سامرا بعد عشرة أيام مع عائلته وقواده وجنده[٤] ، وأمر الناس جميعا ان يهدموا المنازل ويحملوا النقض الى سر من رأى ، فزينت قصور الجعفرية ومنازلها ومساكنها وأسواقها في أسرع مدة ، وصار الموضع موحشا لا أنيس به ولا ساكن فيه والديار بلاقع كأنها لم تعمر ولم تسكن[٥] .

وعادت الحياة مرة أخرى الى سامرا فاصبحت مقرا للخلافة العباسية من ٢٤٧

---

(١) المصدر نفسه ـ ٩/ ٢١٠ .
(٢) اليعقوبي ـ التاريخ ـ ٢/ ١٧٢ .
(٣) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ٤/ ١٢٩ .
(٤) الطبري ـ تاريخ الرسل ـ ٩/ ٢٣٤ .
(٥) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٣٦٧ .

هـ وحتى ٢٧٩ أثناء حكم خمسة خلفاء :

١ ـ المنتصر ـ ٢٤٧ هـ .
٢ ـ المستعين ـ ٢٤٨ هـ .
٣ ـ المعتز ـ ٢٥٢ هـ .
٤ ـ المهتدي ـ ٢٥٥ هـ .
٥ ـ المعتمد ـ ٢٥٦ هـ ـ ٢٧٩ هـ .

هذا ولم يحدث أي عمران بها خلال هذا العهد ، ولكنها شهدت زيادة في نفوذ الاتراك وبخاصة في عهد المستعين والمعتز والمهتدي ، وقد بلغ سلطان الاتراك ذروته فلم يكن أحد يستطيع الاجتراء على معارضتهم ، وكانوا هم يحرضون في تثبت سلطانهم على الخلافة فيقضون عنها من يرون فيه احتمال معارضتهم ، ففسدت دولة بني العباس ، وبدأت أحوال سامرا في النقصان بسبب العصبية التي كانت بين الاتراك[١] ، فتركها المعتمد ليعود ويتخذ من العاصمة القديمة بغداد مقرا له لستة أشهر قبل وفاته في ٢٧٩ هـ .

ومن بعده اتخذ الخلفاء العباسيون بغداد حاضرة لهم ، فأذن ذلك بخراب سامرا وأسرعت للفناء ، ويشير يشير ياقوت بصدد ذلك « الى ان كان آخر من انتقل الى بغداد من الخلفاء وأقام بها وترك سر من رأى بالكلية كان المعتضد بالله أمير المؤمنين في التاج وخربت حتى لم يبق منها الا موضع المشهد ومحلة أخرى بعيدة منها يقال لها كرخ سامرا وسائر ذلك خراب بباب يستوحش الناظر اليها »[٢] .

وهكذا كانت سامراء مقرا للخلافة العباسية لفترة تقرب من ٥٨ عاما ، وقد

(١) د . أحمد شلبي ـ موسوعة التاريخ والحضارة / ٣/ ٢٣١ .
(٢) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ٣/ ١٩ .

انقطعت هذه الفترة في عام ٢٥١ هـ حينما هرب الخليفة المستعين الى بغداد في محاولة فاشلة منه للهرب من خيانة الترك الذين قويت شوكتهم في عهده فاستبدوا بالملك والتولية والعزل[١] . وتحت وطأة هذه الظروف خلع المستعين نفسه وبويع للمعتز بالخلافة في سامراء بدلا من بغداد[٢] .

(١) الدكتور احمد شلبي ـ موسوعة التاريخ والحضارة ـ ٤/ ٢٣١ .
(٢) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ٤/ ١٦٤ .

الفصل الرابع

العامل الديني

- تمهيد .

أ ـ مناطق قبل النشأة كمدن . .

١ ـ النجف .

٢ ـ كربلا .

٣ ـ الكاظمية .

ب ـ النجف ، وكربلا ، والكاظمية ،اضرحة واقبال .

جـ ـ النجف وكربلا والكاظمية ، كمدن عربية اسلامية .

التمهيد :

بين الدين والمدن علاقة قديمة ، فالـدين بطبيعتـه عملية جمـاعية ، تؤدي في الغالب في بمراكز مدنية انشئت خصيصا لهذا الغرض ، ولهـذا كان الـدين عامـلا اساسيا في نشأة كثير من المدن ، وكلما ضربنا ابعـد في القـدم كلما اشتـدت هذه العلاقة ، فعند السومريين أسست المدن للعبـادة كمدينـة نيور واريدو ، فالمدينـة عندهم نطاق مقدس[١] ، كذلك للمدن صبغـة دينية عنـد البـابليين والآشـوريـن والمصريين ، ففي مصر كانت المدن تسمى باسماء الآلهة ، مثال ذلك بوصير وهـي بيت الاله ـ اوزيرس ـ وبويسطه بيت الاله يسط وميرمانتوبيت الاله منتو وتون امون ـ مدينة امون ـ وفي اليونان بدات اثينا كمعبد للالهة أثينا[٢] .

وفي العصور الوسطى بأوروبا لـم تفلت المدن فيها تقريبا من الاصل الديني ، وكانت المدن فيها مراكز اشعاع ونشر للمسيحية في الوسط الوثني ، بل ان الذي حفظ تقليد المدن لاوروبا خلال العصور الوسطى المظلمة واعاد تعميرها هي الكنيسة[٣] .

أما الاسلام فهو على وجه اليقين خالف للمدن بدرجة أكبر من المسيحية ـ كما

---

(١) جيمس هنري برستد ـ انتصار الحضارة ـ ص ١٦٥ ـ ترجمة د . احمد فحري

(٢) طه باقر ـ مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ١٦٧ .

(٣) ج . ج كلوستون ـ عالم العصور الوسطى في النظـم والحضـــارة ـ ص ١٢٣ ـ ترجمـة د جوزيف نسيم .

يقول ديفونتين[1] . ـ وقد تحول اسم يثرب في الاسلام الى المدينة وهو اسم علم واسم نوع معا . وقد كان المسجد (أول بناء يقام في المدينة الاسلامية الجديدة ، حيث اصبح مقرا لزعامة العربية الاسلامية وباعت النهضة فيها ، وقد أضفت البساطة التي لزمت العرب في الصحراء والبادية طابعها على المسجد في أول نشأته ، كما أنه يعتبر بحق أول دعامة من دعامات الفن الاسلامي وأول أثر من آثار النهضة الاسلامية .

فالدين الاسلامي بجوهره وتشريعاته جاء عاملا مشجعا للحياة الحضرية والاستيطان البشري المستقر ، فمن الافضل ان يقام أداء فريضة الصلاة ـ وهي الركن الاساسي فيه ـ وبخاصة صلاة الجمعة في ظل حياة جماعية مدنية مستقرة ، اذ هي تتطلب لقاء المسلمين في الجوامع والمساجد الرئيسية في المدن ، وان فلسفة القرآن الكريم في اساسها مدنية ، ولا تشجع حياة البداوة المتجولة ، وقد خططت لتناسب المجتمع الحضري بالدرجة الاولى ، فالاسلام دين المدنية وقد بنيت كثير من أسسه لتسير مع حاجات المجتمع الحضري المتنوعة ، والنبي محمد (ص) أعطى الحياة المدنية أهمية دينية عندما اعلن للمسلمين ان يتوجهوا الى المدينة المنورة ومكة المكرمة لاعتناق الاسلام ، وهو بهذا يقصد ضمنا تشجيع الهجرة الى المدن واحترام حياة الاستقرار .

وهكذا في كل العصور كانت فترات النشاط المدني هي فترات الانتقاض الديني وعلى العكس كانت المناطق التي تاخرت كثيرا في حياة المدن هي التي تاخرت في التطور الديني كالبربر والمغول والرومان[2] .

ويبدو انه ليس للمدن الدينية مواقع مختارة ، وانما هناك مواضع ومواقع

---

(1) religion Deffontaines Pierre , Geography , P.147 .

(2) د. جمال حمدان ـ جغرافية المدن ـ ص١٧٥ . ط٢ .

خارقة ـ فمواضع الوظيفة الدينية لا تخضع للمنطق الجغرافي ، بل نقلت من كل حتم جغرافي ـ فهي تتحدد باحداث أو رؤى او معتقدات دينية . ولكن لها رغم ذلك انتخابها المكاني او الفيزيوغرافي ، فقد يتحدد الموضع بسقوط حجر مقدس كالحجر الاسود في مكة ، حيث نشأت مدينة في واد غير ذي زرع ، او يرتبط بعقائد الجماعة وافكارها فكثيرا ما قامت مراكز عمرانية حول الاصنام التي كانت تتخذ رمزا للعبادة في الامم الوثنية القديمة كأربيل في العراق واثينا في اليونان وفي مصر القديمة كانت مرتفعات سيناء هي مركز الاديرة الكبير[1] ، ويتحدد موضع المدينة أيضا بضريح امام كضريح الامام علي في النجف بالعراق[2] ، وبمدفن ولي كالشيخ منصور في سفاقس بالمغرب .

وفي ضوء ما تقدم فالمدن الدينية تنشأ في الاغلب حول نواة صغيرة هي في الاصل صنم أو حجر مقدس أو ضريح او قبر ، وهذه النواة تكون أول مظهر لنشأة المدينة ، فعندها تولد التجارة والصناعة ، وعندها ينشأ أول سوق للمدينة ثم تنمو أوجه النشاط الاخرى مع الزمن ، وتجتذب المدينة السكان تدريجيا ، وينحصر كل النشاط المدني داخل هذا الاطار الديني الرئيسي ، وبهذا الشكل استطاعت المدن الدينية ان تكون مراكز للتجارة والصناعة والثقافة بمرور الزمن .

وقد اوجد الاسلام عندنا في العراق من الاضرحة المقدسة المقامة على مدافن ائمة والعلماء نواةً لمدن دينية كبيرة مهمة منها كربلا والنجف والكاظمية والاعظمية وغيرها ـ ونجد أن الاماكن التي اتخذت مسرحا لاقامة الشعائر والطقوس الدينية في العراق اصبحت فيما بعد مدنا لها شأنها في حياة الشعب العراقي (كربلا ـ النجف ـ الكاظمية ـ سامرا) ، ونجد في هذه الاماكن يمارس فيها نشاط له أثره في حياة

(١) ابراهيم أمين عالي ـ سيناء المصرية عبر العصور ـ ص ١٢٣ وما بعدها .
(٢) يوسف غنيمة ـ مدن العراق ـ ـ ص ١٦٩ .

المجتمع ، كما ان قداسة المكان تنتقل الى سكانه وتضفى عليهم اعتبارات خاصة ، فكان المواطنون وما يزالون في العراق وفي غيره من البلدان الاسلامية ينظرون الى الائمة والاولياء والصالحين نظرة النجلة والاحترام ، ويعتقدون في طهر ابدانهم، وسموا مكانتهم وصفاء سريرتهم فيتبركون بهم ، في المدلهمات ، وما تزال الاماكن المقدسة تحتفظ باعتبار خاص في حالات الحرب والكوارث وما اليها . واحتفظت التشريعات المحلية والقومية والدولية لها بهذه المميزات ، مما اضفى عليها القوة والحصانة ، وأشعر سكانها بانهم في وضع تأميني مدى الحياة ضد كل حوادث الزمن .

ومن دون شك ان هناك عوامل أخرى غير عامل الدين قد اسهمت بتطوير هذه المدن ، لكن تلك العوامل تعتبر لاحقة للعامل الديني ، فالعامل الديني كان سببا في نشأة النجف وكربلا والكاظمية ، وقبل ان نتحدث عنها يجدر بنا ان نوضح ظروف انشائها بانها كانت واحدة ، وانها لم تخضع للتخطيط المنظم لاسباب متماثلة ، مما يجعلنا نتدارسها معا بعد ان تقدم عن كل منها تعريفا سريعا يرتبط بموقعها واسمها وجغرافيتها قبل ان تصبح في مواضعها اضرحة اسلامية .

ـ مواقع ومواضع النجف وكربلا والكاظمية قبل ان تصبح مدنا .

١ ـ النجف :

أ ـ موقعها :

مدينة مقدسة تقع في طرف الصحراء من جهة ضفة الفرات الغربية ، بينها وبين الكوفة زهاء سبعة اميال وتقع جنوبي غربي بغداد على بعد ١٦٠ كم ، وترتفع عن مستوى سطح البحر بنحو ٢٣٠ قدم[١] .

ب ـ اسمها :

والنجف اسم عربي ومعناه المنجوق كالعدد بمعنى المعدود ، قال ابن فارس ، النون والجيم والفاء ، اصلان صحيحان احدهما يدل على تبسيط في شيء مكان او غيره ، والآخر يدل على استخراج شيء ، فالأول النجف جـ مكان مستطيل منقاد ولا يعلوه الماء والجمع نجاف ، ويقال هي بطون من الارض في اسافلها سهولة تنقاد في الارض لها اودية تنصب الى لين الارض . ويقال لابط الكتيب نجفة الارض[٢] .

وقال الجوهري : النَجف والنُجف بالتحريك مكان لا يعلوه الماء . مستطيل منقاد والجمع نجاف[٣] .

وقال الزمخشري : وفي بطن الوادي نجفة ونجف هي مكان مستطيل كالجدار لا يعلوه الماء[٤] .

---

(١) ماسينيون ـ خطط الكوفة ـ ص ٣٣ .
(٢) المقاييس : ٥/ ٣٩٥ .
(٣) الصحاح ـ ٤/ ١٤٢٩ .
(٤) أساس البلاغة ـ ١/ ٢٦ .

وذكر ابن منظــور : النجف أرض مستــديرة مشرقــة ، والجمــع نجف ونجاف[1] . وقال ابن سيده : النجف والنجاف شيء يكون في بطن الوادي له طول منقاد من بين معوج ومستقيم الماء ، وقد يكون في بطن الارض ، والنجفة شبه المثل[2] .

وعرفها الليث : انهـا تكون جدار ليس بعـريض[3] . وقـال عنهـا ابــن الاعرابي : انها المسناة والنجف والتـل [4] . وفسر الازهري : النجفة التـي يظهـر الكوفة وهي كالمسناة تمنع ماء السيل أن يعلو منازل الكوفة ومقابرها[5] .

وشرحها الفيروز ابادي النجف في قاموس . انها محركة وبهاء النجفـة مكان يعلوه الماء ، مستطيل منقـاد ، ويكون في بطـن الـوادي ، وقـد يكون ببطـن من الارض ، جمعه نجاف ، اوهي ارض مستديرة مشرفة على ما حولها ، والنجف محركة التل وسناة لظاهر الكوفـة ، على فرسخين منها ، يمنـع ماء السيل ان يعلـو منازلهـا ومقابرها[6] .

وعبر ياقوت عن معنى النجف فقال : النجف بالتحريك وهو يظهر الكوفة كالمسناة تمنع سيل الماء يعلو الكوفة ومقابرها ، وبالقـرب من هذا الموضـع قبرأمـير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضى) وقد ذكرته الشعراء في اشعارها[7] .

وقال أبو الفداء في وصف الحيرة : « والحيرة مدينة جاهلية كثيرة الانهار وهي

---

(١) ابن منظور ـ لسان العرب ـ مادة نجف .

(٢) ابن سيده ـ المخصص ـ ٦/ ١٧٩ .

(٣) ، (٤) ابـن منظـور ـ المصـدر السابـق ـ مادة نجف .

(٥) تهذيب اللغة ـ ٩/ ٢٢٣ .

(٦) ٣/ ٢٠٤ .

(٧) معجم البلدان ـ ٤/ ٧٦٠ .

عن الكوفة على نحو فرسخ ، والحيرة على موضع يقال له النجف ، زعم الاوائل ان بحر فارس كان يتصل به وبينها مسافة بعيده[١] .

واستنادا الى هذه الأقوال اللغوية منها والجغرافية ، ان اسم النجف يعني ارضا عالية معلومة تشبه المناة تصد الماء عما جاورها ويحيط بها الماء من جوانبها أمام السيول ولكنه لا يعلوها ، فهي كالنجد والسد ، وتغلب على شكلها الاستطالة التي اشار اليها بعض اللغويين كما ان صفة النجف الحالية في استطالة أرضه تؤيد ذلك .

والنجف قريبة من الحيرة المدينة العربية المشهورة في تاريخ العرب ، عاصمة المناذرة التي انشئت في منطقة النجف ، كان ينبغي ان تضاف اليه فيقال حيرة النجف بدلا من نجف الحيرة ، واعتبر ضاحية من ضواحيها العامرة الجميلة ، الا ان العادة جرت بتعريف الغامر بالعامر فاضيف النجف الى الحيرة تجاوزا فقيل النجف الحاري او الحيرى .

قال ياقوت ، ولبعض اهل الكوفة :

بالنجف الخاري ان زرت اهله — مها مهملات ما عليهن سائس[٢]

حـ ـ النجف قبل الفتح العربي الاسلامي :

كانت في منطقة النجف قبل الفتح الاسلامي تنتشر الاديرة المسيحية ، من أشهرها دير فاتيون في اعلى النجف ودير مزعوق في جنوبها[٣] . كما ان ديارات الاساقفة تنتشر بظاهر الكوفة أيضا وهو أول الحيرة ، هي قباب وقصور[٤]

(١) تقويم البلدان ـ ص ٢٩٩ .
(٢) معجم البلدان ـ ٤/ ٧٦١ .
(٣) الشابشتي ـ الديارات ـ ص ١٤٩ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٥٠ .

في حين تقدير مارة مريم وهو من الاديرة المشهورة المشرفة على النجف من بناء وآل المنذر ونواحي الحيرة ، بين قصري الخورنق والسدير وقصر أبي الخصيبي [1] . كما أن هناك بيوتا صغار تسكنهـا الرهبـان تنتشر في الاكيراح وهـو رستـاق نزه بأرض الكوفة ، يحف بها جميعا نهر يعرف بالغدير عن يمينه يقع قصر أبي الخصيب مولى أبي جعفر وعن شماله السدير أحد القصور المشهورة بقرب الحيرة[2] .

وكان قصر أبي الخصيب أحد منتزهات الدنيا وهو مشرف على النجف وعلى ذلك الظهر[3] . هذا اضافة الى انتشار قصور متعدده في منطقة النجف وعلى ظهر الكوفة أيضا منها قصور القريب ، والعنبر ، والابيض ، والفرس ، والزوراء[4] ، والعدسيين وهذا القصر أولى ما فتح المسلمون ما فتحوا العراق[5]

وبهذا الانتشار الحضري والتشكيل العمراني المتعدد الاغراض والوظائف ، يبدو ان منطقة النجف كانت ولا تزال طيبة المناخ عذبة الارض والهواء اضافة الى انها كانت مصحة للاجسام العليلة ومنجاة « من الامراض الوبيلة وقد ايد ذلك الاختبار الاشعار والاخبار ومن ذلك قول اسحق بن ابراهيم الموصيلي :

يا راكب العيس لا تعجل بنا وقف
محـــى داراً لسعـــدى ثم تنصرف
لم ينزل النـاس من سهـل ولا جبـل
اصغـــى هواء ولا اعـــذى من النجف

(١) يوسف عنيمه ـ الحيرة ـ ص ٢٥ .
(٢) الشابشتي ـ المصدر السابق ـ ص ١٥٠ .
(٣) الشابشتي ـ المصدر السابق ـ ص ١٥٢ .
(٤) يوسف عنيمة ـ المصدر السابق ـ ص ٢٧ .
(٥) أمين الكلبي ـ جمهرة النسب ـ ص ٧٨ .

حفت ببر وبحر من جوانبها
فالبر من طرف والبحر في طرف
وما يزال نسيم من يمانية
يأتيك منها بريا روضة أنف
كأن ترتبه مسك يفوح به
او عنبر دافه العطار في صدف [1]

وقال الجاحظ : هرب رجل من الطاعون الى النجف أيام شريح القاضي - فكتب اليه شريح : أما بعد فان الفراء لن يبعد اجلا ولن يكثر رزقا ، وان المقام لن يقرب أبلا ولن يقلل رزقا ، وان النجف من ذي قدرة لقريب[2] .

وكان هذا فضولا من شريح - رحمه الله - فلو اتبع قوله ، لم يستشف مريض ، ولا استوصف طبيب ، ولا شرب الدواء لدفع الداء، ولا احسن السكن والقذاء .

ويبدو ان صلاحية منطقة النجف للسكنى وللراحة والاستحمام ، وذلك بما تميزت به من صفاء الهواء وعذاوة الأرض ، قد دل عليه ذلك الانتشار العمراني الواسع الذي اختصت به المنطقة دون غيرها من المناطق المجاورة ، بكثرة القصور والدور ، ومما يؤثر ذلك ما ذكره ياقوت الحموي ، عن مدينة الحيرة حيث قال[3] : الحيرة مدينة كانت على ثلاثة اميال من الكوفة على موضع يقال له النجف ، وان حثينا الحيرى المغنى افتخر ان منزله النجف حيث قال :

انا حثين ومنزلي النجف ... وما تدعى الا القنى القصف

(١) الاصفهاني - الاعاني - ٩/ ٢٨٥ .
(٢) البيان والتبيين - ٢/٢٠٣ .
(٣) معجم البلدان - ٣/١٩٢ .

اقـــرع بالـــكأس تغـــر باطية مترعـــة تارة واغترف
والعيش غض ومنــزلي خصـــب لم تفزنـــي شفــوة ولا عنف[1]

وكان الى جانب هذا التـأهيل الحضري المنتشر في منطقـة النجف ، يوجـد انتشار بدوي يجول في أطراف الحيرة والنجف ، تمثله قبيلة تغلب التي هاجرت بعد حرب البسوس في أيام عمرو بن هند[2] ، وقبيلة بكر ومن فروعها قبيلة شيبـان ، وكانت لهذه القبيلة الاخيرة مواقف مشهورة ضد الساسانيين فقد حققت انتصارا على الجيش الساساني في موقعة ذي قار[3]

(١) الاصفهاني ـ المصدر السابق ـ ٢/ ٢٤١
(٢) ابن الآثير ـ الكامل ـ ١/ ٢٩٩ .
(٣) الطبري ـ تاريخ الرسل ـ ٢/ ٢١٠ .

٢ ـ كربلا

أ ـ موقعها

من مدن العراق المقدسة ، أوجدها عامل الدين بالعراق ـ فيها مشهد الامام الحسين بن على بن أبي طالب وهي مزار اسلامي يقع غربي الفرات بحوالي ستين ميلا جنوبي غربي بغداد على مشارف الصحراء [١] ـ وتقع أيضا بمواجهة قصر بن هبيرة [٢] .

ب ـ اسمها :

كربلا بلدة عرفت بهذا الاسم قبل الاسلام ، استنادا الى اشارتي ياقوت والطبري في حوادث ١٢ هـ [٣] ، فقد ذكرها بعض العرب الذين رافقوا خالد بن الوليد في فتحه للعراق أيام خلافة أبي بكر سنة ١٢ حيث تولى بعد فتحه الحيرة كربلا فشكا اليه عبد الله بن وشيمة البصرى [٤] (كذا) الذبان فقال رجل من أشجع ذلك :

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ٦/ ١٧١ .

(٢) الاصطخرى ـ مسالك الممالك ١٠/ ٨٥ .

(٣) ياقوت ـ المصدر السابق ـ ٦/ ١٧٣ ، الطبرى ـ تاريخ الرسل ـ ٣/ ١٦٧ .

(٤) جاء هذا اللقب خطأ في معجم البلدان طبعة مصر والاسم الصحيح النصرى اذ لم تكن البصرة يومئذ قد مصرت ، ولأن العرب القدامى في القرن الأول والثاني الهجري لم يكونوا ينتسبون الى المدن والاقطار بل الى الآباء والاجداد والافخاذ والقبائل ، أما غير العرب فجائز فيهم مثل هذه الالقاب كما سرجويه البصرى الطبيب مثلا .

ابن العبرى ـ مختصر الدول ـ ص ٢٩٢ .

لقد حبست في كربلاء مطيتي وفي العين حتى عاد غثا سمينها
ويمنعها من ماء كل شريعة رفاق من الذيان زرق عيونها

والى معنى كربلا أشار ياقوت في معجمه عدة احتمالات منها قوله : كربلا بالمد وهو الموضع الذي قتل فيه الحسين بن علي في طرف البرية عند الكوفة ، فأما اشتقاقه فالكربلة رخاوة في القدمين ، يقال جاء يمشي مكربلا فيجوز على هذا أن تكون أرض هذا الموضع رخوة فسميت بذلك ويقال كربلت الحنطة اذا هززتها ونقيتها ، فيجوز على هذا أن الأرض منقاة من الحنطة والدغل فسميت بذلك والكربل اسم نبت الحما فيجوز أن يكون هذا الصنف من النبت يكثر نباته هناك فسمي به [١] .

وقد احتمل بعضهم ان اسم كربلا مرتبط باللغة الآرامية كربيلا ، واللغة الآشورية كربلاتو وهي نوع من لباس الرأس وهذا بعيد الاحتمال[٢] .

ويزعم مجوس دور الفهلويه ومعتقدهم كان بيت نار ، يطلقون عليه لفظة (كاربالا) ومعناه الفعل العلوي[٣]

واعتقد الدكتور عبد الجواد الكليدار ، ان كربلا كانت من امرات مدن لابالاكوباس (الفرات القديم) وانها معبد للعبادة كما يستدل من الاسماء التي عرفت بها قديما كعمورا وماريا وصفورا وقد كثرت حولها المقابر ، كما عثر على جثث موتى داخل أوان فخارية يعود تاريخها الى قبل الميلاد ، وأما الأقوام التي سكنتها فكانت تعول الزراعة لخصوبة تربتها وغزارة مائها[٤] .

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ٦/ ١٧٤ .
(٢) يوسف غنيمة ـ مدن العراق ـ ص ٢٣ .
(٣) ابن شهر اشوب ـ ديستان المذاهب ـ ص ٣٤٠ .
(٤) بغية النبلاء في تاريخ كربلا ـ ص ٢٠ .

وأيده على ذلك السيد محمد حسن الكلدار في كتابه مختصر تاريخ كربلا [1] .

في حين ظن هبة الدين الشهرستاني [2] « أن كربلا اشتق اسمهـا من كلمـة كور بابل العربية وهي عبارة عن مجموعة قرى بابلية قديمة منها تينوى ، التي وجدت منذ العصور الغابرة والتي تمثل اليوم تلولا اثرية بالقرب من سدة الهندية ثم الفاطمية وتعرف اليوم بأرض الحسينية وكربلة وتقع شرقي كربلا وجنوبها ثم كربلا وهي في الشمال الغربي من القانبيرية ثم النواويس وكانت هذه مقبرة نينوى[3] ثم الحير وهو اليوم موضع قبر الحسين الى حدود روضته أو حدود الصحن . .

وقال الأب اللغوي انستاس ماري الكرملي : « والذي نتـذكره فيما قرأنـاه في بعض كتب الباحثين ان كربلا تتكون من كلمتين كرب وال أي حرم الله أو مقدس الله [4] .

والراجح لدى ان هذه المدينة كانت احدى القرى العراقية القديمة التي يرتفع تاريخها الى العهد البابلي القديم ، والاسم الذي تحمله يؤيد ترجيحنا ذلك ونحـن نرى ان كلمة كربلا وهي احدى القرى المنتشرة غرب بابل والتي طغى اسمها على تلك المنطقة ، لا تعدو غير قرب الاله أو حرم الله التي أكدها الاب الـكرملي ، فالكلمة متوارثـة من البـابلية القديمـة حيث انتشر بهـذا المعنـى كثـير من المدن في الحضارتين البابلية والاشورية ـ منها ـ بابل مقر الاله ، وآريا ايلو ـ (ارميل الحالية) مدينة الاربعة آلهة الاشورية .

---

(١) أو مدينة الحسين ـ ص ١ ـ٢ .

(٢) نهضة الحسين ـ ص ٦٦ .

(٣) نينوى موضعان بكسر النون وياء ساكنة ونون أخرى مفتوحة ـ بلد قديم كان يقابل الموصل . وتينوى كورة كانت بأرض بابل منها كربلا التي قتل بها الحسن ابن علي (عليهما السلام) .
ياقوت ـ المشترك وضعا والمفترق صفعا ـ ص ٤٣٠ .

(٤) تاريخ بغداد ـ ٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦ .

وكما يبدو ان موضع كربلا قد خص بالنشاط العسكري الاسلامي لصلاحه فهو موضع هامش لا يفصله مانع عن مقر القيادة في المدينة ، وهذه ميزة تتطلبها اقامة المعسكرات الاسلامية يومذاك ـ فقد أشار الطبرى في حوادث ١٢ هـ « وخرج خالد بن الوليد في عمل عياض بن غنم لاغاثته فسلك الفلوجة حتى تزل كربلا وعلى مسلحتها عاصم بن عمرو وأقام خالد على كربلا أياما » . وقد ذكر الخطيب البغدادي يسنده الى أبي سعيد التميمي قال : « اقبلنا مع علي (ع) من صفين فنزلنا كربلا فلما انتصف النهار عطش القوم »[١] . وذكر ياقوت أيضا : « ان الحسين (رضى) لما انتهى الى كربلا وأحاطت به خيل عبيد الله بن زياد قال في اسم هذه الارض التي نحن فيها قالوا كربلا قال : « كرب وبلاء واراد الخروج منها فمنع حتى كان ما كان »[٢] .

« فهذه الحوادث التاريخية المتلاحقة على اديم كربلا هي التي أعطت هذه ميزة الاسم واستمراريته فحجبت كافة الاسماء المنتشرة هناك ، والذي أكد هذا مدفن الامام الحسين بن علي فيه مما أعطاه استمرارية القدسية أيضا . في حين اصبحت كربلا بهذا المدفن قطب جذب حضري ومحط رجال ، وترحال وموضع تجارة وقوافل ، كما أنها تقع بين المناطق الغنية بالحاصلات والمنتوجات الزراعية مما جعل الناس يقبلون عليها من كل حدب وصوب أيضا[٣] .

---

(١) تاريخ بغداد ـ ٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦ .

(٢) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ٦/ ١٦٩ .

(٣) السيد محسن الامين العاملي ـ المباني الشيعه ـ ٤/ ٢٩٧ .

٣ ـ الكاظمية

أ ـ موقعها :

تقع مدينة الكاظمية في وسط العراق على ضفة نهر دجلة الغربية شمالي بغداد بمسافة فرسخين (٩ كم) وتعتبر الآن من أمهات المدن العراقية لشهرتها الدينية والصناعية والتجارية .

ب ـ موضع الكاظمية قبل الاسلام :

كان موضع الكاظمية قبل الاسلام يشتمل على مناطق زراعية واسعة تنتشر فيها البساتين والحقول العامرة بأشجارها ونخيلها ومحاصيلها ،فيروي أن كسرى أنوشروان (٥٣٠ م ـ ٥٧٩ م) الملك الساساني كان يمتلك بستانا في جوار قرية بغداد من ناحية الشمال سماه بستان العدل[١] .

ولا ريب فان موضع الكاظمية قريب من دجلة ، وان تربتها معروفة بالخصب وما زالت آثار البساتين تحف بها من جميع جهاتها .

وكانت تنتشر في هذا الموضع أيضا الاديرة المسيحية كدير درنا ودير القباب اللذين يقعان على ضفة نهر دجلة الغربية وقد جرفهما ـ على ما يدعى ياقوت ـ النهر من جراء تغيير مجراه فلم يبق لهما أثر[٢] .

---

(١) د . مصطفى جواد وأحمد سوسه ـ دليل خارطة بغداد ـ ص ١٦ .
(٢) معجم البلدان ـ ٢/ ٤٤٩ .

ب ـ « النجف وكربلاً والكاظمية في العصر العربي الاسلامي كأضرحة مقدسة » .

سنتحدث فيما يلي عن تاريخ مناطق المدن الدينية في العراق خلال العصر الاسلامي ، كما نتحدث أيضا عن قيام اضرحة مقدسة في هذه المناطق ، حيث ارتبط بها قيام ثلاث مدن دينية . هي : النجف وكربلا والكاظمية .

١ ـ النجف :

كانت منطقة النجف على ما يبدو مسرحا للوقائع الحربية في اثناء الفتوحات الاسلامية ، وقد نزل فيها القائد خالد بن الوليد وقواده الذين شاركوه في فتح الحيرة وبالقرب من موضع النجف دارت المعركة الفاصلة في تاريخ الفتوحات الاسلامية للعراق ، تلك هي معركة القادسية في (١٦ هـ) [١] ، والقادسية قرية تقع بين الكوفة والقريب[٢] . وقد انتصر العرب المسلمون في تلك الوقعه انتصارا عظيما ، وبها تم فتح السواد ، وفي ذكر تلك الوقعه الحاسمة ، قال بشر بن عمرو الخثعمى[٣] .

ألم خيال من أميمة موهنا … وقد جعلت أولى النجوم تغور
ونحن بصحراء العذيب ودارها … حجازية ان المحل شطير
فزارت غريبا نازحا جل ماله … جواد ومفتوق القرار طرير
وحلت بباب القادسية ناقتي … وسعد بن وقاص على اميرد
تذكر هداك الله وقع سيوفنا … بباب قديس والمكر ضرير
عشية ود القوم لو أن بعضهم … يعار جناحي طائر فيطير

---

(١) البلاذرى ـ فتوح البلدان ـ ص ٣٦٥ .
(٢) القزويني ـ آثار البلاد وأخبار العباد ـ ص ٢٣٩ .
(٣) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ٨٠٧/٤ .

ويصف القعقاع بن عمرو التميمي المعارك الطاحنة التي كانت على أرض القادسية كما يذكر في قوله :

سقى الله قتلى بالفرات مقيمة
واجزى بانياج النجاف الكواشف
فنحن وطئنا بالكواظم هرمزا
وبالثنى قرني قارن بالجوارف[1]

وقد اصبحت منطقة النجف بعد ذلك ضمن الأراضي التي تم فتحها بأيدي المسلمين ، ونتيجة لهذا الحسم العسكري العربي الاسلامي الناتج وتثبينا له ، فمصر العرب المسلمون الكوفة سنة ١٧ هـ ـ كما اسلفنا ، واستمر هذا المصر مركزا لولاية مهمة من ولايات الدولة العربية الاسلامية حتى سنة ٣٦ هـ[2] ، ففي هذه السنة قدم اليها الامام على بن أبي طالب (رضى) بعد فراغه من موقعة الجمل وأقام فيها ، واضحت الكوفة باقامة أمير المؤمنين على عاصمة للخلافة الاسلامية ومقرا لها مدة أربع سنوات وفي السابع عشر من رمضان سنة ٤٠ هـ مات الامام علي متأثرا من جرحه ، أثر الضربة التي أصابه بها عبد الرحمن بن ملجم المرادي وهو أحد الخوارج[3] ، وقام بدفنه أولاده والمقربون في النجف وأخفوا معالم قبره خوفا من عبث السلطات الاموية به[4] . وطوال الحكم الاموي لم يشيد لمدفنه ضريح ، وانما كان التقاء العلويين وغيرهم عند القبر بقصد الزيارة هو الذي شخص مدفنه حتى زال الحكم الاموي[5] .

ونتيجة للاخبار التاريخية تعتبر عمارة هرون الرشيد العباسي أول عمارة شيدت

---

(١) ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ـ ٢/ ٢٦٧ .
(٢) تاريخ خليفة بن خياط ـ ١/ ١٦١ .
(٣) ابن ظاهر المقدسي ـ لبدء التاريخ ـ ٩٥/ ٢٣٣ .
(٤) اليعقوبي ـ التاريخ ـ ١/ ١٦٧ .
(٥) ابن طاووس ـ فرحة القرى ـ ص ١١٠ .

للقبر الشريف ، وبداية الدفن في منطقة النجف ونزول الناس ذلك المكان تبـركا للراقد الكريم(١) .

وعقبت عمارة الرشيد عمارة محمد بن زيد بن محمد بن الحسن العلوي صاحب طبرستان والديلم الذي ولى الامرة بعد وفاة أخيه الحسن بن زيد سنة ٢٧٠ هـ فقد شيد على قبره قبة(٢) ، وأصبح نتيجة لهذه العمارة ضريحا .

ومن الذين احتموا بضريح الامام واعتنوا به به أبو الهيجا عبد الله بن حمدان بن حمدون التغلبي المقتول سنة ٣١٧ هـ أيام خلافة المقتدر بالله العباسي (٢٩٥ هـ - ٣٢٠ هـ) (٣) ، فقد شيد هذا العاهل الحمداني قبـه على القبـر وجعلهـا مرتفعـة الاركان بدلا من القبة التي بناها صاحب طبرستان والديلم ، كما جعل لها أبوابـا أربعة وسترها وزينها بالفسيفساء من الداخل والخارج .في حين فرش الأرضية بثمين الحصر السامان(٤) .

ولعل أجل العمارات وأهمها تلك التي قام بها المالك البويهي عضد الدولة ، وقد صرف عليها أموالا طائلة ، وعمر المشهد عمارة جليلة(٥) . ظلت حتى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ، فستر حيطان الضريح بخشب الساج المنقـوش . ولـكن هذه العمارة احترقت وجددت عمارة المشهد على ما هي الآن(٦) .

وبالقرب من ضريح الامام علي يوجد أثر يظاهر الكوفة يسمى بالقرين وهما بناءان كالصومعتين ، بناهما المنذر بن امرء القيس بن ماء السماء أحد أمراء الحيرة ، على نديميه خالد بن فضله وعمرو بن مسعود اذ قتلهما ليلة سكره فندم في الصباح

---

(١) المسعودي - مروج الذهب - ٢/ ١٦٧ .
(٢) ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - ٢/ ٤٥ .
(٣) الذهبي - دول الاسلام - ١/ ١٩١ .
(٤) ابن حوقل - صورة الارض - ص ٢٤٠ .
(٥) الديلمي - ارشاد القلوب - ٢/ ١٤٨ .
(٦) ابن عنبة - عمدة الطالب - ص ٦٣ .

على فعلته هذه فبنى لهما طربالين وأمر وفود العرب ان تمر من بينهما وجعل لهما في السنة يوم نعيم ويوم بؤس وكان يقتل في يوم بؤسه من يلاقيه ويغري بدمه الطبالين[1] . وفي يوم نعيمه يجيز من يلقاه ويخلع عليه .

وتوجد في الجهة الشمالية الشرقية من النجف أي بين اثر الضربين والنجف مقبرة ضخمة تعرف بوادي السلام ، وهي من أوسع المقابر في العالم وتاريخها يتصل بمرقد الامام علي ، وتعد من أقدس وأطهر الاماكن لدفن المسلم في نظر المسلمين ، وتمتاز تربتها انها ناعمة تقيمه وتحتها بحوالي ٣٠ أو ٣٥ سم طبقة صخرية متكونة من صخور رملية قوية تسمح لحفر اللحود فيها بصورة عمودية وتمتاز ارض المقبرة بالجفاف التام باعتبارها جزء من الهضبة الصحراوية الجافه لذلك تكون خالية تماما من العفونة ومن أي رائحة كريهة .

٢ ـ كربلا :

كانت منطقة كربلا حين حل بها الحسين بن علي يوم الخميس الثاني من المحرم سنة ٦١ هـ تقتصر الى العمران الكبير ، ولم تكن فيها الا بعض قرى تحف أطرافها ـ كما مر بنا[2] ـ ومن المرجح ان هذه المنطقة الغنية بالمياه وبتربتها الخصبة ، كانت تنتشر فيها القرى والقبائل التي استقرت فيها أو بالقرب منها .

ويبدو ان بعد العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ أي بعد استشهاد الحسين بن علي ودفنه في مكانه الحالي ، ذاع صيت كربلا في الآفاق وانتشر في الاقطار وقد جاء في أشعار العرب ودواوينهم منها ـ قول كشاجم [2] ـ

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ٦/ ١٦٧ .

(٢) شهراشوب ـ المناقب ـ ٤/ ١١٧ .

ـ القرويني ـ آثار البلاد وإخبار العباد ـ ص ٤٢٦ وقد ذكر في ص ٢٢٦ ـ ان الضربين بناء ان كالصومعين كانا بأرض مصر بناهما بعض الفراعنة وأمر كل من يمر بها ان يصلي لها ومن لم يصل قتل ـ وبني مثلهما المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء بظهر الكوفة .

وأظلـم في كربـلا يومهم ثم تجلى وهـم ذبائحه

وقول منصور السري[1] .

بتربـة كربـلاء لهـم ديار تيام الاهـل دارسـة الطلول

وقول السهمي[2] :

مررت على قبـر الحسـين بكربلا فقـاض عليه من دموعـي غزيرها
سلام على أهـل القبـور بكربلا وقـل لهـا منـي سلام يزورها

فأخذ الناس يتوافدون على زيارة القبر ، كما أخذ كثير منهم يستوطنون تلك التربة المقدسة أويوصي بدفنه هناك ، وعلى الرغم من مقاومة ومعارضة بعض الخلفاء العباسيين ، كالرشيد والمتوكل للعلـوين ، فان كربـلا تطـورت وتوسعـت بمـرور الزمن .

ففي سنة ٢٣٦ هـ أمر المتوكل بهدم قبر الحسين وهـدم ما حولـه من المنـازل والدور وأمر ان يبذر ويسقى موضع قبره ، ومنع الناس من اتيانه[3] .

ولما تولى ولده المنتصر في تلك السنة عدل عن سياسة أبيه في معاداة العلويين ، وأمر الناس بزيارة قبر علي والحسين واهتم بعمارة المشهد[4] .

وعنى بعمارة المشهد كذلك سنة ٢٨٣ هـ محمد بن زيد بن الحسـن الملقـب

(١) المجلس ـ بحار الانوار ـ ٤٥/ ٢٨٩ .
(٢) الشيخ الطوسي ـ الامالي ـ ص ١٤٨ .
(٣) ابن الأثير ـ الكامل ـ ٥/ ٢٨٧ .
(٤) المصدر نفسه/ ٥/ ٣١١ .

بالداعي الصغير وكان قد ملك طبرستان بصراحية الحسن الملقب بالداعي الكبير مدة عشرين سنة[1] . فشيد محمد بن زيد للحائر بعد اخيه المقدس قبة عالية لها بابان ومن حوله سقيفان . ثم عمر السور من حول الحائر وبنى المساكن ، وأجزل العطاء على سكان المنطقة ومجاوري الروضة . وقد بالغ محمد بن زيد في فخامة البناء وحسن الزيارة ودقة الصنعة في عمارة الحائر ، بما يتناسب ومنزلة الراقد الكريم[2] .

في حين بذل عضد الدولة البويهي (٣٦٧ هـ - ٣٧٢ هـ) أيام خلافة الطائع (٣٦٣ هـ - ٣٨١م)[3] عناية فائقة في تشييد ضريح لدفن الامام الحسين مقام في وسط صحن واسع ، زينت قبته فالفسيفساء ، وأقيمت بجانبها مئذنتان مزخرفتان بالفسيفساء أيضا .

وعلى مسافة قليلة من شرقي الصحن الحسيني أنشأ عضد الدولة ضريح أخيه العباسي الذي قتل معه يوم العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ[4] غلفت قبته بالذهب الآن وفي جانبيها أقيمت مئذنتان مطليتان بالذهب أيضا ، في وسط صحن فسيح واسع مربع الشكل وتزينه أشرطة كتابية ، تتضمن آيات قرآنية قد رسمت حروفها بخط الثلث أما - أسفله فأحيط بوزرة جميلة في وسط وأعلاه من الفسيفساء .

وعلى بعد سبعة كيلومترات من كربلا غربا يقع قبر الحر بن يزيد الرياحي ، وكان قد استشهد مع الحسين (رضي) يوم العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ . ودفن انى قتل[5] .

---

(١) محسن الامين العاملي - أعيان الشيعة - ٤/ ٣٠٦ .
(٢) الشيخ محمد السماوي - مجال الطف - ص ٣٩ - ٤٠ .
(٣) الذهبي - دول الاسلام - ١/ ٢٢٤ وما بعدها .
(٤) ابن الاثير - الكامل - ٤/ ٢٨٧ .
(٥) د . عبد الجواد الكلدار - بقية النبلاء في تاريخ كربلا - ص ١٦٠ .

ويبدو بعد عمارة عضد الدولة البويهي لهذه المراقد ، واهتمامه بها ، ان الحياة اخذت تدب الى كربلا فازدهرت عمرانيا واقتصاديا وثقافيا .

٣ ـ الكاظمية :

كانت في منطقة الكاظمية تنتشر المقابر ، كمقبرة الشوبنزي الصغير ، والى الجنوب منها تقع مقبرة أخرى تعرف باسم مقبرة الشوينزي الكبير وأشهر من دفن فيها السري السقطي والجنيد البغدادي[1] .

ويبدو أن أبا جعفر المنصور بعد انتهائه من بناء بغداد عام ١٤٩ هـ اقطع مقبرتي الشوبنزي المجاورة لمدينة بغداد من الشمال فجعلها مقبرة سماها (مقبرة قريش)[2] ، وربما اختار هذا الاسم ليشير بذلك الى مشاركة العلويين والعباسيين والاسر القرشية الاخرى بالدفن قبلها .

وأول من دفن فيها جعفر وهو ابن الخليفة المنصور سنة ١٥٠ هـ وفي سنة ١٨٢ هـ دفن فيها الامام أبو يوسف تلميذ الامام أبو حنيفة ، والمعروف أن أبا يوسف تولى القضاء في بغداد سنة ١٦٦ هـ وكان أول من دعي قاضي القضاة في الاسلام . ولا يزال قبره ملاصقا لسور المشهد الكاظمي من جهة الشرق قرب باب المراد . وفي سنة ١٨٣ هـ دفن فيها الامام موسى الكاظم بن الامام جعفر الصادق وهو سابع أئمة الشيعة الامامية ، ودفن فيها أيضا الامين في سنة ١٩٨ هـ ومن بعده دفنت أمه زبيدة الى جواره ، وفي ٢٢٠ هـ توفي الامام محمد الجواد بن الامام علي الرضا وهو الامام التاسع من أئمة الشيعة الامامية ودفن مع جده موسى الكاظم . وقد احتوت هذه المقبرة أيضا على قبور كثير من الوزراء والأعيان والسادة والعلماء[3] .

---

(١) الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ـ ١/ ١٢ .

(٢) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ٤/ ١٠ .

(٣) الشيخ محمد حسن آل ياسين ـ مقابر قريش ـ مقال في مجلة الاقلام العراقية ١٤٨/٢٠ .

ومن ذلك التاريخ أصبح قبر الامامين مزارا لطائفة الشيعة على الاخص كما صار مكانا يجتمع فيه المحبون والمؤيدون لآل علي في مواسم الزيارات الخاصة ، والاجتماعات العامة التي تعقد في العشرة الاولى من المحرم ، حتى مجيء البوهيين حكاما في بغداد ، فأقاموا ضريحا على تربة الامامين ، ومن هذا التاريخ بدأت الهجرة العلوية والشيعية تنساب نحو ذلك الضريح ، فأقيمت المنازل والدور حوله ، حيث بدت تباشير قيام مدينة آخذة بمرور الزمن في النمو والاتساع ، أطلق عليها اسم الكاظمية نسبة الى الامام موسى الكاظم[1] .

والمشهد الكاظمي القائم اليوم من انشاء الشاه اسماعيل الصفوي (٩٠٧ هـ - ٩٣٠ هـ)[2] ، كما تدل الكتابة القائمة حول المشهد وتاريخ انتهاء البناء في سنة ٩٢٦ هـ ، وقد اعتنى الصفويون (٩٠٧ هـ - ١٢٠٠ هـ)[3] بشكل خاص في بناء هذا المشهد فأقاموا على قبر الامامين قبتين مغشيتين بالذهب وأربعة مآذن . كما غلفوا الحضرة من الداخل بوزرة رخامية وبلطوا الارضية بالرخام أيضا ، في حين اعادوا بناء سور الصحن وغلفوه من الداخل بالقيشاني المزخرف وزينوه من الاعلى بشريط كتابي يتضمن آيات قرآنية بالخط الفارسي على أرضية نباتية . وأقاموا أيضا أربع أروقة تحيط بالمشهد من جهاته الاربع ويبلغ عرض الرواق خمسة أمتار . وفي عهد الشاه عباس الاول (٩٨٩ هـ - ١٠٣٨ هـ)[4] الصفوى ، الحق بالضلع الشمالي للحضرة الكاظمية مسجدا جامعا يتسع لعدة آلاف من المصلين يسمى الآن بالمسجد الصفوي ، حيث تقام به صلاة الجماعة في كل جمعة . كما حاول العثمانيون (٦٩٩ هـ - ١٣٤١ هـ)[5] بذل العناية بهذا المشهد الكريم فقد أمر السلطان سليم

---

(١) ياقوت - المصدر السابق - ٤/ ٢١٥ .
(٢) ، (٤) زامباور - معجم الانساب والاسرات الحاكمة - ص ٣٨٨
(٣) زامباور - معجم الانساب والاسرات المالكة - ص ٣٨٨ .
(٤) المصدر نفسه - ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

الثاني (٩٧٤ هـ - ٩٨٢ هـ)[1] بنـاء مئذنـة جديدة اضافـة للمآذن الاربعـة التـي شيدها - كما أشرنا - الصفويون بأمر الشاه اسماعيل الصفوي .

وعلى العموم فقد نشأت بمرور الزمن حول هذه الاضرحة - التي ذكرناها آنفا - ثلاث مدن هي النجف وكربلا ، والكاظمية ، سأتحدث عنهـا معـا ، لأن ظروف انشائها واحدة والعوائق التي حالت دون خضوعها لتخطيط واحد متماثلة .

---

(١) المصدر نفسه - ص ٢٣٩ .

جـ ـ نشأة النجف وكربلا والكاظمية كمدن دينية

يجدر ما قيل التحدث عن نشأة هذه المدن أن الغت النظر الى أن الفترة المحدودة لدراستنا لم تنل فيها تلك المدن ما تستحقه من تنظيم ، فقد كانت السلطات الأموية كما أشرنا سابقا ـ لا تسمح بزيارة تلك القبور ، وتعترض سبيل كل من رغب السكن بجوارها ، وبعده جاء العباسيون من مطلع الخليفة هرون الرشيد (١٧٠ هـ ـ ١٩٣ هـ) بدأ نوع من التيسير كان يقف عند حدود الجانب الديني فقط ، اذ جاز لنا أن نتخطى العصرالمحدد لهذه الرسالة فاننا سنصادف تخطيطا دقيقا لهذه المدن وبخاصة في عهد البويهيين (٣٣٤ هـ ـ ٤٤٧ هـ) ولعله يكون من الأوفق أن نمتد بدراستنا قليلا لنرى مدى ما وصلت اليه هذه المدن من تطورعمراني ـ ولنبدأ حديثا خاصا يتصل بنشأة كل منها وتطور ناحيتها العمرانية فيما يلي .

١ ـ النجف :

ترتبط نشأة وتطور مدينة النجف بضريح الامام علي (كرم الله وجهه) ، فقد كانت زيارته ونقل الموتى اليه من قبل المسلمين سببا في أن يصبح الموضع قطب جذب بشري ، فهاجرت اليه جماعات اسلامية وأخرى علوية نشأ من تواجدهم مستوطن صغير حول الضريح أيام هرون الرشيد والمأمون كان محيطه (٢٥٠٠ م) ، الا أن المتوكل منع الزيارة والسكن ، وفي ٢٤٧ هـ هدم الضريح والمنازل والدور ، غير أن

ابنه المنتصر الذي أعقبه بالخلافة عدل عن سياسة أبيه في معاداة العلويين ، فأمر الناس بزيارة القبر الذي أعـاد بناءه وأهتم بعمارة المشهد[1] . ومن ذلك التاريخ أخذ العلويون وشيعتهم يتوافدون على المشهد وينشئون الدور حوله ، فتلاحقت العمارة المدنية والدينية بتوالي الايام ، حتى لم ينقض القرن الرابع والهجري ، الا وفي النجف من السادة العلوية ما يقرب من ألف وتسعمائة عدا غيرهم من المسلمين ، كما نرجع للبويهيين أسس قواعد المرقد المعظم وبناء المساجد والدور لمن جاور الضريح من المسلمين والعلويين ووصلوهم بالأموال الكثيرة والهبات الثمينة ، وأحاطوها بالأمن ، ونظروا الى أهلها بعين التجلة والاحترام[2] .

وفي العهد العباسي الأخير (٥٥٠ هـ - ٦٥٦ هـ) اعتنى الخليفة الناصر لدين الله العباسي (٥٧٥ هـ - ٦٢٢ هـ) عناية فائقة بمدينة النجف ، فقد شملت المدينة حركة عمرانية واسعة كترميم وتعمير المشهد وبناء المساجد وتوسعتها كما أمر الخليفة باقامة عدد من المدارس الدينية أيضا ، فكانت - على حد تعبير ابن جبير - مدينة منفسحة متسعة للعين فيها مراد واستمتان وانشراح[3] .

الا أن تطور النجف من حيث العمران وازدحام السكان وانشاء دور العلم كان في نهاية القرن السابع والثامن الهجري في عصر السلطة الالخانية والجلائرية في العراق ، فقد بذلت هاتان السلطتان مجهودا في تعمير المدارس وأقامت الخانقاوات (التكايا) كما أجروا اليها الانهار وأدوار الارزاق والاعاشة على من حل بها ، فأصبحت - على حد تعبير ابن **بطوطة** - مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناسا واتقنها بناءً ولها أسواق حسنة نظيفة كسوق البقالين والعطارين والبزازين ، وتوجد حول الضريح أيضا المدارس والزوايا والخانقاوات

---

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ٤/ ١٧٥ .
(٢) ابن مسكويه - تجارب الامم - ٦/ ٤٠٥ .
(٣) ابن حبير - الرحلة - ص ١٦٧ .

معمورة أحسن عمارة وحيطانها مزينة بالقاشاني الملون[1] .

ويبدو أن هذا المجمع العمراني الذي وصفه ابن بطوطة في تصوري يحتشد حول الضريح على شكل استطالة بسبب خصائص الموضع ، تخترقه مسالك ودروب ضيقة موزعاً ـ على ما يدعى محيويه[2] ـ على شكل محلات أربع لم تكن منتظمة ولا متميزة تنتسب كل واحدة منها الى عالم من الاعلام أو أثر مشهور ، وهذه المحلات هي :

أولا : محلة العلا التي تشغل الزاوية الجنوبية الشرقية من الصحن وتسمى الآن بمحلة المشارق .

ثانيا : محلة العمارة ـ وتقع شمال محلة (العلا) وتشغل الزاوية الشمالية الشرقية من الصحن . وهي أكبر محلات النجف القديمة .

ثالثا : محلة الحويش ـ وتقع غرب محلة العمارة وتطل على الزاوية الشمالية الغربية من الصحن وهي أصغر محلات النجف القديمة .

رابعا : محلة البراق ـ وتقع جنوب محلة الحويش وغرب محلة (العلا) وتشرف دورها ومنازلها على الزاوية الجنوبية الغربية من الصحن وهي ـ على ما يعتقد محبوبة[3] ـ أحدث محلات النجف القديمة . وكان يفصل بين محلة وأخرى سوق كبير .

وبمرور الزمن أصبحت النجف التي حلت محل الكوفة من أمهات المدن العراقية وذلك لطابعها الديني والثقافي المميز عن باقي المدن العراقية ، كما أن لها

---

(١) ابن بطوطة ـ الرحلة ـ ص ١٧٦ .
(٢) ماضي النجف وحاضرها ـ ١/ ٧٧ .
(٣) المصدر نفسه ـ ١/ ٧٨ .

شهرة تجارية وصناعية لا تقل أهمية عن المدن الكبرى في العراق كبغداد والموصل والبصرة وكركوك .

٢ - كربلا :

لم تكن كربلا في القرن الأول الهجري عامرة مع ما كان في نفس العلويين وشيعتهم من شوق ولهفة في مجاورة قبر الحسين (رضي) فلم يتمكنوا من اتخاذ واقامة العمران خوفا من سلطان بني امية .

ويبدو أنها أخذت بالتقدم في اوائل الدولة العباسية ، فأخذ الناس يتوافدون على زيارة القبر ، كما أخذ بعضهم يستوطن تلك التربة المقدسة أو يوصي بدفنه هناك ، وعلى الرغم من مقاومة ومعارضة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمتوكل فان كربلا تطورت وتوسعت كما سترى - بمرور الزمن .

ففي ٢٤٧ هـ أمر المتوكل بهدم قبر الحسين وهدم ما حوله من المنازل والدور كما أمر ببذر وبسقي موضع قبره ومنع الناس من اتيانه[١] - الا ان المنتصر الذي خلف اباه في الحكم أعاد بناء القبر واهتم بعمارات المشهد وعدل عن سياسة أبيه في معاداة العلويين كما أشرنا وسمع للعلويين وشيعتهم بزيارة القبر ومجاورته في السكن لمن يرغب « فأخذ العلوين والمسلمون في أيام المنتصر يتوافدون الى كربلا ويعمرونها . وكان أول علوي سكنها هو تاج الدين ابراهيم المجاب حفيد الامام موسى بن جعفر وقد وردها في حدود ٢٤٧ هـ[٢] . فاتخذت الدور عند رمسه ، وقامت القصور والاسواق حوله ولم يمض قرن من الزمان الا وحول قبره الشريف مدينة صغيرة بها آلاف الناس[٣] .

(١) ابن الاثير - الكامل في التاريخ - ٤/ ١٧٥ .
(٢) الزركلي - الاعلام - ١/ ١١٣ .
(٣) السيد محسن الامين العاملي - اعيان الشيعة - ٤/ ٢٩٧ .

وفي العهد البويهي زارها عضد الدولة بن بويه سنة ٣٧٠ هـ وكانت كربلا مدينة عامرة بالسكان وعدد من جاور الضريح في ذلك العهد من العلويين فيها ما يربو على ألفين ، ومائتي نفس ، فأجزل لهم العطاء وأطلقت الصلات لأهل الشرق والمقيمين في كربلا والنجف ، فاشترك ـ على ما يذكر بن مسكويه[1] ـ الناس في الزيارات والمصليات بعد عداوات كانت تنشأ بينهم ـ هذا اضافة الى تعمير ضريحي الحسين وأخيه العباس . وفي سنة ٤٠٢ هـ واصل فخر الملك البويهي الصدقات والحمول الى مدينة كربلا فغرق على أهلها الثياب والتمور وأجزل عليهم العطاء[2] .

وقد ازداد عمرانها في القرن السابع والثامن الهجري وبخاصة أيام الجلائرين فكانت ـ مدينة صغيرة مساحتها ـ على ما يقرر المستوفي[3] ـ الفين وأربعمائة حطوة (متر مربع) تحفها ـ على ما يذكر ابن بطوطة[4] ـ حدائق النخيل ويسقيها ماء الفرات والروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر وعلى باب الروضة الروضة الحجاب والفومة لا يدخل أحد الا عن اذنهم وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة وعلى الابواب استار الحرير .

ويبدو ان مدينة كربلا ـ كما وصفها ابن بطوطة ـ كانت تحتوي على محلتين تحتشدان حول الجوانب الشمالية والشرقية والجنوبية الضريحين الامامين الحسين والعباس تتخللهما مسالك ودروب غير سالكة أحيانا وتنتشر فيهما المساجد والمدارس والاسواق . ويأخذ هذا التشكيل العمراني المحتشد بجوار الضريحين شكل الاستطالة .

---

(١) تجارب الامم ـ ٦/ ٤٠٧ .
(٢) على ابن الجوزي ـ المنتظم ـ ٨/ ١٠٥ .
(٣) المستوفى القزويني ـ نزهة القلوب ـ ص ٢٠٧ .
(٤) ابن بطوطة ـ الرحلة ـ ص ١٣٩ .

وهاتين المحلتان هما :

اولا : محلة آل زحيق ـ وتشغل الجانب الشمالي والشرقي من الحضرة الحسينية ولا تزال باقية الى اليوم وتسمى الآن بمحلة السلالمة وباب الطاق والمخيم .

ثانيا : محلة آل فائز ـ وتنتشر دورها في المساحة المحصورة بين الضريحين وتشغل دورها الجانب الشرقي والجنوبي من الحضرة العباسية وتسمى اليوم بمحلة باب بغداد وباب الخان .

وكان الجانب الغربي من الضريحين تشغله رحية واسعة تحدها من جهة الغرب البساتين والحقول تستعمل في معظم الاوقات لايواء الابل والخيل وتستغل احيانا لمبيت الزوار عندما تزدحم المدينة بهم في أثناء الزيارات المخصوصة كزيارة يوم عاشوراء والاربعينية والعبدين .

والخلاصة :

ان كربلا لم تكن قبل الفتح الاسلامي بلدة تستحق الذكر ، ولم يرد ذكرها في التاريخ الا نادرا ، فهو يحدثنا عنها انها كانت قرية بسيطة عليها مزارع وضياع لدهاقين الفرس ، وكان سكانها أهل حراثه وزراعة ، الى أن وردها الحسين بن علي في يوم الخميس الثاني من المحرم سنة ٦١ هـ أيام يزيد الاول (٦٠ هـ ـ ٦٤ هـ) ثائرا ، ولقي مصرعه فيها يوم الجمعة العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ[١]فسلط التاريخ نتيجة هذه الحادثة المؤلمة اضواءه عليها ، وأصبح حديثه هذه المرة ذا شجون ، فهو يحدثنا عن أعظم مأساة عرفتها البشرية في تاريخ الانسانية .

ومن ذلك الوقت ذاع صيتها وأصبحت محط رحال ، ومحطة تجارة وقوافل نظرا

(١) الذهبي ـ دول الاسلام ـ ١/ ٤٥ وما بعدها .

لاهمية موقعها الديني والجغرافي الغني بالحاصلات الزراعية المتنوعة ، فنالت بذلك شهرة واسعة ملأت الآفاق في العالم الاسلامي ، فأقبل النـاس من كل مكان على زيارتها والسكنى فيها وحتى أصبحت مع الزمن من أمهـات المدن العـراقية قديمـا وحديثا .

٣ ـ الكاظمية :

ترتبط نشأة مدينة الكاظمية بالمشهد الكاظمي الذي اشتهر بمشهد باب التبن نسبة الى باب التبن الذي كان في شرقيه مما يقرب من نهر دجلة(١) ، وباب التبن محلة كبيرة كانت بالكاظمية على الخندق بازاء قطيعة أم جعفر وكان الموضع يلتصق بمقابـر قريش التي فيها قبر موسى الكاظم ومحمد الجواد ، وقـد عرفـت محلـة باب التبـن بالزهيرية نسبة الى قطيعة زهير بن محمد الابيوردي ، وزهير رجل من الازد من عرب خراسان من أهل أبيورد(٢) . ويتصل باب التبن من الجنوب ربض أبو حنيفة أحد قواد المأمون ، وقريب من ذلك الريض محلة الحريم الطاهري التي تقع بالقرب من الخندق الطاهري المنسوب الى طاهر بن الحسين قائد جيش المأمـون ، كما تتصـل بريض أبو حنيفة من جهة المغرب قطيعـة تدعـى دار عمارة منسوبـة الى عمارة بن حمزة(٣) .

ولم يأت عهد البويهيين الا وقد استكملت المدينة خططها العمـرانية حول المشهد وكان فيها ستة محلات محتشدة حول لمشهد من جميع جهاته تتصـل بعضهـا ببعض ، وتنتشر فيها الأسواق والمساجد وتخترقها مسالك ودروب ضيقة(٤) ، وهذه

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ٢/ ١١٤ .
(٢) د . مصطفى جواد وأحمد سوسه ـ دليل خارطة بغداد ـ ص ١٠٤ .
(٣) ابن عبد الحق البغدادي ـ مراصد الاطلاع ـ ٢/٥٠٢ .
(٤) المصدر نفسه ـ ٢/ ٥٠٤ .

المحلات الست هي :

أولا : المحلة الحربية ـ تشغل هذه المحلة الجانب الشمالي والشمالي الشرقي من الحضرة ، وقد عرفت هذه المحلة سابقا بمحلة باب التبن .

ثانيا : المحلة الرملية ـ وكانت هذه المحلة تقع على الحد الجنوبي من محلة الحربية حيث تشغل الجنوب الشرقي من الضريح وقسما من الجنوب .

ثالثا : المحلة العتابية ـ وتقع الى الجنوب من المحلة الرملية وقد اشتهرت في جميع الاقطار الاسلامية بصنع ثياب مشهورة أطلق عليها العتابية ، وهذه الثياب كانت تنسج من حرير وقطن في ألوان مختلفة ، وقد دعت بالعتابية نسبة الى أحفاد عتاب الصحابي الذي كان عاملا على مكة أيام الخليفة أبي بكر .

رابعا : محلة جهاروسوج ـ وتقع الى الشمال من محلة العتابيين ، حيث تنتشر في الجانب الجنوبي الغربي وقسم من الجانب الغربي من الحضرة وهي محلة كبيرة ذات أربعة مناطق .

خامسا : المحلة النصيرية ـ وتنتشر بيوتها ومنازلها على الجانب الغربي من الحضرة وتلتحم منازلها بمنازل المحلة الحربية .

سادسا : محلة دار القز ـ وكانت هذه المحلة في طرف الصحراء على مسافة فرسخ من المدينة ، وكان يصنع فيها الورق الذي اكتسب شهرة في جميع أطراف المشرق .

وعلى العموم فقد تبلورت المدينة بتجمع السكان والمؤسسات والمساجد والمدارس والحمامات حول هذه المقبرة الدينية ، فأصبحت محط رجال وترحال للزوار من المسلمين وغيرهم ، والمدينة الآن مركز قضاء مهم يرتبط بمحافظة بغداد .

القسم الثاني

عوامل تطور مدن هذا العصر

تمهيد

احتضن العراق الانسان منذ القدم فوفر له المأوى ووسائل الاستيطان من الكهف الى القريه ثم المدينة .

وان اية محاولة لتصنيف مدن العراق سواء من حيث المنشأ أم الوظيفة او البنية ، يجب أن نأخذ العامل الزمني بنظر الاعتبار .

فمن حيث المنشأ ظهر أن مدن العراق ترجع الى أصول متباينة ، فقد ساهمت في تأسيسها جماعات بشرية مختلفة وحضارات متعددة كالحضارة السومرية والبابلية والآشورية واليونانية والرومانية والعربية الاسلامية .

ومن حيث الوظيفة التي قدمتها مدن القطر عند نشأتها ، فقد ظهر ان هذه المراكز الحضرية قد أسست لاغراض مختلفة ، كالعسكرية والادارية والسياسية والدينية .

أما البنية فتبرز في ذلك التغيير الشامل في خطط المدن وتطورها ذلك التطور الذي ابتداء منذ مطلع الخلافة العباسية ثم ظهر بشكل أوضح في العصور التالية ، فقد حل الشكل المفتوح المتناثر محل الشكل الدائري المحتشد ، والشوارع الواسعة المستقيمة عوضت عن الازقة الضيقة الملتوية واصبحت المدينة القديمة مطوقة بأبنية حديثة ، وفقدت المدن القديمة بمرور الزمن كثيرا من خصائصها الأخرى خلال عملية تطورها .

ولا بد من الاشارة هنا الى أن الأصول الوظيفية الأولى التي من أجلها وجدت المدن ، قد اصابتها عدة تحولات في فترات تاريخية مختلفة فرضتها ظروف تلك الفترات ، فلم تعد المدن العسكرية وبخاصة الاسلامية في العراق تحتفظ بهذه الوظيفة لانتفاء الحاجة اليها لذلك فقد عوضت عنها بوظائف أخرى اعتمدت عليها تلك المدن ببقائها وتطورها .

والمدينة كغيرها من الظواهر التاريخية تنمو تبعا لحاجات وقدرات خاصة فهناك عدة عوامل تؤثر على شكل المدينة وتحدد بنيتها هي العوامل الجغرافية والفنية والاجتماعية والاقتصادية .

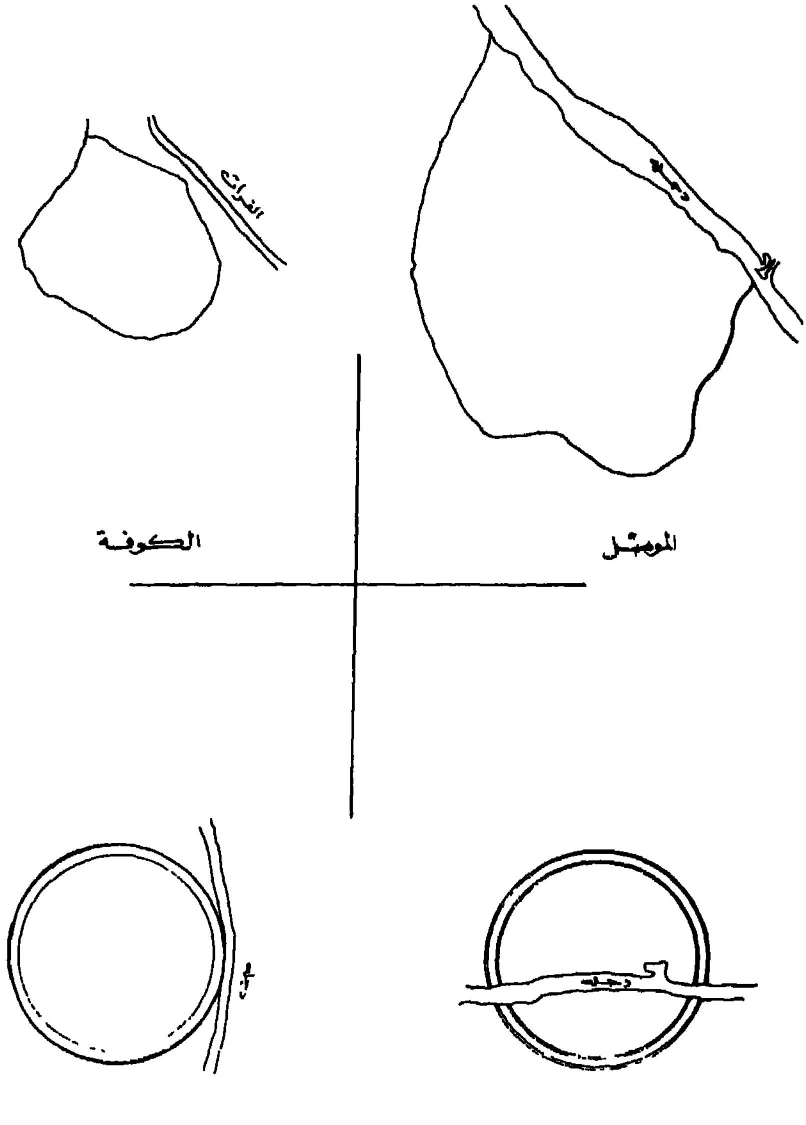
العامل الجغرافي يتحدد باختيار المواقع المفضلة ذات المناخ الحسن وقريبة من الماء والمحتطب ، وهذا ما حدث بالفعل في انتفاء مواضع كل من الكوفة والموصل وواسط وبغداد وسامراء ، اما البصرة فكانت حسنة الموقع لما يتطلبه الوضع العسكري يومذاك لكنها سيئة المناخ . وكانت بنية هذه المدن وشكلها تتأثر بتضاريس الموضع الذي تقام عليه(١) .

والعامل الفني يتحدد بالشكل الذي اتخذته خطط المدن الاسلامية في العراق ، ويبدو أن الشكل على تخطيط المدن الاسلامية هو الشكل المستدير (شكل ٤) . كما هو الحال في تخطيط الكوفة والموصل وواسط وبغداد ، اما البصرة وسامرا فيغلب على شكلها الاستطالة (شكل ٥) . وكان اثره واضحا في تطور المدن الاسلامية في العراق من حيث امتزاج الفنون المعمارية المحلية بالفنون الوافدة كالساسانية والبيزنطية .

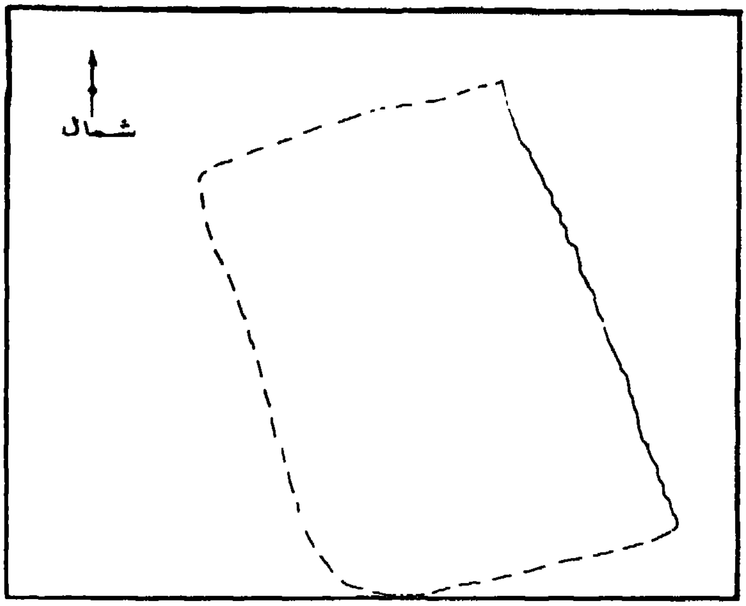
ويبدو تأثير العامل الاجتماعي العربي القبائلي الذي تميزت به المدن الاسلامية

---

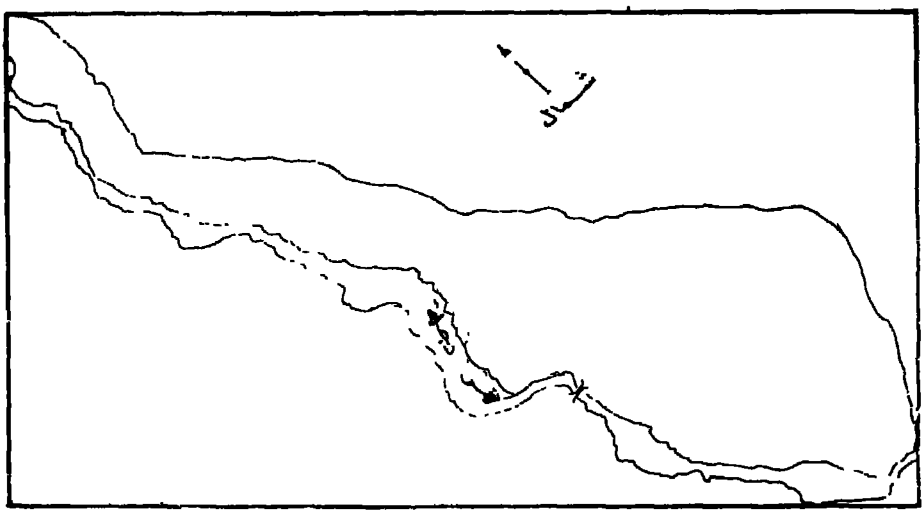
(١) Pierre , Favidana : Geographie des Velles P. 241



شكل (٤)



البصرة



سامراء

شكل (٥)

في العراق وبخاصة البصرة والكوفة والموصل وواسط في تركيب الاحياء السكنية ، فكان لكل عشيرة او قبيلة في خطط المدينة حي خاص بها ، وبهذه الطريقة اصبح لكل حي او محلة وحدة ادارية مستقلة او شبه مدينة . ان ظاهرة التكتل هذه يمكن ان تفسر أيضا على تسهيل الادارة وجمع الضرائب من السكان ،فقد كان من المقنع ان تصبح كل جماعة مسئولة بالاجماع عن منطقتها برعاية احد الاشخاص البارزين . اما بغداد فقد كان التكتل الاجتماعي فيها على شكل قطاعات تفصل بينها طرق عريضة تقسم المدينة على اربعة أرياض ، كما كان التكتل الاجتماعي في سامرا على شكل قطائع تفصل بينها شوارع عريضة منتظمة تمنح للقواد الاتراك وغيرهم يتجمع حولها سكان المدينة .

أما العامل الاقتصادي فكان أثره واضحا في تطور المدن ، اذ تتطلب المدينة ظهيرة او اقليم من الارض المنتجة لكي تبرر وجودها ، كما هي الحال في مدن الكوفة وواسط وبغداد والموصل وسامراء ، اما البصرة فقد برر استمرارية نموها في جنوب العراق تشعب الطرق التجارية المائية منها البرية ، في حين كانت المهن اضافة الى النشاط التجاري بها اثر كبير في نشأة واقامة عديد من الاسواق والمحلات الحرفية والتجارية في داخل المدن وخارجها مثل اسواق ومحلات بغداد والبصرة والكوفة وسامرا والموصل .

ستتحدث بالتفصيل عن هذه العوامل واثرها في تطور ونمو المدن الاسلامية في العراق بالفصول التالية : ـ

الفصل الأول

العامل الجغرافي

١ ـ تمهيد .
٢ ـ الموضع .
٣ ـ الموقع .

تمهيد

العامل الجغرافي يعني دراسة المكان باعتباره سكنا للانسان ، على ان يكون الانسان المحور الذي تدور عليه دراسة هذا العامل ، ويعني ذلك أن عناصر المظهر الارض لا تستمد أهميتها الا بقدر علاقتها بالانسان .

حقيقة أن نشأة المدينة وتطورها في الاصل من عمل الانسان ولكن الظروف الطبيعية في البيئة التي يعيش فيها الانسان ، هي الحافز الأول والملهم الذي جعله يفكر في بنائها سواء كان ذلك في الماضي أم في الحاضر . ويبدو ان الطبيعة ـ على حد تعبير فيدال لابلاش[1] ـ تهييء المكان والانسان يكيفه لمدينته لكي تنمو وتزدهر .

وتعتبر المدينة في بيئتها الجغرافية كائنا حيا مثلها كمثل الكائنات العضوية الأخرى يختار نوعا من الانتخاب الطبيعي ، ولذلك فان المدن القائمة الآن هي التي أثبتت أنها أجدر بالبقاء ، فهي تولد وتنمو وتزدهر ، ويتوقف مدى رقيها وازدهارها على درجة الحضارة التي يعيش فيها سكانها وهم يجنون في أثناء هذه الحياة آثار العوامل الجغرافية والعوامل البشرية التي تندمج في حياة مدينتهم . فالطبيعة تحاول فرض نفسها على المدينة والانسان يتجه الى تكييف نفسه ومدينته لهذه العوامل ، ويبدو أثر الطبيعة في شكل المدينة الهندسي وفي وظيفتها ومظهرها الخارجي ، ولذلك

---

(١) Principles of human Geography transporatation : P.27

فان درجات اندماج هذه العوامل كلها في حياة المدينة تظهر في عدة مراحل تجعل المدينة تتخذ في كل مرحلة درجة معينة من النضوج او سلما معينا في حياتها الطويلة .

وتبدو المدن العربية الاسلامية انها ناضجة فهي تعطينا فكرة واضحة عن الصلة بين الانسان والمكان ويظهر في حياتها وشكلها وسلم التطور الطويل فيها فنجد صفة القدم والجودة تبدو في احيائها المختلفة كما يبدو لكل حي من أحيائها طابعه الخاص .

ويلاحظ أيضا أن العوامل الطبيعية قد ظهرت بجلاء في المدن العربية الاسلامية على الروابي وضفاف الانهار وامتدت آثارها في اثناء نمو تلك المدن عموديا أو أفقيا .

ولهذا يتبين لنا أن مخططي المدن العربية الاسلامية ومنشئيها قد أقاموا مدنهم بذكاء في مواضع ومواقع تتأكد فيها بصورة واسعة النطاق ـ جوانب الموارد والثروة المتمثلة بالتربة الخصبة والطرق المتعددة والمناخ الحسن والمياه الغزيرة وخامات البناء الوفيرة .

ويفرق جغرافيو المدن بين مصطلحين هما الموضع والموقع (١) فيعني المصطلح الاول الصفات الطبيعية للمكان الذي تمثله المدينة من حدودها ، وبمعنى آخر أنه يمثل العنصر الطبيعي الذي تحدده البقعة التي نهضت فوقها المدينة ، وهي التي تكون عونا لها ، لكي تبقى على الدهر نامية مزدهرة ، وذلك اذا ما حالف التوفيق اختيارها لما تمتاز به من مزايا محلية واقليمية . ويعني الثاني جميع الارتباطات الاقتصادية

---

(١) Mayer H, M : Editors , Reading in the Urban geography P. 265 .
Gibbs : jack : - Editors urban Research Method P.324 .
G. Chabot : Urban Geography P.236 .

والاجتماعية والحضارية بين المدينة والمناطق المحيطة بها او اقليمها ، وبعبارة اخرى يشمل الموقع على جميع الارتباطات المكانية بين المدينة والمناطق الأخرى ، ويبدو أن بعض نواحي نشاط المدن على الأقل قد اوحت وادت اليها المميزات الطبيعية والظروف الجغرافية لبعض المواقع في مجالها الأكثر اتساعا . كما يلقي موقع المدينة في علاقاتها بالموارد المحلية وامكانياتها الزراعية وسهولة المواصلات والنقل سواء عن طريق البر أم الماء بعض الضوء على اهميتها ونواحي نشاطها الاقتصادي .

وعلى هذا الاساس تمثل المدن العراقية وبخاصة العربية الاسلامية مواقع متباينة نتيجة لتأثرها بعوامل وضوابط طبيعية واجتماعية واقتصادية وتاريخية متداخلة ، ولا شك ان للعوامل الجغرافية كالموضع والموقع مكانة مميزة بين العوامل التي تقرر صلاحية المدينة للبقاء .

ففي ضوء ما تقدم يبدو ان التطور الفني والاجتماعي والاقتصادي للمدن يرتبط كل الارتباط بعنصرين جغرافيين هما : الموضع والموقع اللذان اتحدث عن اثرهما في تطور المدن الاسلامية في العراق فيما يلي :

٢ ـ الموضع

الموضع فكرة محلية موضعية بحتة ، تنصرف الى رقعة الأرض التي تقوم عليها المدينة المختارة مباشرة ، لذلك تؤثر الملامح الطبيعية كالانهار والمناخ لاي موضع منتقي للاستيطان البشري في نمو وازدهار المدن على مر العصور .

فمن حيث الانهار نلاحظ المدن تحاول باصرار أن تطل عليها ، أو أن الانهار ـ على ما يذكر كولي[١] ـ تجتذب المدن اليها ، لذلك نرى المدن قد نشأت وتطورت على شواطيء دجلة والفرات ، كما نشأت أيضا على ضفاف النيل منذ القدم وحتى مطلع العصر العربي الاسلامي أيام الراشدين وأيام الأمويين والعباسيين ، حيث جذبت شواطيء دجلة والفرات العرب لاقامة مدنهم عليها أو بالقرب منها .

حقيقة قامت البصرة والكوفة والموصل ـ كما أسلفنا ـ في مواضع هامشية ولكنها لم تكن بعيدة عن المياه ، فالبصرة قريبة من شط العرب واشتهرت في كل الأزمنة بانهارها ، وبعد نهر معقل الذي حفره الصحابي معقل بن يسار ايام امير المؤمنين عمر أهم أنهارها ، وهذا النهر ونهر الايله وهما يمتدان من البصرة نحو الجنوب الشرقي حتى يلتقيان بشط العرب الذي يغذيها بالمياه مصدر رخاء البصرة الاقتصادي والعمراني ، وكانت بساتين الابله وباقي انهار البصرة تسقي بالمد والجزر ، وهي

(١) Theory of transportation sosiological theory scc social research ; P.125

احدى جنان الدنيا الأربع[1] . كما كانت الكوفة لا تمتلك من الانهار غير قربها من نهر الفرات ، فهو مصدر ثروتها الزراعية والخارجية وبالتالي أدلتها ، فماؤه يغذي السهل الخصيب الذي يحيط بها شرقا وجنوبا وقد امتاز ماؤهما بعذوبته ونقاوته وبرده ، في حين كان ماء البصرة مالح أجاج ، وانما مثل الكوفة ـ على حد تعبير ابن قتيبة ـ مثل اللهاة من البدن يأتيها الماء ببرده وعذوبته ، والبصرة بمنزلة المثانة ، يأتيها بعد تغيره وفساده[2] . اما الموصل فيمونها بالمياه في بداية تكوينها نهر دجلة فهو الوحيد الذي يسقي الأراضي الزراعية التي تحيط بها شرقا وجنوبا ، وقد سعى اميرها الحر بن يوسف لشق نهر الى داخلها أكمله من بعده خالد بن تليد لأنها كانت تشكو من قلة المياه فيها[3] .

وكانت واسط تشكو في بداية أمرها من قلة المياه كالموصل ولم يكن غير دجلة يغذيها بالمياه من جهتها الشرقية كما تحيط بجهتها الغربية البادية بعدة فراسخ يسيرة ، ولعل هذا السبب هو الذي جعل الاصطخري لا يدخل المناطق القريبة من واسط ضمن العراق ، حيث انه جعل حدود العراق تطابق حدود المناطق المزروعة الآهلة ، فقد ذكر الاصطخري[4] : ان العراق عرضه بواسط من واسط الى قرب الطيب ، وطوله من وراء البصرة في الباديه على سواد البصرة وبطائحها الى واسط ثم على سواد الكوفة وبطائحها الى الكوفة . ومن اهم العوامل التي جعلت الأراضي في غرب واسط جرداء هي ان نهر الفرات في القرون الهجرية الأربعة الاولى لم يكن يخترقها كما هو الحال في العصور الحديثة ، فكان مجراه بعد اجتيازة منطقة الكوفة

(١) لتسرنج ـ بلدان الخلافة الشرقية ـ ص ٩٧ . وهذه الجنان هي ـ غوطة دمشق ، وشعب بوان بفارس ، ووادي الصفدين سمرقند وبخاري في بلاد ما وراء النهر .
(٢) عيون الأخبار ـ ٢/ ٢٢٠ .
(٣) الأزدي ـ تاريخ الموصل ـ ١٩٧ -
(٤) الاصطخري ـ مسالك المالك ـ ص ٨٢ .

يتجه شرقا حتى يصل الى قريب من دجلة في شمال واسط ، وكانت بعض ذنائبه تصب في بطيحة الكوفة التي تمتد في شمال منطقة واسط[١] .

وقد شغلت قلة المياه في واسط بال الحجاج فشرح بشق الانهار والجداول التي منها نهر الزاب وذلك لسقي الاراضي المحيطة بمدينة واسط ، وقد تم ، بعده حفر نهري فم الصلح والمبارك[٢] ، وهذا مما زاد المياه بواسط وبالتالي أدى الى خصوبة تربتها ، وهنا تظهر نظرة الحجاج وغيره من ولاة واسط الاقتصادية ورغبته في توفير المواد الغذائية والاستهلاكية بصورة دائمة لسكان واسط ، فاصبحت واسط ـ على حد تعبير ابن خلكان[٣] ـ جنة بين حماة وكنه ، البصرة والكوفة يحدانها . ودجلة والفرات يتجاذبان بافاضة الخير عليها .

وبغداد تتميز بخصوبة التربة وغزارة المياه لما يفيضه عليها نهرا دجلة والفرات ، فكان المنصور مدركا تماما للخبرات الاقتصادية والاستراتيجية لموضع بغداد كعقدة برية ونهرية ، ويكاد المنصور بنفسه يرسم خريطة لشبكة العلاقات المكانية لمدينته ، فهي على حد تعبيره ـ جزيرة بين دجلة والفرات ـ مشرعة للدنيا وتنصب فيها كل خيرات العالم اجمع من كل الجهات » [٤] ـ كما كانت المدينة وما تزال تستفيد من العلاقة بين مناسيب دجلة والفرات ، بسبب وجود عدة قنوات ورواضع تربطهما ، مما تزيد في خصوبة التربة وتشكل على ما اعتقد دروعا واقيه لصد الهجمات العدائية على المدينة .

وكانت سامراء تعتمد في تموينها من المياه على نهر الفاطول فقط ، ولكن المعتصم والمتوكل اهتما بفتح القنوات الى داخل المدينة لسقي الحدائق والبساتين ، في

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ٤/ ٥٦١ .
(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٣٥٥ وما بعدها .
(٣) وفيات الأعيان ـ ١/ ٢٣٠ .
(٤) اليعقوبي - البلدان ـ ص ٢٣٧ .

حين كان الجانب المقابل للمدينة كثير المياه والخيرات لذلك كان يعد المصدر الغذائي الوحيد لمدينة سامرا طيلة حياتها[1] .

أما المناخ فله دور في تطور المدن ونموها لا يقل عن دور مجاري المياه ، فقد حرص العرب على ان تكون مدنهم منشأة في مواضع صحية خالية من الحشرات وبعيدة عن المباق والهوام غير موبؤة ولا وخم فيها ، وان تكون مناظرها مما ترتاح له النفس[2] ، اذ ان التبيوء الاجتماعي ـ بالنسبة للعرب كان ملائما لسكني البصرة والكوفة والموصل وواسط وبغداد وسامراء ، مما أدى الى تتابع هجرات بشرية للاستيطان في هذه المدن نتج عنه تطورها بمرور الايام .

ويبدو ان هذا النمو المدني العربي الاسلامي في العراق يعني التقدم حضاريا فتوسع هذه المدن يرتبط الى حد ما بظاهرة صحية قد يرحب بها كدليل على التطور السياسي والنمو المادي والاقتصادي والرقي الثقافي في ذلك العصر ، وعلى هذا فان افضل المناخات التي تتصف بنمط فصلي متميز مع تقلبات دائمة للطقس ودفء وامطار بدرجة تسمح بقيام زراعة منتجة قد تساعد على قيام مدن في مواضع تتصف بهذا النمط من المناخات ، ولذلك فان مواضع المدن العربية الاسلامية المعتدلة في العراق كانت اكثر المناطق احتمالا من غيرها لان تشهد التطورات العظمى في الحركة المدنية العربية الاسلامية بكونها تخضع لنظام الطقس المتقلب الذي تفرضه الانخفاضات الجوية المتكررة ، كما يلاحظ من طرف آخر ان مراكز الحضارة العربية قد انتقلت الى مناخات معتدلة بعد ان كانت في مناخات مدارية أو شبه مداريه ومما يؤيد هذه الفكرة التي أشارت الى الحركة الحضارية نحو الشمال فمن صنعاء ومأرب وعدن الى الحيرة والحضر وتدمر وبطرا قبل الاسلام وفي الاسلام من المدينة ومكة

---

(١) ابن خرداذبة ـ المسالك والممالك ـ ص ٢٣٧ .

(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ٢/ ٢٢٣ .

والطائف الى البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة الى القسطنطينية ومن ثم الى باريس ولندن ، مثلما انتقلت في الماضي من بابل ومنفس الى اثينا ثم روما .

٣ - الموقع

الموقع هو المكان الحرج والنقطة الحساسة الحيوية على صفحة المظهر الارض بمعناه الطبيعي والبشري . وهو أهم عنصر جغرافي ترتبط به حياة أو موت المدينة ، فهو - على حد تعبير بيرجس[١] - قلب العوامل الجغرافية في تطور المدينة . فالموارد المادية والبشرية للموقع هي بحقيقتها وقود المدينة وعدا هذا فان اعتماد المدينة في خاماتها وغذائها وتسويقها على ما يرد من مواقع أخرى معناه ان زمام اقتصادها ليس في يدها وان تطورها يقوم على أساس خطر[٢] .

والموقع يظهر في الطبيعة نتيجة للتباين الارض ، وهذا من شأنه ان يخلق فيها مكانية شديدة التفاوت تساعد المدينة على النمو ، باعتبار ان الموقع منتج والموضع مستهلك . فاستمرارية هذه الصفة معناه دوام بقاء المدينة على مر الأيام ، كما هو الحال في بقاء المدن الاسلامية بالعراق في تطور مستمر حتى يومنا هذا .

وهذه القيام المكانية هي ، الطرق ، والانتاج الزراعي ، والخامات البنائية .

فمن حيث الطرق نجد انها تمتد فيتحرك التاريخ ، وانها - على حد تعبير لايلاشي[٣] - تتحرك فتنثر بذور الحياة في القرى والمدن ، أي تصبح بحق حاملة في

---

(١) The City - P 268

(٢) Gedds P.Cities in Evolution P.75 .

(٣) Principles of human Geography transportation 152 .

ذاتها تطور المدن .

ويبدو أن اعمار المدن يستمر طالما استمر الطريق وكل تحول أو اندثار للطريق يعني نفس المصير للمدينة ، فيحدثنا التاريخ عن مدن عديده قد تدهورت واندثرت بفعل تحول الطرق عنها ومن هذه المدن تدمر وبطرا والحضر والابله والحيرة .

ولما كانت المدن لا تعتمد فقط على موارد مواقعها بل تعتمد أيضا على علاقات خارجية ، فان الطرق ببساطة هي ـ على حد تعبير هليربلوك[١] ـ الشرابين التي تغذي المدى بالحياة .

وقد أدرك العرب المسلمون أهمية الطريق للمدينة لذلك أنشأوا مدنهم وبخاصة في العراق بمواقع تتميز بطرقها البرية والنهرية ، لانهم قطنوا فعلا وبدون مغالات الى ان انتشار السكان والتقدم الذي يطرأ على المدن يتوقفان تماما على توافر وسائل النقل المختلفة المنظمة بالبر والنهر .

والنقل النهري كالبري يعد من اهم وسائل الحركة ، فالانهار بلا شك كانت دهاليز الحركة والتوغل الطبيعية حتى وقت قريب ، وكانت أهميتها مضاعفة حيث لا توجد وسائل اخرى جاهزة[٢] ، لهذا جذبت شواطيء دجلة والفرات والنيل المدن وطورتها ، فهي ـ على حد تعبير كولى[٣] ـ كيرادة الحديدة على قضيب مغناطيسي .

وفي ضوء ما تقدم ، فاننا نلمس في معظم مواقع المدن الاسلامية بالعراق التقاء هذه الطرق ، فموقع البصرة تلتقي به طرق البحر والنهر والبر وهذا ما يطلق عليه الجغرافيون : مصطلح انقطاع الطرق ، وانسدادها[٤] . مما ساعد المدينة أن تنمو

---

(١) The Road : P.12.

(٢) Emrys Jones : Town and Cities P. 354

(٣) Theory of transporation in siciological theory and social rerearch P.176 .

(٤) G . Chabot - urban Geography P . 120 .

وتتوسع باضطراد من جراء الخدمات التي تقدمها المدينة لتسهيل مهمة التجار والتجارة ، من شحن وتفريغ وتوزيع ونقل وايواء ، كما يلتقي في موقع الكوفة طريقان أحدهما يربط السهل بالصحراء ، ينحدر من بلاد فارس عبر المدائن فالكوفة ثم مسالك الصحراء ، وقد استخدم للحج أيضا والثاني يصل الكوفة بواسط غربي الفرات ، ولم تستفد الكوفة من النقل النهري لأن الفرات غير صالح للملاحة يومذاك . في حين تلتقي عدة طرق برية ونهرية وفي موقع واسط مما منح المدينة اهمية تجارية عظيمة منذ نشأتها لوقوعها على دجلة من جهة ، وتوسطها بين الكوفة والبصرة والمدائن والاحواز من جهة أخرى[1] . , وقد ساعد هذا الموقع واسطا على تنشيط الحركة التجارية وتبادل السلع في انحاء مختلفة من البلاد . وبالتالي عم الرخاء واسطا فتقاطر عليها الناس من كل حدب وصوب ، بعد الحجاج ، فازداد سكانها وكثر عمرانها .

ويبدو ان موقع بغداد تلتقي فيه شبكة طرق برية ونهرية ساعدت على نمو بغداد اجتماعيا واقتصاديا وعمرانيا ، حتى يومنا هذا ، فموقع بغداد يقع في القسم الاوسط من نهر دجلة الذي يتضمن عدة مسالك تسير عليها قوافل التجارة بين سهل العراق والمناطق الجبلية شمالا وبين بلاد فارس والهند شرقا وجنوبا ، وعلى صفحته تأتي الثروات من منتجات البحر وما ورائه عبر البصرة . وعند موقع بغداد يقترب وادي الفرات من وادي دجلة مما يسهل الاتصالات بينهما ، اذ ان حوض الفرات الاوسط كحوض القسم الاوسط من نهر دجلة ، يتضمن هو الآخر مسالك تسير عليها القوافل بين سهل العراق والحوض الشرقي للبحر المتوسط ، كما أن أفرع الفرات وقنواته المتجهة نحو دجلة والتي تكون في اوقات الغزو حلقات دفاع عن المدينة يمكن ان تتخذ مجاريها في اوقات السلم سبلا للنقل المائي بين النهرين ، كما اتخذت ضفافها

---

(١) المقدسي ـ أحسن التقاسيم ـ ص ١٣٥ .

طرقا لسير القوافل بينهما .

ويشكل موقع الموصل عقدة لشبكة طرق برية ونهرية ، تلتقي عندها فهي كعقدة بغداد ـ مدرجة للجبل ومسلك للصحراء والسهل ، مشرعة لشحن موارد الجبل والسهل ، فتنحدر هذه على صفحة دجلة لمدن سهل العراق وبخاصة بغداد ، فالموصل كالبصرة مأوى كل تاجر وطريق كل عابر .

والزراعة ـ وهي حاجة الانسان الاولى التي يتوخاها من موقع المدينة الذي يقيم عليه مزارعه وبساتينه(١) ، وقد كانت القاعدة الزراعية العريضة الفنية التي تجود بها مواقع المدن دعامة أولى في نشأة وتطور المدن العربية الاسلامية في العراق ، ويعني هذا وجود مصدر غذائي ثابت يتوقف على المدينة باستمرار ، مما يساعد على نموها وادامتها .

أما خامات البناء التي تحتاجها المدينة في تشييد وحداتها المعمارية فهي قديما وحتى الفترة الاسلامية من مهمات المواقع ، فكانت المواقع تمون المدن بما تحتاجه من خامات بنائية . كالقصب والبردى والطين والآجر والأحجار والصخور والاخشاب ، وهذا يعني تسهيلات خاصة في البناء ، وبالتالي تساعد على ايجاد حركة معمارية يصاحبها نشاط اقتصادي واجتماعي وفني له أثره في تطور المدن . فقد جهز الموقع مدينتي البصرة والكوفة بمادتي القصب والبردى ليحلا محل الخيام ، كما جهزهما أيضا بالطين واللبن والآجر بعد احتراق المدينتين ، وعلى مثل وضع البصرة والكوفة سار الوضع المعماري في كافة المدن الاسلامية الأخرى .

وعلى العموم نجد أن آثار الموضع والموقع كبيرة في تطور المدن لأن كل المدن في الغالب تنشأ في تواضع تام ، فتبدأ صغيرة ثم تكبر بسرعة أو ببطء حيث تخرج عن حدود موضعها الاصلي ـ وأن ثمة حقيقة مهمة تحكم تطور معظم المدن الاسلامية في

---

(١) Dickinson , R . E : - City and Rigion - P . 688 .

العراق ، فهي عادة تقع حيث تتم علاقة تاريخية بجغرافية بين موضع حيوي بكافة نشاطاته وموقع خصيب ذي مناخ ملائم ويوفر الماء والغذاء ، ولكن يضاف الى جانبها منذ فجر التاريخ دفعة لها أثرها هي التجارة ، وظل هذان العنصران الزراعة والتجارة أو بمعنى التعبير الجغرافي الموضع والموقع وراء التراث المدني والعربي معا أو على التناوب .

الفصل الثاني
العامل الفني

ـ تمهيد .

١ ـ خطط المدن الاسلامية في العراق :

أ ـ البنية . .

ب ـ التحصين .

ـ العوامل المؤثرة في تصميم الوحدة المعمارية الاسلامية .

تمهيد

ازدهر فن تخطيط المدن عند العرب في كل مراحلهم الحضارية قبل الاسلام في اليمن والحجاز والعراق والشام ، وفي الاسلام أصبح لهذا الفن شأن كبير في عصوره المختلفة حيث غدا فنا متميزا بطابعه العربي الاسلامي الذي انتشر في أقاليم عربية وأخرى أجنبية كبلاد فارس والروم وما وراء النهر والافغان وأرض السند والكنج والاندلس ، وأصبح نمطا حضاريا أصيلا يمتاز بعمقه وتنوعه وتأثيره القوي في الشرق والغرب .

ويمكننا أن نذكر أن العرب اختطوا وشيدوا في العصر الجاهلي مئات من المدن والقلاع والحصون وقد انحصرت مدنهم وحصونهم التي بنوها في الجاهلية بجزيرة العرب منها مكة ويثرب والطائف وحصون المدينة المنورة حيث كانت السيدة عائشة أم المؤمنين بأحدها يوم الخندق[١] . ثم ما قام من معارك بين النبي (ص) وبين اليهود من بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة عندما تبين منهم روح القدر[٢] ، فهاجمهم جماعة بعد اخرى من المسلمين في حصونهم المنيعة بالمدينة وفي خيبر واخرجهم منها[٣] . كذلك كانت الطائف مدينة محصنة بالاسوار ، ولها دار كان فيها برج في

(١) ابن هشام ـ السيرة ـ ٣/ ٢٤٣ .
(٢) المصدر نفسه ـ ٣/ ٢٤٧ .
(٣) المصدر نفسه ـ ٣/ ٣٨١ وما بعدها .

أحد أركانها يستخدم للدفاع [1] .

أما المدن التي بنوها في الاسلام فلم تنحصر في جزيرتهم بل سرى هذا البناء الى البلاد التي افتتحوها في آسيا وافريقيا وأوروبا .

ومما لا ينكر أن العرب قد تأثروا بالامم التي انضوت تحت راية الاسلام فاقتبسوا منها عناصر معمارية جديدة من أثر تحويل بعض المعابد والكنائس الى مساجد ، فيلاحظ ان العرب نقلوا الى مساجدهم من وحدات هذه الانبية القديمة ما وجدوه ملائما ومتفقا مع شعائر دينهم ، وليست المئذنة في الواقع الا واحدة من تلك الأشكال المعمارية التي تطورت عن صومعة معبد دمشق القديم وما تزال حتى اليوم كلمة صومعة تطلق في بلاد المغرب على المئذنة .

وقد ظل الاسلام مصدر الالهام والوحي للعرب في ابداعهم وابتكارهم في فن تخطيط المدن وعمارتها مدنيا وعسكريا ، وبهذا مد ظلالا حضارية جديدة للعرب وللانسانية جمعاء .

وتبدو لنا من هندسة المدن العربية الاسلامية وبناء مرافقها المدنية أو العسكرية أنها لم تكن من الامور المرتجلة ، وانما كان ثمة شيء من التنظيم منذ أول شروع العرب في تخطيط البصرة والكوفة والموصل والفسطاط ثم القيروان وواسط وثم بغداد وسامرا ، وذلك في وضع العلامات على الأرض كما هي الحال في خطط الكوفة والبصرة والموصل [2] ، الى التخطيط على الارض بالرماد وهو ما حصل في تخطيط مدينة بغداد الى عمل الخرائط والتصاوير والرسوم للابنية والكتابات والزخارف على الجلود أو الأقمشة ، كما هي الحال في تصوير الضبعة المعروفة بالسبطية من أعمل البصرة ، فصورت على الجلود ، وتصوير بغداد لملك الروم أرضها وأسواقها

(1) K . A . C . Crerwell : Early Muslin Architecture vol IP 7

(2) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٢٧٥ .

وشوارعها وقصورها وانهارهاغربيهاوشرقيها على الجلود أيضا فاستحسنهـا ولـم ير صورة شيء من الابنية أحسن منه[1] . في حين صورت الاسواق للمنصور عندما أراد اخراجها من المدينة المدورة على قطعة قماش واسعة ، مد عليهاالاسواق، ورتب كل صنف منها في موضعه المناسب ، حتى انها ثبتت على هذا الرسم كاملة[2] ، الى التقدير وهو تخمين الكلفة والنفقات الواجب صرفها في العمل فقد ذكر الصابي : ان الوزير أبا الحسن علي بن عيسى عندما ما أراد بناء مسناته على دجلة في سنة ٢٩٢ هـ قدر لها قبل البناء من النفقة مئة ألف درهم وصور له البناء ، واحضرت اليه الصورة والتقدير[3] .

هذا اضافة الى قيام المهندسين باخفاء الاعوجاجـات التـي تجعـل أحيانـا في الأرض ، فقوموا هذه الاعوجاجات والمساحـات غـير المنتظمـة وذلك ببنـاء المآذن والمدافن والمرافق المختلفة ، وكذلك القيام بتعديل سمك بعض الجدران ، وقد بذل المهندسون جهودا كبـيرة في اتقـان هذا الفـن ، وخـير دليل على هذا ما عبـر عنـه الجاحظ : عندما رأى المدن العظام والمذكورة بالاتقان والأحكام ، بالشامات وبلاد الروم ، وفي غيرها من البلدان فلم ير مدينة قط أرفع سمكا ولا أتقن استدارة ولا أوسع ابراجا ولا أجود فضلا من الزوراء كأنها صبت في قالب ، وكأنهـا أفرغـت أفراغا[4] .

وهناك التحريات الطوبوغرافية التي تسبق التخطيط لاختيار المواقع الصالحة التي تتفق مع مقاصد اقامـة المدن كما فعلـوا ذلك عندمـا مصروا البصرة والكوفـة والموصل على هاتي الصحـراء لاسبـاب عسـكرية[5] ، واختيار موقـع بـين البصرة

---

(١) ابن الجوزي ـ مناقب بغداد ـ ص ١٥ .
(٢) الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ـ ١/ ٨٠ .
(٣) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ـ ص ١٦٥ .
(٤) الخطيب البغدادي ـ المصدر السابق ـ ١٧٧/١ .
(٥) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٢٧٤ .

والكوفة لتخطيط مدينة واسط عليه يتفق مع الأغراض الادارية ، في حين كان ارتياد موقع في وسط العراق بين نهري دجلة والفرات بهدف تخطيط بغداد عليه كان يتماشى مع رغبة المنصور في اقامة عاصمة للدولة ، تتمثل فيه الجوانب العسكرية والاقتصادية والاجتماعية(١) ، كما ان اختيار موقع يتميز بسعة الأرض وجودة المناخ لتخطيط سامرا فيه وهوما يتطلبه صفة الفرسان الأتراك الذين اصطنعهم المعتصم يومذاك(٢) .

(١) لسترنج ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية ـ ص ٣٩ .
(٢) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

١ ـ خطط المدن العربية الاسلامية في العراق :

لا يمكن وصف تخطيط أي مدينة وصفا وافيا اذا اكتفى بالكلام على بعد مسقطها المسطح لأن الحياة لا تدب فيما ينطوي تكوينها من العلاقات الوظيفية والجمالية الا بعد الثالث عن طريق ارتفاع المباني في الفضاء وفي البعد الرابع عن طريق التطور الزمني ، وهذا ينطبق بوجه خاص على المدينة العربية الاسلامية لأنها انشئت انشاء ، فان الحركة التي ولدتها هذه المدن حين انشائها لم تؤد الى اختراق الفضاء فحسب ، بل على شكل عمودي . ولفهم تخطيطها يجب ان يسمى المرء منشآتها الرئيسية من حيث تكوينها وشكلها الخارجي ، وبوجه خاص مواقع عناصرها الاساسية كالجامع ودار الامارة والقصر والسوق واحياء السكنى ، بيد أنه يمكن اعتبار مبنى واحد بمثابة المنشأة الاساسية في تخطيط المدينة العربية الاسلامية ، فانه مبنى المسجد ، وانه ليبلغ من مكانته ان كبار البنائين الذين وكل اليهم أمر بناء المساجد قد وضح أثرهم في المباني العامة أيضا .

وقد كانت الرغبة لدى مخططي المدن الاسلامية في ابراز أهمية قلب المدينة الذي يشتمل على المسجد ودار الامارة هي المصدر لوجود المنحنيات الاساسية في أغلب المدن العربية الاسلامية في العراق كما هي الحال في واسط وبغداد والموصل ، أما البصرة وسامرا فيغلب عليهما الاستطالة .

وكانت خطط مدن العراق قبل الفتح الاسلامي يغلب عليها الشكل المستدير

ومهما كان أصل الشكل الدائري للمدن ، فان هذه الظاهرة يمكن أن تعزي لاسباب كثيرة منها :

أولا : ان الشكل الدائري يساعد المدينة على الدفاع ، اذ يمكن حمايتها من جميع الجهات وبخاصة اذا علمنا أن أكثر المدن الدائرية هي حصون عسكرية أو مدن أسست لهذا الغرض الدفاعي .

ثانيا : هذا الشكل المستدير يساعد السلطات الحاكمة على ضمان السيطرة في المدينة من المركز ، فبعد جميع النقاط المنتشرة على محيطها تقدر بمسافة واحدة عن المركز .

ثالثا : بالاضافة الى ذلك فان الشكل الدائري يعطى المدنية بنية محتشدة مما يساعد على الدفاع ويقلل المسافة بين أجزائها المعمورة حيث يضعف من قدرة الهجوم .

رابعا : وأخيرا نرى أن الاقتصاد في الوقت والنفقات وغيرها من الفوائد الاقتصادية والاجتماعية ، هي الملامح الموروثة في الشكل الدائري لخطة المدينة الذي تميزه عن الاشكال الهندسية الأخرى .

والأمثلة على الشكل الدائري لمدن العراق قبل الفتح الاسلامي كثيرة ، فقد كشفت التنقيبات الأثرية عن المدن الدائرية في مناطق متعددة من العراق كنينوى وآشور واربيل وكالح وخرصاياد بشماله وبابل وسيار وبورسيا وكبض ونفربوسطة والوركاء واوراريدو ولكش بجنوبه ، كما كانت مدينة الحضر بأرض الجزيرة الفراتية والحيرة غربي الفرات مستديرة في البنية ، في حين خططت طيسفون (المدائن) على أساس دائري أيضا ، أما الشكل الهندسي الآخر الذي اتصفت به خطط بعض المدن القديمة في العراق فان الأمثلة عليه قليلة ويبدو ان تطور مدينة عنه على الشاطىء

الغربي لنهر الفرات من الأمثلة التي يمكن ذكرها للدلالة على الشكل المستطيل ، لأن هذه المدينة محصورة بين ضفة النهر والتلال المرتفعة المحاذية لمجرى الفرات لذلك يكون موقعها على جانبي شارع رئيسي بشكل طولي .

أما المدن العراقية التي نشأت خلال حركة الفتوحات العربية الاسلامية وبعدها فيغلب عليها أيضا الشكل المستدير غير المنتظم(البيضي) كخطط الكوفة والموصل وواسط والشكل الدائري المحكم التنظيم في خطط بغداد أما خطط البصرة وسامرا فيهما أقرب للاستطالة منها الى الاستدارة . فبالاضافة الى ان هذه المدن قد ورثت مواضع المدن القديمة ومواقعها فان للمواضع أثرا كما أسلفنا في الشكل العام للمدينة بصورة عامة .

فمدينة البصرة مصرت على ظهر من الارض ، يحده من الجنوب الخليج العربي ومن الشمال بحيرة مائية تسمى الآن بهور الحمار ، يتحدد على جانبيه نحو الشرق الى شط العرب والى الغلاة من ناحية الغرب ، وموضع بهذا الشكل قد تحكم في خطط البصرة نحو الاستطالة ، كما أن الموضع الذي نشأت عليه خطط سامرا ، كان يتطلب منه أن تكون أرضه واسعة وقد هيأ هو الآخر شكلا مستطيلا لهذه المدينة ؛ في حين كان لسان البر الذي وضعت عليه خطط الكوفة قد فرض على هذه أن تكون شكلا بيضيا ، وقد أظهر موضع الموصل بالقرب من القلعة الواسع المنبسط الشكل الهجري (العاشر الميلادي)[1] ، أما خطط واسط فقد حددت الرابية التي نشأت عليها المدينة شكلها المستدير ، كما كانت خطط بغداد المحكمة الاستدارة ترجع الى عاملين ، الأول تاريخي والثاني جغرافي :

فالتاريخي هو أنت المنصور قد عاش في الكوفة وحاصر واسط الدائرية في أثناء

---

(١) أحسن التقاسيم ـ ص ١٣٥ .

تأسيس الدولة العباسية ـ كما مر بنا ـ وهما مدينتان شكلهما اقرب الى الاستدارة ، فلا بد أن المنصور بقي متأثرا بهما لذلك نقل شكلهما الى خطط بغداد .

أما العالم الجغرافي ، فيرتبط بالموضع الذي نشأت فيه خطط بغداد على شكل جزيرة يحيط بها نهر كرخايا كالسوار ، ففرضت هيأة هذا الموضع الاستدارة المنتظمة على خطط بغداد .

وعلى هذا فليس لخطط بغداد علاقة بعبقرية المنصور ـ كما يقرر أحمد فكري وغيره من الدارسين لمدينة بغداد ـ وانما اتخذ شكلها المدور[1] بما أوضحته عوامل التاريخ والجغرافية ، فالرجل بلا شك عبقري ولكن مسألة عدم ارتباط خطط بغداد بعبقريته لا يقلل من قيمة الرجل في تثبيت دعائم الدولة العباسية ، فهو بحق من مؤسسي الدول العظام ، في حين كان اختيار الموضع بهذه الكيفية يدل على عبقرية لا يشك فيها ، فقد حفظ هذا الموضع استمرارية مدينة بغداد بالرغم مما تعرضت له المدينة من الاحن والمحن خلال تاريخها الطويل .

ومما تقدم ان المدن العربية الاسلامية في العراق قد تأثرت من حيث التركيب الداخلي (البنية) والخارجي (التحصين) بخصائص فن العمارة اليونانية والرومانية والساسانية الفارسية عن طريق الآثار الحضارية التي تركها هذا الفن على مدننا كسلوقية وكركوك والصالحية والزعفران وتسنجار وعفر والحضر والمدائن والحيرة وكسكر والانبار وميسان والابله ، هذا اضافة الى الخبرة والاستشارات التي قدمها المهندسون والمعماريون اليونان والرومان والفرس والمخططون وغيرهم الذين اشتركوا في تخطيط وبناء بغداد وسامرا ، وأقاموا أضرحة الأئمة في كربلا والنجف والكاظمية . وبسبب هذه الاعتبارات علينا أن نتوقع وجود تباين من حيث البنية

---

(١) المدخل ـ ص ١٣ .

والتحصين بين مدينة وأخرى من جهة وفي جهات مختلفة في المدينة نفسها من جهة أخرى ، الامر الذي يجعل من الصعب تقديم صورة صحيحة ودقيقة لتركيب المدينة الاسلامية . لكن بالرغم من هذه التحفظات فاننا نستطيع ان نميز ملامح عامة نتوقع وجودها في أكثر المدن الاسلامية التي انشأت بالعراق وتطورت خلال هذه الفترة الطويلة التي مر بها هذا البلد ، وان التركيبة الداخلية والخارجية للمدينة الاسلامية تشتمل على :

أ ـ البنية .
ب ـ التحصين .

أ ـ البنية :

البنية هي التركيب المعماري الداخلي للمدينة بوظائفه الدينية والادارية والتجارية والمدنية .

فقد اعتاد العرب في تخطيط مدنهم أن يبدأوا ببناء المسجد في وسط المدينة بعد أن يستقر أمرهم في المناطق المحتلة ، وكان المسجد حقا مدينة من نوع جديد ، اذ يعد رابطة أو بالاحرى جامعا لاخوة وثيقة بين الجماعة الاسلامية ، فهم لا يلتقون معا فيه لمجرد اقامة الصلاة في مواعيدها بل للمشاركة الدائمة في الحياة لمحاولة تأسيس كيان اسلامي متماسك على الأرض يسخر اتجاهه وتفكيره في خدمة الدين والدنيا ، وحدث هذا التقليد لأول مرة في تمصير البصرة ، فقد أسس المسجد أولا وبجواره دار الامارة وحولها خطط القبائل ولكل قبيلة مسجد ومقبرة[1] .

أما الكوفة فقد أسس المسجد في وسطها حيث تفرعت منه الطرق والشوارع ،

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٣٨٨ .

وأقيمت دار سعد بن أبي وقاص في نهاية هذه الطرق وتبعد عن المسجد بـ ٢٠٠ ذراعا واتخذ فيها بيت المال (١) ، كما شيدت مساجد كل من الموصل وواسط وبغداد في مراكزها وشذت عن هذا التقليد سامرا حيث يقع مسجدها في الجنوب ملحقة به مئذنة معزولة عنه تقع بالقرب من الضلع الشمالي للمسجد وهي من أغرب المآذن التي بنيت في الطرق عرفت بمئذنة الملوية ، وهي على شكل مخروط صلب مدور يقوم على قاعدة مربعة ، والمظهر بكامله يكون على ارتفاع (١٢٠ قدما) مبنيا بالآجر ويرتفع بواسطة ممر ملتوي من خمس دورات تترك اليد اليسرى الى الحائط ، وفي القمة برج صغير في داخله بضع درجات من وسلم وقيل ان هذا مكان المؤذن ينادي للصلاة منه في يوم الجمعة في زمن الخلفاء(٢) .

ويعتقد البلاذري : ان سبب بناء الملوية على هذا العلو الكبير لكي يسمع الآذان بسهولة وحتى يمكن للمئذنة ان ترى من مسافات بعيدة(٣) ، الا أنني ارى في جعل المئذنة معزولة عن المسجد بارتفاعها المذهل ورصيفها العريض الملتوي على بدنها مما يسهل على الفارس الصعود الى قمة المئذنة ، انما أريد به ملاحظة العدو الذي يهدد سامرا من بعيد ، ومما يلفت النظر ان ابن طولون عندما شيد مسجده على جبل يشكر في القطائع ، الحق به مئذنة تحاكي مئذنة سامرا لكنها ملتصقة به .

ويبدو ان البنية الادارية في المدينة السومرية الاسلامية ، كالدواوين ومؤسسات الحاشية وأماكن الحرس الخاص وباقي الدوائر الادارية ، فتتركز حول قصر الخليفة أوالحاكم وان موقع هذه المؤسسات يكون على الاكثر في مركز المدينة ، ولكن ذلك يعتمد على العلاقة بين السلطة الحاكمة والمجتمع ، ففي بغداد مثلا ،

---

(١) ماستيون ـ خطط الكوفة ـ ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٢) Creswell - Early Muslin Architecture : Vol - I - P . 243 .

(٣) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٤٦١ .

وضعت هذه المؤسسات في المركز لكي تتخذ نقاطا دفاعية قوية في أوقات الازمات السياسية الداخلية ، لكنها تنقل الى مناطق أخرى من المدينة في أوقات الاستقرار والرخاء والسيطرة التامة على المجتمع ـ وفي سامرا أقيمت قصور الخلافة ومؤسساتها في الجانب الغربي من نهر دجلة لأنها وجدت للنزهة واللهو كما أنها اتخذت مراكز ادارية في الوقت نفسه .

أما البنية التجارية للمدينة العربية الاسلامية بالعراق فتشتمل على الاسواق والخانات والمخازن ، فكان الى جانب محور الدوائر الحكومية وقصور الخلافة والحكام يوجد محور المسجد والسوق وكثيرا ما يكونان متلازمين ويكون المسجد وسط السوق ، وفي هذا يبرز الترابط بين الجانبين الروحي والمادي في حياة سكان المدينة العربية الاسلامية ، وقد لعبت الأسواق دورا كبيرا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية بل والسياسية أحيانا . وقد عرف العرب في جاهليتهم الأسواق ، وكانت أغلبها أسواقا موسمية تقوم في ملتقى الطرق التجارية ويعتمد عليها الناس من أماكن مختلفة كسوق عكاظ ودوية الجندل وأسواق عدن وصنعاء[١] وقد وصلتنا أخبار كثيرة عن هذه الأسواق وأيامها[٢] .

وفي الاسلام أقام العرب الأسواق في المدينة العربية الاسلامية بالقرب من المسجد فيكون المسجد في وسط السوق أو في نهايته أو بالقرب منه ، فمساجد البصرة الثلاثة كانت في الأسواق[٣] ، ومسجد الكوفة كذلك ، أما في الموصل فقد تعددت الأسواق بالقرب من المسجد ، في حين كان بواسط يقع في طرف السوق ، كما بنى المعتصم في سامرا مسجدا جامعا في طرق السوق[٤] .

(١) التوحيد ـ الامتاع والمؤنسة ـ ١/ ٨٣ .
(٢) سعيد الأفغاني ـ أسواق العرب في الجاهلية والاسلام ـ ص ١٩٣ .
(٣) المقدسي ـ أحسن التقاسيم ـ ص ١١٧ .
(٤) ماشيون ـ خطط الكوفة ـ ص ٢٦ .

كانت الأسواق في المدينة العربية الاسلامية ذات أشكال متعددة ، فقد كانت تتجمع في جزء واحد من المدينة كأسواق الكوفة ، وتتجمع خارجها مثل أسواق الكرخ ببغداد[1] كما وجدت في المدينة العربية الاسلامية دكاكين وحوانيت مفردة خارج الاسواق[2] ، يتفقدها المحتسب لمنع الغش والتدليس فيها[3] . ونجد أيضا في المدينة العربية الاسلامية أنواعا من الأسواق تعرف بالقيصرية ، وهي ذات سقف مسنم ، جاءت من البزنطيين منسوبة الى كلمة قيصر ، وتحس بالمصطلح الشامي والمغربي بالسوق الامبراطوري ، وبها حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن يقيم فيها الصناع والحرفيين والتجار ، وتغلق مداخلها في أثناء الليل وتحفظ فيها البضائع الثمينة[4] .

وهناك سوق الغزل في بغداد وهو خاص بالنساء وفيه يبعن ويشترين وفي جهة من جهاته قامت دكاكين لبيع اللحوم والزيت وكل حاجيات المطبخ[5] . كما وجدت في بغداد خانات للتجار على دجلة يطرح فيها المتاع الوارد من الموصل والبصرة وسائر أنحاء المعمورة[6] ، في حين كان في مصر خان يسمى دار الوزير لا يباع فيه سوى القصب وبطابقه الاسفل يجلس الخياطون وفي الاعلى الرفاءون ، ويقوم القيم على هذا الخان يأخذ الاجرة من ساكنيه[7] . ووجدت كذلك في المدينة العربية الاسلامية مخازن للاطعمة وضعت لها شروط خاصة من حيث الحرارة والرطوبة ، ونجد بصورة عامة قرب الاسواق دار المحتسب للقيام بمراقبتها[8] .

---

(١) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٦ / ١٤٦ .
(٢) ابن العبري ـ مختصر تاريخ الدول ـ ص ١٣ .
(٣) الشيزري ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة ـ ص ٦٠ .
(٤) ديموبين ـ النظم الاسلامية ـ ص ١٥٠ .
(٥) ابن بسام ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة ـ ص ٧٢ .
(٦) التنوخي ـ نشوار الحاضرة ـ ٨/ ١٣٢ .
(٧) ناصر خسرو ـ سفرنامة ـ ص ١٠٦ .
(٨) الدمشقي ـ الاشارة الى محاسن التجارة ـ ص ٢٩ ـ ٣٠ .

وفي المدن الكبيرة كبغداد مثلا ، ينتظم أصحاب كل حرفة في زقاق واحد أو أكثر ، كما تقوم دكاكين وأسواق صغيرة في المحلات البعيدة عن قلب المدينة ، فقد كان الجانب الغربي من بغداد يتكون من مجموعة المحلات المتباعدة ، وكل منها كأنه مدينة صغيرة فيها المسجد والأسواق [1] .

هذا اضافة الى أن مركز السوق في المدينة الاسلامية هي المكان الذي تصرف العملات فيه ، ذلك ان الاسلام اقر مبدأ التعامل النقدي كأساس في التجارة .

وقد يشاهد في كثير من المدن العربية الاسلامية أن هناك تجمعا واضحا من الخانات ودور الكتب والتصحيف بالقرب من المسجد والاسواق . ويبرر الباحث البرت حوراني سبب تقارب المؤسسات التجارية والدينية على أساس ان الطبقة الاجتماعية التي كانت تسيطر على التجارة في المدن الاسلامية هي الطبقة المترية وهي أيضا صاحبة النفوذ الديني [2] . كما ان هذه الظاهرة يمكن أن تفسر أيضا على أساس تأثر المدن الاسلامية بالمدن القديمة والمدن اليونانية والرومانية ، اذ بنى المسلمون المسجد في موضع الكنيسة أو المعبد أو بجانب أحدهما اما الاسواق المركزية فقد أخذت محل الشارع العام أو الساحة المكشوفة التي تتصف بها المدن اليونانية والرومانية عادة .

ويبدو ان البنية المدنية في خطط المدينة العربية الاسلامية التي نشأت خلال الفتوح ، هي المعسكرات المتخذة ـ كما مر بنا ـ من الخيام لايواء الجند ، كخيام البصرة والكوفة والموصل والفسطاط والقيروان ، ومما لا شك فيه ان عزم هؤلاء الجند على الاستقرار بمصرى الكوفة والبصرة في العراق قد دفعهم الى خطوات جديدة في تعمير هاتين المدينتين ، فبدأوا بالقصب والبردى بدلا من الخيام ، وعندما حل بها الحريق ، التجأوا الى الطين واللبن والأجر في تشييد دورهم ، ولا نظن ان الصناع

---

(١) ابن جبير ـ الرحلة ـ ص ٢١١ وما بعدها

(٢) The Islamic City in the Ligth of Recent Rerearch P . 22

المحليين كانوا يستطيعون وحدهم القيام ببناء كل العمائر ولكل تلك الأعـداد من الجند وأهلهم وللسكان الذين كانوا يتزايدون في سرعة كبيرة وفي وقت قصير بسد حاجتهم ، والارجح أن تكون كل جماعة من الجند والعرب قد قامت بتشييد ما تحتاج اليه من العمائر متأثرة الى حد ما بالنظام الذي تعودته في موطنها الاصلي بعد اخضاعه لمطالب الدين الاسلامي الجـديد ، فاجتمعـت بذلك عدة نظـم وتقـاليد معمارية وفنية اصبحت فيما بعد نواتا للديار العراقية ، واجتماع تلك النظم والتقاليد وامتزاجها ببعضها من أهم ما يمتاز به الطراز الفني العربي الاسلامي الذي صهرها كلها في بوتقة واحدة في العراق وسائر الاقطار الاسلامية الاخرى .

ويمكننا أن نستنتج من الاتساع الكبير الذي أصبحت عليه المدن بعد وقـت قصير من الفتح ان كثيرا من تلك الجماعات الاسلامية التي أشرنا اليهـا سواء من العرب أم غيرهم كانت تتوالى هجراتها الى العراق ويقيم معظمهـا في أمصـار البصرة والكوفة والموصل ، بالاضافة الى القبائل التي صحبت جيوش المسلمين الفاتحين ثم لحق بهم أهلوهم بعد استقرارهم في العراق واختيارهم اياه موطنا لهم ، كما ترجح أيضا ان الخطط التي اقطعت لكل مجموعة من تلك القبائل لم تكن متلاصقة وانما كانت تفصل بينها طرق رئيسية عريضة تتفرع منها مسالك ضيقـة على غـير نظـام معين ، وفي تعرجات لا ضابط لها ، وكان بعضها ينتهي أحيانا بانسداد في آخره ، فكأنها حارات مغلقة تنتشر بينها الدروب التي قد يصل عرض الواحد منها الى متر واحد . وكان كثير منها يغلق ليلا من طرفيه لمقتضيات الامن وتعطينـا فكرة ضيق الشوارع والتوائها في هذه المدن صفة دفاعية حيث يعطي المدينة شكلا محتشدا يساعد على صد الغارات وحصر الاعداء في أوقات الازمات ، كما ان صفـة الازقـة غـير السالكة أو المغلقة يمكن أن تعزى الى سهولة حصر الغزاة والسيطرة عليهـم اذا ما تعرضت المدينة الى هجمات خارجية أو تمرد داخلي ، هذا اضافة الى ان الشـوارع الضيقة التي امتازت بها المدينة العربية الاسلامية بالعراق تحمي السكان من اشعـة

الشمس المحرقة التي يتصف بها مناخ العراق الصحراوي خلال أشهر الصيف .

في حين كانت المدن الثلاث واسط وبغداد وسامرا تتميز عن البصرة والكوفة والموصل بسعة شوارعها الرئيسية ومسالكها ودروبها .

والبصرة قد قسمت منازل أهلها على خمس خطط سميت اخمسا لتوزيع قبائلها ، وهذه تم بناؤها حول قصر الامارة والمسجد ، فجعلوا ـ على ما يقرر الماوردي[1] ـ شارعها الاعظم وهو مريدها ستين ذراعا ، وجعلوا ما سواه من الشوارع التي تفصل بين احياء المدينة عشرين ذراعا ، وجعلوا عرض كل زقاق يتفرع من هذه الشوارع سبعة اذرع تتشعب منها دروب ومسالك ضيقة غير نافذة يتراوح عرضها بين الاربعة أذرع والثلاثة وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحة لمربط خيلهم وقبور موتاهم وتلاصقوا بالمنازل .

وفي الكوفة كان المجمع العمراني المدني لاهل الكوفة قد وزع على سبعة أقسام سكنية تسمى اسباعا وفقا للقيادات القبلية ، وتيسيرا للتعبئة العامة عند التفير للجهاد ، وتسهيلا لتوزيع الغنائم والاعطيات بعد العودة من الجهاد[2] ، وتفصل بين هذه الاقسام السبعة طرق رئيسية تسمى بالمناهج وكان عددها حين تمصير الكوفة خمسة عشر منهجا[3] ، التي اقطعها سعد للقبائل المختلفة ، وهذه المناهج قد اختطت من المسجد باعتباره مركزا لها ، وعندما شيدت منازل الكوفة بالطين واللبن وثم بالآجر أصبحت هذه المناهج شوارع عامة تسمى سككا عرضها يتراوح بين الثلاثين والعشرين ذراعا تتفرع منها ازقة بعرض سبعة اذرع وكانت في الكوفة مفارق طرق تسمى بالفارسية (جهاد سوج) ومعناها الجهات الاربع[4] ، وكان لكل قبيلة

---

(١) الاحكام السلطانية ـ ص ٩٦ ـ ٩٧ .
(٢) ماستيون ـ خطط الكوفة ص ٩ .
(٣) المصدر نفسه ـ ص ١٧ .
(٤) ماستيون ـ المصدر السابق ـ ص ١٧ .

في الكوفة مقبرة خاصة بها تسمى الجبانة تعرف بهم وبرؤسائهم منها جبانة بشر وجبانة ازد وجبانة سالم وجبانة كثرة ، وتقع هذه الجبانات في خطط القبائل[١] ، وقد لعبت مقابر الكوفة دورا مهما في الحياة السياسية اذ اتخذها أفراد القبائل مراكزا للتجمع عندما يريدون التمرد أو الثورة[٢] .

أما منازل واسط السكنية فكانت تركيبتها البنائية على شكل محلات تفصل بينها سكك وأزقة ودروب واسعة منتظمة[٣] ، وكانت هذه السكك تلتقي برحبات ثلاث ، ويحتمل أنها اتخذت مرابط للخيل ، كما كان عليه الحال في البصرة والكوفة والموصل[٤] ، وكان أهمها سكة البريد وسكة أهل بخارى وسكة محمد بن خالد ، وأهم المحلات هي محلة المهاليه في الجهة الشرقية من المدينة ، ومحلة الرزازين في الجهة السفلى من المدينة[٥] ، والى جانب هذه المحلات توجد دور بني سامرى وقصور ترددت اسماءها في المصادر ـ كقصر الحجاج بن يوسف الثقفي في مركز المدينة وملاصق للمسجد ، وقصر خالد بن عبد الله القسرى ويقع في أسفل المدينة على دجلة وقصري الرصاص والرمان في شمال المدينة على دجلة أيضا[٦] ، وكان في دارها سجن يعرف بـ (الديماس) مربع الشكل وان سليمان بن عبد الملك أمر بهدمه[٧] كما كان لاهل واسط مقبرة واحدة تقع في الجانب الشرقي من المدينة[٨] .

وفي بغداد كانت البنية المدنية مقسمة على أربعة أرباع تفصل بينها أربعة طرق رئيسية التي فيها الطاقات والشارعة من الابواب الاربعة الى مركز المدينة ، ويتخلل

---

(١) اليعقوبي ـ البلداني ـ ص ٣١١ .
(٢) ابن سعد ـ الطبقات ـ ٧/ ٧٠ .
(٣) الشيخ علي الشرقي ـ بحث في واسط ـ مجلة الاعتدال ـ ١٠/ ٤١٣ .
(٤) الماوردي ـ الاحكام السلطانية ـ ص ١٨٠ .
(٥) محيشل ـ تاريخ واسط ـ ص ١٢٦ وما بعدها .
(٦) المنذرى ـ التكملة لوفيات النقلة ـ ٣/ ٥٠٣ .
(٧) ابن قتيبة ـ المعارف ـ ص ٣٦٠ .
(٨) محيشل ـ تاريخ واسط ـ ص ٤٤ .

الدور شوارع وسكك عديدة اشار اليها اليعقوبي بقوله [1] وبين الطاقات الى الطاقات السكك والدروب تعرف بقواده ومواليه وبسكان كل سكة . وقد الحق بهذا المجمع السكني مقبرتان الأولى مقبرة الشيخ معروف في الجنوب الغربي من المدينة والثانية مقبرة قريش في شمال المدينة بالقرب من نهر دجلة والتي نشأت حولها مدينة الكاظمية ـ كما أسلفنا ـ .

ويتألف المجمع السكني لمدينة سامرا من ثلاث مجموعات هي : قصور الخلافة وقطائع الامراء ومساكن أهل المدينة من عرب وترك وفرس ، فقصور الخلافة الضخمة العظيمة التي بناها الخلفاء في سامرا ، والتي كشف عنها معول التنقيب ، تعطينا بقاياها فكرة عن مقدار الترف والابهة التي كانت تحيط بهم ، حيث يتقدم القصر منها مداخل ذات أبواب ضخمة عالية واقبية واسعة تتشابه وراء بعضها ، وأتي بعدها قاعات العرش والاستقبال واجنحة الحريم وأهل البيت والامراء ، وتحيط بها دور المال وثكنات الحرس والجنود والاسطبلات وخزائن السلاح ومنازل الحاشية وقصور الوزراء والحمامات والاسواق الى غير ذلك مما يجعل القصر منها كأنه مدينة قائمة بذاته ، ومن أبرز أمثلة تلك القصور ، قصر الجوسق الخاقاني الذي بناه المعتصم في عام ٢٢١ هـ وقصر بلكوار الذي شيده المعتز في حوالي ٢٤٧ هـ وقصر العاشق والمعشوق الذي أقامه المعتمد فيما بين عامي ٢٦٤ هـ ـ ٢٦٩ هـ وقد تحدث عنه الرحالتان ابن جبير وابن بطوطة[2] .

وكانت قطائع الاتراك ـ على ما يذكر اليعقوبي [3] . . قد صيرت جميعا والفراعنة العجم بعيدة من الاسواق والزحام في شوارع واسعة منتظمة ودروب طوال ليس معهم في قطائعهم ودروبهم أحد من الناس يختلط بهم من تاجر أو غيره .

---

(١) البلدان ـ ص ٢٤٠ .

(٢) رحلة ابن جبير : ص ١٨٦ . رحلة ابن بطوطة : ص ٢٣٤ .

(٣) البلدان ـ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

وتـوازي شوارع الاتـراك شوارع قطائـع قواد خراســان وأصحابهــم من الجنــد الشاكريه ، وعن يمين الشوارع ويسارها توجد دروب تنتظم على جوانبهـا منـازل الناس كافة ، وكان الشارع الاعظم المعروف بالسريحه الذي يمتد من شمال المدينة الى جنوبها توجد على جانبيه قطائع العرب التي تفصل بينها دروب تخرج منه بانتظام .

ومما يلفت النظر في سامرا أنها أقدم مدينة عربية اسلامية بقيت آثارها واضحة وبقاياها شاهدة على ان تخطيطها قد خضع لنظم هندسية وتصميمات مدروســة لا تكاد تضارعها في ذلك أية مدينة أخرى من المدن القديمة المعروفة .

وتبين لنا الآثار التي كشفتها مديرية الآثار العـراقية لموقـع سامـرا مقـدار ما وصلت اليه المدينة من تقدم عمراني في مبانيها المختلفة من قصور ومنازل وابنية عامة كالمساجد الجامعـة الكبـيرة ثم ثكنـات الجنـود وخزائـن المال وحدائـق الحيوانـات والحمامات والاسواق وغيرها ، وقد سارت على نظامها المتوكلية التي بناها المتوكل الى الشمال منها والتي مد الشارع الاعظم اليها ليصل بينهما .

ويبدو من الظواهر المعمارية الجديدة في سامرا أنها قد أثرت بنماذج العمارة في العالم الاسلامي وبخاصة مصر ، وذلك منذ العصر الطولوني ، فقد ظهر بعضها في ذلك العصر وبعض آخر في العصر الفاطمي ، ومن تلك الظواهر عمل البدنات أي الدعائم التي يرتكز عليها السقف ، والظاهرة المعمارية الثـانية هي ابتـكار المئذنـة الملوية فهي من أكثر الجوانب الفنية الاسلامية طرافة لا في سامرا فحسب بل في العالم الاسلامي ، وغيره ، والظاهرة المعمارية الثالثة التي انتشرت من سامرا هي الاركان المقرنصة التي تحول المربع الى مثمن أو الى دائرة ترتكز عليه الحافة السفلى للقبة .

ومما يزيد في اهمية بناء سامرا ما نتج عنـه هذا التحـول الملحـوظ في تطـور الزخارف المحفورة بالجص في عمائر سامرا وبخاصة النباتية منها . فقد اعترف علماء الفنون بأن الزخارف النباتية الاسلامية التي عرفت فيما بعد بالارابسك (التـوريق) (ك)نسبة الى العرب قد ولدت في سامرا ، واطلاق كلمة ارابسك على تلك الزخارف

يعد تسليما صريحا بفضل العرب في ابتكارها وتطويرها .

ابتدأت تلك الزخارف النباتية المحفورة على الجص بالظهور في سامرا وهي تحتفظ في مرحلتها الاولى برواسب هلسنية وساسانية وذلك من ناحية أشكال العناصر وأساليب حفرها ، ثم انتقلت الى مرحلة ثانية تفاعلت فيها تلك الرواسب سواء في العناصر أم أساليب الصناعة حتى كادت تختفي وهو ما آلت اليه المرحلة الثالثة اذ اختفت تماما وظهرت عناصر وأساليب جديدة لا تمت بصلة الى ما كان مستخدما في المرحلة الأولى ..

ب ـ التحصين :

يشتمل تحصين المدن ـ وهو تقليد قديم ـ على احاطتها بالاسوار والخنادق واختيار الموضع واقامة الابراج والدعائم والبوابات وتصميم مداخلها ، وكل ما من شأنه ان يزيد من قدرتها الدفاعية والهجومية بوجه الغارات الخارجية المعادية ، واحتمالات تعرضها لتمرد داخلي ضد السلطات الحاكمة فقد تعرضت مدننا منذ نشوئها وفي جميع الادوار التي مر بها العراق لهجمات خارجية جاء بعضها نتيجة العداء بين السلالات الحاكمة وبعضها الآخر من قبل الفاتحين كالفرس والاغريق والرومان والمغول غيرهم ، هذا بالاضافة الى خطر بدو شبه جزيرة العرب والقبائل العراقية أيضا ، فلم يمر هذا الخطر من دون ان يترك أثره السلبي في اكثر من مدنه وقراه ، فكان من الطبيعي أن تتخذ اجراءات مناسبة لتحصين المدن وحمايتها .

وكان عدد الأسوار التي أحيطت بمدن العراق قبل وبعد الفتح العربي الاسلامي يتراوح بين سور واحد الى عدة أسوار . وقد اختلفت المدن من حيث درجة الاحكام والتحصينات الاخرى أيضا حسب أهمية المدينة ومدى تعرضها للخطر واهتمام السلطات بها وطبيعة موضعها وموقعها .

فكانت المدن السومرية كالوركاء واور واربد ولكش مسورة وكذلك حصنت المدن الاكدية كمدينة أكد التي شيدها سرجون الأول في موضع يقع جنوب غربي

بغداد على ضفة قناة وسورها بعده نبوخذ نصر الثاني لأنها تعرضت لغزات الماذيين (١) كما كانت مدينة بابل وهي عاصمة لأكثر من سلالة حاكمة في العراق مثالا جيدا يمكن أن يستدل به على درجة أحكام وتحصين المدن القديمة في العراق ، حيث بنى لها نبو خذ نصر الثاني الملك الكلداني سورين خارجيا وداخليا تتخللها ابراج ضخمة للدفاع ـ وهما ـ على ما يذكر طه باقر ـ من أضخم الاعمال البنائية (٢) . في حين كانت المدن الاشورية بشمالي العراق ، كمدينة آشور ونينوى قد عرفت التحصين بسورين ، أما أربيل وهي احدى المدن الأشورية المهمة ، فملاحظة مختصرة لتاريخها تظهر منها ـ كما يقرر فؤاد سفر ـ خطورة موضعها على رابية يبلغ ارتفاعها ٣٥ مترا على السهل الذي يحيط بها وتسوير قلعتها واحاطتها بخندق ، فلعلها المدينة الأشورية الوحيدة التي ظلت مستوطنة ومحتفظة باسمها القديم حتى يومنا هذا (٣) .

وكانت مدينة الحضر العربية التي لا تزال آثارها شاخصة الى اليوم في الجزيرة الفراتية جنوب غربي الموصل بحوالي ٩٥ كم مدورة ومحاطة بسورين الأول خارجي والثاني داخلي يبعد عن الاول بمسافة ٢٠٠ م وله أربعة أبواب ويحيط به خندق (شكل ٦) ، وأن أبواب مدينة الحضر تمتاز بمناعتها فقد صممت بطريقة ماهرة لصد الهجوم عن المدينة . فالداخل من الخارج يعبر الخندق ثم يدخل بابا في بداية مسلك مواز للسور الداخلي من الخارج وبعدها ينعطف به هذا المسلك الى جهة اليمين ، فينفذ في ذلك السور مارا خلال باب واقع بين برجين متبعين اعدا لحراسة الباب ، ان لهذا الطراز من المداخل أهمية عسكرية بالغة ، اذ يلاحظ فيه ان الغزاة والمهاجمين يضطرون الى الانحراف نحو اليسار فتتعرض جوانبهم اليمنى للسهام الموجهة اليهم ، لأن الجند يحملون التروس بأيديهم اليسرى ، فتبقى جوانبهم اليمنى

---

(١) دروني مكاي ـ مدن العراق القديمة ـ ص ٦١ وما بعدها .
(٢) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ـ ٢٠٧/١ ـ ٢٠٨ .
(٣) الرحلة الرابعة ـ ص ٥ .


الباب الشمالي
الباب الغربي
السور الداخلي
الباب الشرقي
الباب الجنوبي
السور الخارجي

الحضر

شكل (٦)

مكشوفة [1]. أن احكام هذه المدينة قد لا يثير العجب اذا ما علمنا أنها كانت تقع على طريق الفاتحين والتجار وبالقرب من التخوم الساسانية والرومانية ، لذلك فانها استمدت بحروبها ضد الرومان تارة والساسانيين تارة أخرى . بالاضافة الى احاطتها بقبائل بدوية تعرضت المدينة لكثير من غاراتها .

ويبدو أن مداخل بوابات بغداد الاربعة قد تأثرت الى حد ما بتصميم مداخل مدينة الحضر المنحنية ـ كما ان المداخل المزودة بالحضر المدورة لم تكن ظاهرة معمارية جديدة تدل على الابتكار والابداع بل سبقتها ظاهرة معمارية مشابهة لها وبنفس التصميم ، هي مداخل سور مدينة شوته الزبيب بمصر وترجع الى العصر الفرعوني وتؤرخ في ١٧٨٨ ق . م [2] .

أما المدن العربية الاسلامية التي نشأت خلال حركة الفتوح الاسلامية ، كالبصرة والكوفة والموصل ، فكانت في بداية امرها خالية من التحصينات لأنها أساسا مدنا عسكرية . الا أن الموصل أحيطت بسور دائري غير منتظم في عهد أميرها محمد بن مروان أيام عبد الملك بن مروان في ٨٠ هـ [3] ، تتخلله أربعة أبواب ، وكان يحيط به خندق واسع تحول اليه مياه دجلة في حالة الازمات . وقد هدمه هرون الرشيد في ١٧٧ هـ عندما تمرد أهل الموصل ضد الدولة [4] ، وأعادت بناءه دولة بني عقيل عام ٤٧١ هـ على عهد أميرها أبوا المكارم مسلم بن قريش [5] . وأحيطت كل من البصرة والكوفة بسور وخندق أيام المنصور ، وقد دفع أهل البصرة والكوفة نفقة البناء للمنصور ، حيث أخذ من كل فرد منهم أربعين درهما [1] . ويبدو ان سور

---

(١) ماجد عبد الله الشمسي ـ الحضر ـ ص ٢٤ ـ ٣٠ .

(٢) Creswell - Early Muslim Architecture : Vol - I - PP . 24 - 25 .

(٣) ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان ـ ص ٢٨ .

(٤) الازدى ـ تاريخ الموصل ـ ٢/

(٥) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ـ ١/ ٥٦ .

(٦) ماستيون ـ خطط الكوفة ـ ص ١٨ .

الكوفة لم يعمر طويلا اذ لم يرد ذكره في وصف الرحالة ابن جبير للمدينة ، عندما زارها في عام ٥٧٠ هـ ، حيث قال : « وبناء المدينة بالآجر خاصة ولا سور لها »[١].

أما واسط فقد أحيطت بسورين خارجي وداخلي بينهما فصيل[٢] ، وربما كان يسكن هذا الفصل الجنود والحرس للدفاع عن المدينة عندما حاصر أبو جعفر المنصور المدينة في رجب من عام ١٣١ هـ أيام امارة يزيد بن هبيرة الغزاري ، فيذكر الطبري[٣] ، ان أهل الشام كانوا لا يقتتلون الا من وراء الفصيل . وكان السور الخارجي مدعما بالابراج وله ستة أبواب هي ـ المضمار[٤] ، والزاب والقورج[٥] ، والخلالين[٦] ، والبصرة[٧] ، والقيل[٨] ، وقد نقلت خمسة من هذه الأبواب لاستعمالها في مداخل أسوار بغداد ، فيذكر الطبري انه :[٩] لما بنى أبو جعفر المنصور المدينة أخذ تلك الأبواب فنصبها على المدينة ، وللمدينة (يعنى بغداد) ثمانية أبواب أربعة داخلة وأربعة خارجة ، فصار على الداخلة أربعة أبواب من هذه الخمسة وعلى باب القصر الخمس منها ، ويؤيد الخطيب البغدادي الطبرى اذ يقول[١٠]: ان أبا جعفر نقل الابواب من واسط ، وهي أبواب الحجاج وكانت خمسة كما يحيط بواسط خندق امر الحجاج بحفره حول المدينة زيادة في تحصينها[١١].

ويبدو ان تحصين واسط بتركيبته المعمارية المتبعة كان واضح الاثر في تحصين بغداد وبخاصة الابراج .

وتقف بغداد مثالا بارزا من أمثلة تحصين المدن العربية الاسلامية التي نشأت

---

(١) ابن جبير ـ الرحلة ـ ص ١٦٧ .
(٢) بحشل ـ تاريخ واسط ـ ص ٤٣ .
(٣) تاريخ الرسل والملوك ـ ص ٧/ ٤٥١ .
(٤) بحشل ـ تاريخ واسط ـ ص ٢٤١ .
(٥) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٧/ ٣٢٢ .
(٦) ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ـ ٥/ ٤٤٠ .
(٧) ابن وكيع ـ أخبار القضاة ـ ١/ ٣٥٧ .
(٨) الجاحظ ـ الحيوان ـ ٧/ ٨٣ .
(٩) الطبرى ـ المصدر السابق ـ ٧/ ٦٥١ .
(١٠) تاريخ بغداد ـ ١/ ٧٥ .
(١١) بحشل ـ المصدر السابق ـ ص ٤٣ .

في العراق ، فالاجراءات التي اتخذت في بغداد المدورة ، من حيث اختيار الموضع واقامة البناء وتصميم الاسوار المسندة بالدعائم أو المساند المدورة التابعة للسور الداخلي ، وهندسة ابواب المدينة واحاطتها بالخندق ، فقد اختير موقعها ـ كما أسلفنا ـ في وسط العراق بموضع محاط بالانهار الكثيرة التي تزيدها متعة وحصانة ، وقد أجمع المؤرخون والبلدانيون على انها احيطت بسور مستدير ، يدور من حوله خندق مليء بالماء ، يلي هذا السور سور ثاني أعظم من الأول ، وجعلوا بين السورين فصيلا دائريا له ـ على ما يذكر اليعقوبي [1] ـ ابرجة عظام وعليه الشرافات المدورة للدفاع عن المدينة ، كما يلي السور الثاني سور ثالث يحيط بالحمية العظمى ، وجعل بين السورين الثاني والثالث وفصيل دائري كبير ، أنشئت فيه بيوت السكن لمختلف الطبقات ، وبنى في مركزها جامع المنصور وقصره ، كما أقيمت بين مركز الدائرة وقصور الامراء والدواوين والاسواق ، في حين أنشئت الشوارع والطرق والسكك والمسكان بين السورين الثاني والثالث ، وفي الوقت نفسه خطط للمدينة عدد من الرحاب والمربعات ، وقد زودت بأربعة أبواب هي خراسان والشام والبصرة والكوفة ، وتتصف هذه الابواب بظاهرة فريدة من نوعها في العمارة العسكرية الاسلامية ، حيث بنيت مداخلها بوضع منحرف عن الابواب الخارجية لتعطي المدينة قدرة دفاعية ضد الاقتحام الداهم ، تشير الروايات على وجود ٢٨ برجا بين كل بابين الا بين باب البصرة وباب الكوفة فانه يزيد واحدا [2] .

ويبدو ان تصميم مداخل وبوابات بغداد شبيه الى حد كبير من تصميم مداخل وبوابات مدينة الحضر السابقة الوصف . لهذا اعتقد أن مسألة تحصينات بغداد وبخاصة المدخل تدل ـ كما يقرره أحمد فكري ـ على الابداع والابتكار ، قد تفدها المقارنة التاريخية ، ولكن لا تسندها الشواهد والاثار .

---

(١) البلدان ـ ص ٢٣٩ .

(٢) الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ـ ١/ ٧١ .

هذا اضافة الى شكلها الدائري وخلوها من الاسواق والمنتزهات ، ولا يمكن تبرير هذه الاحتياطات الا لأن المنصور اراد ان يؤسس عاصمة عسكرية منيعة ضد الاضطرارات والمؤامرات الداخلية وضد الغزوات الخارجية مستفيدا من خبرتـه في تعرض المدن وبخاصة العواصم للاخطار .

وقد أثرت تحصينات بغداد المدورة على تحصينـات كثـير من المدن في البـلاد الاسلامية وغيرها . الرافقة التي بناها المنصور بعـد بغـداد قرب السرقـة على نهـر الفرات تشبه الى حد ما هيأة مدينة السلام ، فكان لها مثـل مداخلهـا وفيصلهـا[٢] ومدينة صبرة في تونس على مقربة من القيروان بناها اسماعيل بن القاسم بن عبـد الله ، سنة ٣٧٧ هـ ، وكانت ـ على حد تعبير المقدسي[١] ـ مدورة مثل الكأس لا يرى مثلها ، ودار السلطان في وسطها على عمل مدينة السلام وعرض سورها ـ على ما يذكر المقدسي ـ اثنا عشر ذراعا منفصلة عن العمارة . ومـن المدن التـي تأثـرت بمداخل بغداد المزورة انقره ، عندما أعاد البيزنطيون تحصينها بعد اغارة المعتصـم العباسي عليها في سنة ٢٢٤ هـ[٢] .

واذا كان العباسيون قد اضطروا تحت ظروف سياسية قاهرة الى بناء قاعـدة حصينة لخلافتهم ببغداد وزودوها بكل الوسائل المتبعة ـ كما أشرنا ـ فانه لما استتب الامر لهم ، وهو الامر الذي سهل للمعتصم العباسي ان يشيد عاصمتـه سامـرا في ١٢٢ هـ مفتوحة بغير تحصينات ، وأمكن بذلك ان تمتد رقعتها على مساحات شاسعة من الارض ، وان يتجه النشاط الفني فيها نحو بناء القصور والدور وتزينها وانتاج مستلزمات الحياة العادية لسكانها .

---

(١) الطبرى ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٣/ ١٥ .

(٢) أحسن التقاسيم ـ ص ٢٦٦ .

(٣) Creswell - Early Muslin architecture : Vol - I - PP . 28 -29 .

٣ ـ العوامل المؤثرة في تصميم الوحدة المعمارية العربية الاسلامية

كانت تصميمات العمائر العربية الاسلامية بأنواعها المختلفة في البلاد العربية الاسلامية وبخاصة العراق ، قد تأثرت بعوامل دينية واجتماعية وجغرافية وعسكرية ، اذ حتمت هذه العوامل مجتمعة على الكيفية التي قام عليها الشكل العام للوحدة المعمارية الاسلامية .

ومن هنا يتجلى دور الاسلام في تصميم الوحدة المعمارية فله أكبر الأثر في تشكيل العمارة الدينية والسكنية ، وله الفضل الأول والأخير في انتاج شكل محدد مميز لمكان العبادة الاسلامي الذي بدأ بمسجد الرسول (ص) في المدينة المنورة ، وكان في واقعه انطلاقه حقيقية نحو الوحدة العربية الاسلامية ، وضمانة واقعية لحقوق المواطنة في الدولة العربية الاسلامية خلال تاريخها الطويل . وكانت البساطة في أداء فرائض الاسلام عاملا أساسيا في وضع تخطيط بسيط لهذا المسجد لا تعقيد فيه ولا تكلف في توزيع وحداته أو في أسلوب بنائه ، اذ لم يتطلب الدين الاسلامي الحنيف أكثر من جدر تقام باية مواد انشائية تحدد محيط المسجد ، وتحفظ حرمته ، ومن سقيفة أو ظلة أو أكثر يحتمي بها المسلمون في أثناء صلاتهم واجتماعاتهم لتدارس أمورهم الدينية والدنيوية . وهو التخطيط الذي بدأ ظهوره في المسجد النبوي بالمدينة المنورة . وأصبح هذا التخطيط النموذج الرئيسي الذي شيدت عليه المساجد الجامعة في جميع ديار الاسلام .

ونلمس من بساطة الدين الاسلامي في طريقة تفكير العرب الذين أسسوا البصرة والكوفة والموصل عند فتحهم العراق ، وذلك عندما خططوا أول مسجد جامع في كل مدينة منها ، فقد اكتفوا ـ كما في مسجد الرسول بظلة واحدة جهة القبلة ، وفعل مثلهم عمرو بن العاص عندما أسس المسجد الجامع في الفسطاط بمصر .

ويبدو تأثير العامل الديني في بناء المدافن والاضرحة واضحا في تشكيل العمارة العربية الاسلامية ، فقد تسابق الناس في العراق وفي غيره الى تشييد القبور الضخمة ، واقامة الاضرحة وخير مثال لها في العراق جبانات الكوفة ومقبرة دار السلام في النجف وفي بغداد حيث توجد مقبرتان تتخلل مقابرها أضرحة أقيمت للاولياء والصالحين وهما مقبرة الشيخ معروف ومقبرة قريش . وقد نشأت حول أضرحة الاولياء والصالحين والائمة مواطن حضرية في العراق كالنجف وكربلاء والكاظيمة وسامرا والاعظمية والزبير .

كما كان الزواج في الاسلام من أربع عونا على تاريخ بعض القصور التي عثر عليها في بادية الشام والعراق ، وأمكن نسبتها الى خلفاء وأمراء من العصرين الأموي والعباسي ، ذلك لما يحتويه القصر منها على أربعة مساكن تتمتع بأسلوب معماري متعادل في التصميم والبناء . ويكاد يستقل بنفسه عن الآخرين مثل قصر المشتى وقصر الطوبة ببادية الشام ، اللذان ينسبان الى الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ هـ ـ ٩٥ هـ)[١] ، ومثل قصر الاخيضر ببادية العراق في الشمال الغربي من مدينة الكوفة ، وينسب الى عصر المهدي ، حين شيد القصر عيسى بن موسى ابن عم

(١) ارنست كونك ـ الفنون الاسلامية ـ ص ٣٧ .
وكان عند الوليد بن عبد الملك أربع عقائل ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ٧/ ١١٤

المنصور ليبتعد عن البلاط العباسي ، ويعتزل في ذلك القصر بنسائه الأربع في عام ١٦٢ هـ .

ويبدو ان تصميات القصور ومنازل المسلمين قد تأثرت بالعامل الديني ، فكانت منازل البصرة والكوفة وغيرها من المدن العربية الاسلامية يراعى فيها ناحية حجاب النساء ، اذ تخصص أجزاء منها لقاعات وحجرات النساء وأهل البيت لحجبهم عن انظار الغرباء من زوار وجيران ، كما أن للمنزل الاسلامي في البصرة والكوفة وغيرهما من المدن الاسلامية دهليز يقع بين مدخلي المنزل يمنع المارة من النظر لداخل الدار . وكان للزائرين في مدينة الموصل وواسط قاعات مقفلة تستعمل أيام الشتاء ، ولهم ايوانات تسمى بالمقاعد مفتوحة على أفنية مكشوفة تستقبل منها الهواء الملطف في الصيف ، ومثل ذلك كان في منازل المسلمين في كل من بغداد وسامرا .

وللنظافة الدائمة التي يأمر القرآن فيها بأكثر من آية وينادي الرسول (ص) بها في أكثر من حديث ، وذلك في ايجاد نوع من العمائر للتطهر بالاغتسال مما جعل المسلمين يهتمون ببناء الحمامات للخاصة من الناس داخل القصور ومنازل القادرين ، وتشييد عمائر للحمامات العامة يؤمها الشعب على اختلاف طبقاته . وكان لهذه الحمامات العامة شأن في الحياة الاجتماعية في العصور الاسلامية المزدهرة ، اذ كان يخصص للنساء يوم أو أكثر من أيام الاسبوع يلتقين فيها للاستحمام والترويح ، وكانت تبنى حمامات مخصصة لهن لا يدخلها الرجال . وكانت أكثر حمامات البصرة بقرب المساجد[1] ، في حين قامت الكوفه على نهر البويب خلف مسجد الكوفه الكبير[2] .

والعامل الاجتماعي لا تختلف نتائج تأثيره في تطور العمائر العربية الاسلامية كثيرا عن نتائج تأثير العامل الديني الذي تدخل في أغلب نواحي حياة المسلمين ومنها

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٣٥٥ .
(٢) ماستيون ـ خطط الكوفة ـ ص ١٨ .

الأوضاع الاجتماعية .

وتكاد الطبقات الاجتماعية متطابقة في ترتيبها بجميع الاقطار الاسلامية بالنسبة للاوضاع والنظم ، أي من حيث وجود الطبقة الحاكمة سواء كان على رأسها خليفة أم سلطان أم أمير أم والي يعينه الخليفة ليحكم الولاية نيابة عنه ، ثم تأثير طبقة الوزراء ورجال الدولة والتجار والموسرين . وكان لهاتين الطبقتين النفوذ الأول في توجيه الانتاج المعماري من حيث الكم والكيف . أما الطبقة المتوسطة فكانت قلة ليس لها أثر محسوس على تطور الفن المعماري العربي الاسلامي ، وكان الحال كذلك بالنسبة لطبقة العامة من الشعب . وتوضح البقايا الأثرية من العمارة العربية الاسلامية مقدار التفاوت الكبير بين العناية العظيمة بمنتجات الطبقات الموسرة وبين ضعف الاهتمام بمنتجات الطبقة الشعبية المتوسطة منها والفقيرة ، فقد كشفت مديرية الآثار العراقية عن آثار قصر الامارة بالكوفة ، كما كشفت عن قصر الحجاج في واسط . ولم يبق من قصور بغداد أي أثر سوى القصر العباسي قرب وزارة الدفاع في جانب الرصافة ، الذي ينسب الى الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ هـ - ٦٢٢ هـ)[1] ، والمدرسة المستنصرية التي أنشأها الخليفة المستنصر بالله عام ٦٢٦ هـ على نهر دجلة بجانب الرصافة أيضا قرب الجسر القديم وهما من بقايا عمائر العصر العباسي الأخير . في حين كشفت مديرية الآثار العراقية في سامرا عن آثار قصور الخلفاء العباسيين بينما اختفت مساكن الطبقات الشعبية والعمائر الخاصة بها .

ويؤثر العامل العسكري في تشكيل العمارة الاسلامية في حالة قيام الحروب أو وجود أخطار تهدد أمن الناس والبلاد ، فكان يتطلب الاستعداد لمواجهة الحرب أو التهديد بها ومن ثم فقد كان النشاط العماري يتجه نحو بناء الحصون وتعزيز الاستحكامات مما ينتج عنه غض النظر عن النواحي المعمارية الأخرى .

---

(١) ابن الاثير الكامل ١٤٨/٩ / ط٢ / بيروت .

ويمكن أن نشير الى ما يميز تأثير هذا العامل في نوعية العمارة الاسلامية في العهد الاموي ، وذلك أن أكثر القصور العربية الاسلامية الأولى التي تعود الى هذا العهد والتي عثر عليها في بادية الشام تتميز بجدر مدعمة بالابراج ومزودة بوسائل للدفاع مثل قصر المشتى وقصر الطوبه وقصر الحير الشرقي والغربي[1] .

وذلك بسبب وجودها في مناطق بعيدة عن العمران وتأمينا لسلامة الخليفة والأمراء الذين كانوا يقيمون فيها . كما أن وجود قصر الاخيضر جنوبي غرب كربلاء بحوالي ٦٠ كم بتحصيناته الضخمة يعلل بنفس السبب وقد تحصينات واسط الهجوم العباسي عليها في امارة ابن هبيرة عند تأسيس الدولة العباسية . كما ان تزويد بغداد بكل الوسائل الدفاعية المتبعة لا تفسر الا بدافع عسكري . في حين كان تصميم مداخل القصور بسامرا على هيئة منحنية ، ووجود دهاليز في معظم منازل البصرة والكوفة ، وسائر المدن الاسلامية بالعراق لا تعلل الا بتأثير هذا العامل ، هذا فضلا عن وجود الدروب الضيقة والازقة غير السالكة والبنية السكنية المحتشدة تبرر بالاضافة الى ما سبق تأثير العامل العسكري في هندسة معظم المدن الاسلامية بالعراق .

أما العامل الجغرافي فيبرز تأثيره في تشكيل العمائر الاسلامية بالعراق في ثلاث نواح ثلاث هي ـ الموقع الجغرافي والتكوينات الجيولوجيةوالمناخ .

فمن حيث الموقع الجغرافي فقد اتخذ العراق منذ صدر الاسلام وبعده في العصرين الاموي والعباسي قاعدة ومعبرا الى أقطار فارس وبلاد ما وراء النهر وأرض السند في شمال غرب الهند لفتحها ونشر العروبة والاسلام فيها ، فمصروا في صدر

---

(١) سليمان عادل عبد الحق ـ اعادة تشييد جناح قصر الحير الغربي ـ مجلة الحوليات ـ ص ٥٦٠ وما بعدها . عام ١٩٥١ .

الاسلام به البصرة والكوفة والموصل ، وكانت هذه الأمصار نواة للعمارة الاسلامية فيه ، ثم جاء الأمويون فشيدوا واسطا وحصنوها ، وبعدهم جاء العباسيون فأنشأوا بغداد وسامرا ، فكانت هذه الحملة الحضرية التي أقامها العرب المسلمون في العراق قد سجلت تطورا ملحوظا في العمارة الاسلامية سواء كانت هذه العمارة عسكرية كتحصينات واسط وبغداد والموصل أم عمارة دينية كاقامة المساجد والمدافن والقبور والاضرحة أم مدينة كتشييد القصور والدور والمنازل والخانات والمخازن والدواوين وبالجسور والقناطر والحمامات وغيرها .

كما أتاح الموقع الجغرافي للعراق أن يصبح وعاء ولا سيما في العصر العباسي تنتصب فيه كافة الطرز الفنية المعمارية وبخاصة الطرازين الساساني والبيزنطي ، فكان لا بد لهما أن يتركا أثرا في تشكيل العمارة الاسلامية فيه خصوصا وان العراق قد ورث مدنا ساسانية كالمدائن والاتيار وكسكر وميسان والابله ونوارد شير . كما ورث أخرى بيزنطية في شمال العراق كالزعفران وسنجار وعفر ، في حين تدل بقايا العمائر التي كشفتها مديرية الآثار العراقية في الحضر المدينة العربية بأرض الجزيرة العراقية أنها متأثرة بالفن البيزنطي ، كما توضح بقايا آثار مدينة الحيرة العربية بقرب الفرات قرب الكوفة تأثير الأسلوب الساساني فيها[1] .

فلا بد لهذا الموروث المعماري الضخم من الفنيين الساساني والبيزنطي ان يترك أثره في تخطيط مدن العراق وعمارتها ، فيلاحظ ان التأثير الساساني في العمارة العربية الاسلامية فيه واضح في مدينتي بغداد وسامرا ، فقد استخدمت القباب وانصافها والاقبية الساسانية في تسقيف عمائر كل منها ، كما كثر استعمال الاواوين الساسانية في المساجد والقصور والمنازل والدور في كافة المدن الاسلامية بالعراق ، في حين استخدمت الشرافات المسننة الساسانية في الاطراف العليا للعمائر ولا سيما في

---

(١) رزق الله غنيمة ـ مدن العراق ـ ص ١٩ .

أسوار بغداد . كما نجد الاسواق في المدن الفارسية تقع خارج المدينة[1] ، وقد أشرنا سابقا الى أن المنصور قام بنقل أسواق مدينة بغداد الى ربض الكرخ الذي يقع خارجها ، فربما كان ذلك بفعل التراث الفارسي . هذا فضلا عن اشتراك كثير من الفعلة والمهندسين والمعمارين الفرس في بناء المدن الاسلامية وبخاصة في بغداد وسامرا فلا بد أن يترك هذا الاشتراك الفارسي أثرا فيها[2] .

وكان التأثير البيزنطي واضحا وجليا في خطط المدينة الاسلامية ، فقد تجمعت المؤسسات الرسمية والقصر والكاتدرائية في مكان واحد بوسط المدينة البيزنطية[3] ، وهذا ما نجده في المدينة العربية الاسلامية حيث جعل المسجد الجامع ودار الامارة وقصور الخلافة والدواوين وبيوت المال في مكان واحد أيضا[4] . كما حاول الباحث (موريس ديموبين غود فرو) الربط بين موقع الحوانيت والأماكن الحرفية في المدينة العربية الاسلامية وموقعها في المدينة البيزنطية ، ففي كلا التخطيطين تقوم الاسواق حول المركز الديني فكما كان السوق في المدينة البيزنطية يقوم حول الكاتدرائية ، فان الأسواق في المدينة العربية الاسلامية تجمعت حول المسجد أيضا[5].

وقد جرت العادة أن يشترط المحتسب أن تكون الاسواق في الارتفاع والاتساع على ما وضعه الروم قديما[6] .

هذا اضافة الى استخدام بعض العناصر المعمارية البيزنطية كالأعمدة والعقود في عمارة المساجد والقصور في كافة المدن الاسلامية بالعراق .

---

(١) بارتولد ـ الحضارة الاسلامية ـ ص ٩٥ .
(٢) كارل بروكلمان ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ـ ص ٢١١ ـ
(٣) أبو الفرج القسي ـ آثارنا في الاقليم السوري ـ ص ٢٢ .
(٤) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٣٣٨ .
(٥) النظم الاسلامية ـ ص ٢٢١ ـ ترجمة د . فيصل السامر وصالح الشماع .
(٦) الشيزري ـ المدينة في طلب الحسبة ـ ص ٢١ ـ ترجمة الباز العريني .

وأتاح موقع العراق الجغرافي أيضا للزخارف الجصية وأساليبها العربية الاسلامية التي أبدعتها سامرا ، أن تنتقل بسرعة الى جميع أقطار الشرق الاسلامي فتأثرت فيها المدارس الفنية المحلية في كل منها الى درجة كبيرة . هذا فضلا عن انتقال العناصر المعمارية الأخرى التي ابتكرتها سامرا كمقر نصات الأركان والبدنات وتصميم المئذنة الملوية والشكل الكأسي لتاج العمود الذي صار النموذج الرئيسي لتيجان وقواعد الاعمدة العربية الاسلامية الى بلدان الشرق الاسلامي وفر به بطريق هذا الموقع الجغرافي الفذ .

ويبرز أثر العامل الجيولوجي في انتاج عناصر ووحدات معمارية وأساليب انشائية خاصة ببعض المناطق الاسلامية ، فقد اختصت العراق بتوفر مادة الطمى وقلة الصخور والحجار في الجزء الجنوبي ، بينما كانت الأحجار في المناطق الشمالية منه ، ومن ثم فقد كانت مادة البناء الرئيسية في أكثر مناطق العراق من شمال بغداد حتى جنوب البصرة هي أما قوالب اللبن التي استعملت في معظم دور البصرة والكوفة وواسط ، ودخلت كمادة أساسية في بناء أسوار بغداد ، أو الطوب المحروق (الطابوق). الذي استعمل للجدر والاسقف أيضا ، وذلك لندرة الاخشاب في جنوب العراق ، أما بالنسبة للنخيل فهي متوفرة في العراق ، ولكنها كانت عزيزة على أهلها لما تدره عليهم من محصول ثمين يعد موردا من أهم موارد الدخل منذ العصور القديمة ، فلهذا السبب قل استخدام جذوعها في البناء . وكان الحجر يستعمل في شمال العراق وبخاصة في بنى مدينة الموصل وما حولها لسهولة الحصول عليه من المحاجر المتوفرة في المنطقة الجبلية القريبة من موضع الموصل ، وكان يستخدم معه أيضا الصخر الذي يجلب من مقالع أرض الجزيرة الفراتية الصخرية القريبة من الموصل وكذلك يستخدم معهما الآجر احيانا" .

ويبدو تأثير الظروف المناخية في تشكيل العمارة العربية الاسلامية جليا في كافة الاقاليم الاسلامية ، لأنها تتشابه الى حد كبير في اعتدال جوها شتاء وميله الى الحرارة

صيفا ، فيما عدا الشام وآسيا الصغرى والاندلس . أما في العراق فان جوه القاري قد استلزم في مدينة النجف وكربلاء عمل سراديب أرضية في المنازل السكنية يحتمي بها الأهالي من شدة حرارة النهار ، بينما يستعملون اسطح المنازل العليا للاقامة والنوم ليلا في كافة المدن العراقية .

وكانت وحدات العمائر الدينية والسكنية تعمل مفتوحة في البلاد الحارة ، فظلة القبلة في المساجد وقاعات الصلاة في المدارس وحجرات وغرف البيوت في العراق لها فتحات من نوافذ وشبابيك وكوات بحيث يمكن سدها شتاء وفتحها صيفا .

وكانت توضح وحدات خاصة في معظم العمارة السكنية بمدن العراق الاسلامية مثل المقاعد المفتوحة على اقبية مكشوفة في وسطها ، وذلك لتلقي الهواء الملطف منها ، حيث كانت تقوم بوظيفة مرشح للهواء والاتربة وتكسر من حدة الضوء القوي ، كما أنها تحتفظ بالدفء في الشتاء . في حين زودت أسطح المنازل في معظم المدن العراقية وبخاصة النجف وكربلاء وبغداد بفتحات هوائية تسمى بالعربية (الملاقف) لتتلقى الهواء الملطف وتسقطه من فتحات في السقف الى القاعات والايوانات ، وكأنه نوع من طرق تكييف الهواء . في حين أقيمت في اقبية مساجد ومنازل ودور كل من النجف وكربلاء وبغداد أحواض مائية للاستعمال الخاص ولتلطيف المناخ ـ وتسمى هذه الاحواض في المساجد بالمياضيء .

وبهذا التصميم المبسط للوحدة السكنية والدينية في العمارة العربية الاسلامية تمكن المعمار العربي الفصل بين وظائف الفتحات الثلاث الا وهي : التهوية والاضاءة والرؤية الى الخارج التي تتجمع بالشباك العبادي في العمارة الاوروبية ، متيحا بذلك اعطاء كل وظيفة من هذه الوظائف للعنصر المعماري الذي يؤديها بأكبر كفاءة .

ومن الطرائف التي يرويها المؤرخون ، حول انتقاء المواقع الصالحة لتشييد

المدن ، كان يتم أحيانا باجراء تجربة لاختيار مناخها وذلك بتعليق لحوم في جملة بقاع وأصلحها ما فسد فيه اللحم بعد غيره .

وهذه كما اعتقد اجراءات وقائية اتخذها مشيدوا المدن العربية الاسلامية في انتقاء المواقع الصالحة لنشأة هذه المدن ، ويقال ان الحجاج بن يوسف قد أجرى هذه التجربة عند بحثه عن موضع يصلح لمدينة واسط(١) ، وفعل مثله أبو جعفر المنصور عندما انتقى موضع بغداد(٢) ، وقيل أيضا ان صلاح الدين الايوبي قد استعمل هذه الطريقة عند بحثه عن موضع يقيم عليه قلعته التي تعرف بقلعة الجبل(٣) .

يبدو ـ في ضوء ما تقدم ـ ان العرب قد أوجدوا في بداية التحضر وسكنى المدن نموذجا من التصميم المعماري للمسكن الاسلامي ذي الصحن المفتوح يتمشى مع مناخهم القاري ، وقد عمموا استعماله في كل المناطق العراقية التي قطنوها .

ومن خصائص هذا النموذج ان جزء المعيشة فيه يتكون من صحن مفتوح تطل عليه ايوانات الجلوس ، وتحيط به حجر النوم ، كما نراه في الوحدة السكنية في قصر الاخيضر (شكل ١١) الذي ما يزال قائما في بادية العراق ، باعتباره الوحدة المعمارية العربية الاسلامية الوحيدة الباقية في العراق منذ سنة ١٦٢ هـ ، اذ لم يكشف حتى الآن عن بقايا سكنية يمكن الاطمئنان اليها .

واعتقد ان هذا التكوين المعماري للمنزل العربي الاسلامي يتفق تماما مع المنطق العلمي ، اذ ان الهواء البارد يترسب في أثناء الليل على طبقات افقية في

(١) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ٣/ ٧٥٩ .
(٢) الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ـ ١/ ١٧ ـ ١٨ .
(٣) المقريزي ـ الخطط ـ ٣/ ٣٠ .

الصحن ويتسرب الى الحجرات فيبرد الجدران والارضيات والاسقف والمفروشات . وبما أن الهواء البارد اثقل من الساخن فانه سيحتفظ بالهواء البارد الذي ترسب فيه أثناء الليل الى ساعة متأخرة من النهار مما يجعل منه مخزنا للهواء البارد .

وقد أثبتت بحوث ـ دانيال دنهام[1] ـ العلمية وتجاربه على البيت ذي الصحن كمنظم للحرارة ، سلامة فكرة الصحن في البيت العربي الاسلامي ملاءمتها لجو الصحراء .

وتخلص من هذا ، ان الانسان لا يستطيع أن يقلل من أثر الاسلام في تكوين المدينة العربية وعمارتها . فالاسلام يلقي ظلا من السلطة على المدينة في تركيب بنيتها وتشكيل وحدتها السكنية وتنظيم حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، كما أن الانسان لا يمكنه أن يقلل أيضا من أثر المناخ ووجود المياه في نشأة وتشكيل المدينة العربية الاسلامية . أن هذه العوامل وهي الدين والظروف الطبيعية الخاصة بالموضع والمناخ هي العوامل الفعالة التي أثرت في نشأة ونمو المدن العربية الاسلامية في العراق كالبصرة والكوفة والموصل وواسط وبغداد وسامرا . وطالما استرشد العرب في العراق وغيره من البلدان الاسلامية بهذين العاملين ، فان أصغر مدنهم كانت تتمتع بشخصية ذاتية خاصة وشكل حضري متميز . وعندما طرحت تحت وطأة التكنولوجيا الغربية الحديثة والمواصلات وقوى التوسع ، هذه العوامل جانبا ولا سيما العوامل التشكيلية كالمناخ واختيار مواد البناء والقيم الروحية والانسانية ، لم تصبح المدن العربية في العراق عديمة الشخصية فحسب ، بل صارت قبيحة المنظر ، ومن المناظر التي تدعو الى الاسف مثلا : ان ترى الشارع الحديث الذي لا يتميز بطابع معين في مبانيه الحديثة المختارة ، يطفي ليكستح المناطق القديمة في مدن مثل بغداد

(١) The Court - gard house as on Temperature Regulator . PP - 659 - 666

والموصل وكربلا والنجف .

وعلى وجه العموم ، كانت المدينة العربية الاسلامية العراقية تخطط وفقا لثلاثة نماذج أساسية تطابق نشأتها التاريخية وخصائصها الجغرافية وأسلوب تطورها .

الفصل الثالث

العامل الاجتماعي

١ ـ تمهيد
٢ ـ أثر الفتح الاسلامي في اختلاط القبائل العربية بالعراق
٣ ـ المجتمع العربي في خطط المدن الاسلامية بالعراق .
٤ ـ الاعاجم منشؤهم ودورهم الاجتماعي والسياسي في تطور المدن الاسلامية .
٥ ـ أهل الذمة وأثرهم في نمو المدن الاسلامية بالعراق .

تمهيد

كان يتنازع سكان بلاد الرافدين من حيث تكوينها العنصر والثقافي عاملان رئيسيان ، وهما الزحف من الغرب والجنوب ومصدره جزيرة العرب ، والزحف من الشرق ومصدره ايران . وقد كان العامل الأول أقدمها وأكثرها أهمية في تكوين سكان البلاد المذكورة . فقد وضعت الموجات السامية المتعاقبة الخارجة من جزيرة العرب من أواسط الالف الرابع قبل الميلاد الى أواسط الألف الثاني قبل الميلاد من أكدية وآشورية واموريه وارامية المادة الاساسية بالنسبة لأكثرية بلاد الرافدين ، المادة التي ظلت متغلبة الى عهد الفتوحات الاسلامية الكبرى في القرن السابع الميلادي بالرغم من تعدد الغزوات القادمة من ايران مثل العيلاميين والكوتيين والكاشيين والاخمينيين والقرشين والساسانيين الذين زاد حكمهم لهذه البلاد على عشرة قرون .

ومع أن غالبية السكان ظلت من الساميين ، فقد تركت الغزوات وعهود الحكم الايرانية أثرا ظل مستمرا مدة غير قصيرة بعد الفتح العربي الاسلامي في القرن السابع الميلادي . وعندما بدأت الفتوحات المذكورة وهي أعظم حدث في تكوين البلاد عنصريا وثقافيا كان سكان بلاد الرافدين يتألفون من العناصر الآتية :

أ ـ اكثرية السكان وهم أراميون يتكلمون لغة سامية قريبة من العربية وينتشرون في مختلف المدن والقرى من الشمال الى الجنوب .

ب ـ العرب وأكثرهم قبائل يسكنون بلاد الجزيرة أي المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات وتسمى بلادهم ديار ربيعة لأنهم ينتمون الى مجموعة القبائل التي انطلقت

عليها هذه التسمية . ومنهم من كان ينتقل على جانبي الفرات ويمتد الى البادية ، ويبدو مما أورده ابن رستة سنة ٢٩٠ هـ[١] : ان قبائل عربية من يشكر وباهلة وبني عنبر وكانت تجاور أرض ميسان في جنوب العـراق قبـل أن يغلبهـا الماء ، ويكون البطائح في أواخر العهد الساساني .

حـ ـ الاكراد : ويبدو انهم كانوا ينتشرون في الجبال الواقعة في المنطقة الشمالية الشرقية . يضاف الى ذلك أقلية من اليهود كانـت تنتشر في مدن وقـرى عديدة في مختلف انحاءالبلاد وصائبه يعيشون في بطائح منطقة واسط .

---

(١) الاعلاق النفيسة ـ ص ٩٥ .

٢ ـ أثر الفتح الاسلامي في اختلاط القبائل العربية بالعراق :

كان خروج العرب من الجزيرة العربية الى العراق بسبب الفتح مقدمة لعملية الاختلاط ، فقد كان هذا الخروج يتخذ شكلا جديدا بعيدا كل البعد عن التجمع القبلي أو العصبية القبلية لأول مرة في التاريخ العربي ، فكان الانتداب للحرب والجهاد لا يتخذ شكلا قبليالأن الخليفة عندما كان يستنفر القبائل على الجهاد ويرغب الناس فيه ويحثهم عليه ، فكانت الجموع تتوافد على المدينة من كل حدب وصوب من أنحاء الجزيرة العربية فتجتمع هذه الوفود ليرسلها الى الجهة التي يراها بحاجة الى مدد فيمدها بالجنود بعد ان يعين أميرا عليهم ، وقد ذكر الطبري[١] : ان أمير المؤمنين كان اذا اجتمع اليه جيش من أهل الايمان ، أمر عليهم رجلا من أهل العلم واللغة) .

وكان لهذه الفتوحات أثر كبير في مزج القبائل وصهرها في بودقة الاسلام انصهارا كاملا ، وتكوين طابع جديد يميزها تمييزا واضحا عن طابعها القبلي القديم الذي تميزت به قرونا عدة ـ وليس أدل من ذلك في قول البطري[٢] : وتتابع أهل العراق من أصحاب الأيام الذين شهدوا اليرموك ودمشق ورجعوا محدين لأهل القادسية فتوافوا بالقادسية من الغد وبعد الغد وجاء أولهم يوم اغواث وأخرهم من

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ـ ٣/ ٩٠ .

(٢) المدر نفسه ـ ٣/ ٨٤

بعد الفتح من بعد الغد من يوم الفتح قدمت امداد فيها مراد وهمدان ومن اغنـاء الناس ، وهدا دليل على أن العرب لم يخرجوا الى الفتح على أساس قبلي أو فردي أو على نطاق القبيلة حيت أن أصحاب أهل العراق من أصحاب الأيام لم يكونوا قبيلة واحدة ، وانما كانوا من قبائل متعددة خرجوا مؤمنين برسالة سامية يحدوهم الامل في نشرها والدفاع عنها .

وكان المجاهدون يستصحبون نساءهم الى جبهـات القتـال مما ساعـد على الاختلاط أيضا ولم يكن ـ على ما يذكر الطبري[1] ـ من قبائل العرب احد أكثر امرأة يوم القادسية من بجيله والتخع ، وكان في التخع سبعمائة امرأة فارغة وفي بجيلة ألف وأن هؤلاء وهؤلاء صاهـروا احياء العـرب وان المهاجـرين تزوجوهــن حتـى استوعبوهن ، وان التخع وبجيلة كانت تسمى أصهار العرب واختان المهاجرين .

ان هذا التزاوج أدى بلا شك الى توسيع روابط القبيلة الواحدة مع عدد من القبائل بعد ان كانت روابط الزواج تكاد تكون محصورة في قبيلة واحدة .

ويعتبر الدين الاسلامي الذي خلق نوعا من التجاني الاجتماعي داخل نطاق المنطقة التي انصوت تحت سلطته ، من العوامـل المهمـة التـي أدت الى اضعـاف الروابط القبلية وذلك بدعوته الى الاخـوة والمسـاواة بـين مقنقية بصرف النظـر عن أصلهم وجنسهم ولونهم .

وقد أدت الفتوحات الاسلامية في القرن السابع الميلادي الى تغيير أساسي في تركيب السكان العنصري والثقافي ، فقد فتح العـراق على مصراعيه أمـام القبائـل العربية القادمة من جزيرة العرب وصارت هذه البلاد قاعدة للتوسع في ايران والشرق ومصرت مدن جديدة مثل البصرة والكوفة والموصل وأنشئت مدن بعدها مثل واسط وبغداد وسامرا واصبحـت هذه المدن قاعدة لاجتذاب عناصر عربية وأخرى غـير عربية من فــرس وترك غيرهم وبودقة عنصرية وثقافية غلبت عليهـا اللغـة العـربية

(١) تاريخ الرسل والملوك ـ ٣/ ٨٢ .

والثقافة والاسلامية وكان من نتائجها المهمة أن دخلت اللغة العربية في صراع مع اللغتين الايرانية والفارسية ، فكانت الغلبة لها عليهما ، بينما دخل الدين الاسلامي في صراع آخر مع المسيحية واليهودية والمجوسية انتهى بسيطرته أيضا .

٣ ـ أثر المجتمع العربي في تخطيط المدن الاسلامية بالعراق :

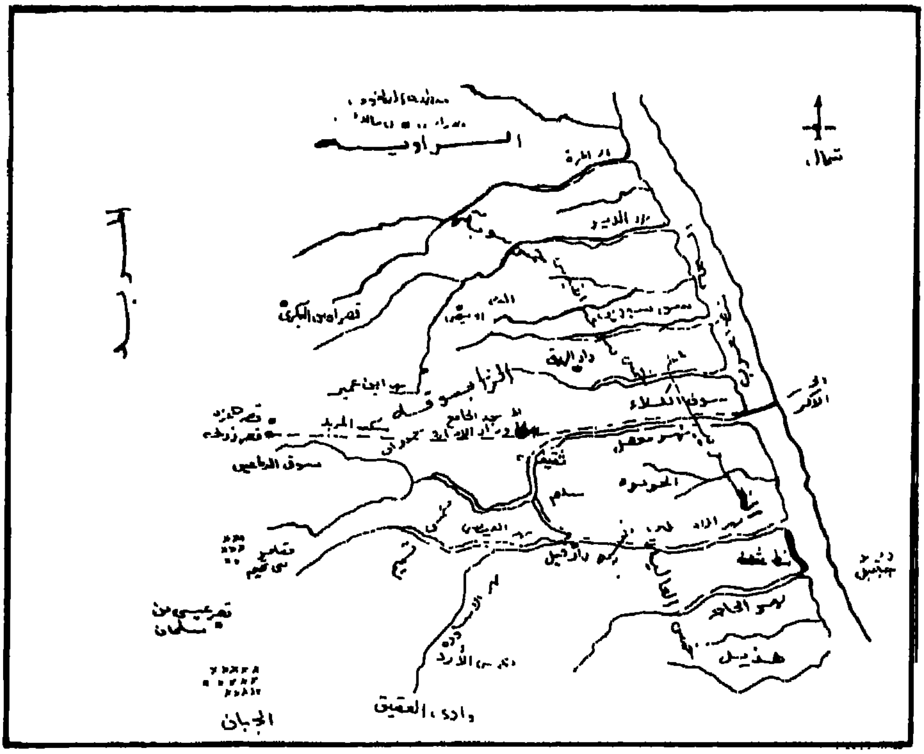
للعامل الاجتماعي أثر كبير في تخطيط المدينة الاسلامية بالعراق ، فالبصرة (شكل ٧) خططت تخطيطا خماسيا على أساس من توزيع القبائل بحسب انتماءاتهم القبلية ، فكان لتميم الشأن الأول في تكوينها وقد صارت خمسا ، وفيها ضبه والرباب ، كما صارت عبد القيس خمسا ، وفيها ضبه والراب ، كما صارت عبد القيس خمسا ، وبكر بن وائل خمسا والازد خمسا ، وأهل العالية من قريش وكنانة وقيس عيلان والانصار وطوائف من قبائل أخرى خمسا[١] .

وما حدث بالكوفة شبيه بما حدث في البصرة ، وان كان قد اتبع فيها نظام الاسباغ (شكل ٨) على أساس من توزيع القبائل ، وتكونت مجموعات من الناس يسميها المؤرخون والبلدانيون (الاسياع) . فصارت كنانة وحلفاءها من الاحابيش وجديلة وهم بنو عمرو قيس عيلان سيعا ، وصارت قناعه ومنها يومئذ غسان بن شيام وبجيلة وخثعم وكنده والحضارمة والازد سيعا ، ومذجح وحمير وهمدان وحلفاؤهم سعيا ، وتميم وسائر الرباب وهوزان سيعا ، وأسد وعظفان ومحارب والنمر وضبيعة وتغلب سبعا ، واباد وعك وعبد القيس وأهل هجر والحمراء سيعا ، وقبيلة طي وشيبان من بكر بن وائل سيعا[٢] .

---

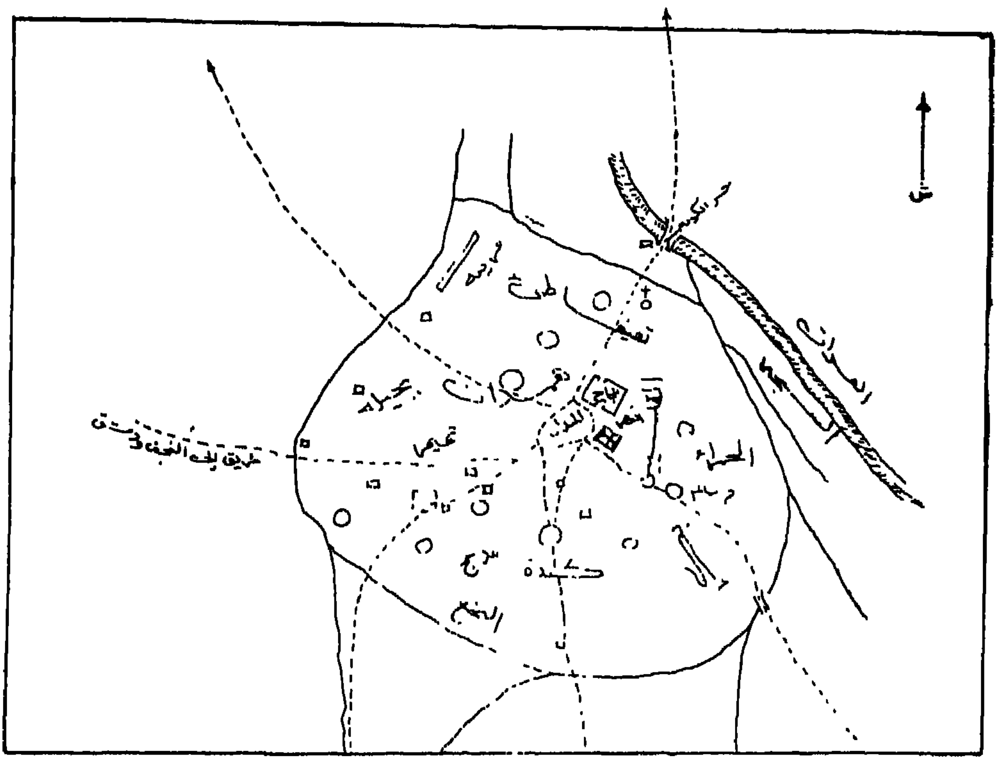
(١) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٣/ ٩٢ .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٢٧٦ ـ ماستيون ـ خطط الكوفة ـ ص ١٠ ـ ١١ .



« البصرة » « تخطيط تقريبي »

شكل (٧)



« الكوفه »

عن/ خطط الكوفة لماسـتيون

شكل (٨)

ويلاحظ فلهاوزن[1] : ان القبائل اليمنية المشهورة مذجح وهمدان وكندة هي التي لها السيادة والسطرة في الكوفة ، كما يرى أن قبائل الشمال في البصرة ، كالعالية وتميم وبكرين وائل لها الصدارة في ترقي السيادة والسيطرة فيها .

ويبدي ماستيون ملاحظة يذكر فيها[2] : ان القبائل العربية التي نزلت الكوفة عند تأسيسها كانت تنظم الى جانب القرشيين سكان الحجاز المتحضرمين عناصر شديدة البداوي من سكان الخيام ، ثم عناصرمتحضرةمن القبائل العربية الجنوبية الاصيلة الذين نزحوا من اليمن وحضرموت وهؤلاء كانوا قيين وعناصر أخرى متحضرة تماما من سكان المدن والقرى اليمنيةعن مذجح وحمير وهمدان ، ويرى ان هذه العناصر اليمنية المتحضرة من سكان جنوبي الجزيرة العربية وهم أهل المدن والقرى ، كانوا سببا في تحضر العنصر العربي تبعا لصفة عقلية تختلف - كما يلاحظ ماستيون عن البصرة التي كانت عناصرها قليلة متراخية ، مع ما نلاحظ من القابلية الخاصة للعناصر الجنوبية في التمدن والتحضر وتمايز الثقافة الاسلامية بينهما .

وكانت الموصل (شكل ٩) مقسمة خططها الى احياء وميادين ومحلات ، وكان كل حي فيها يسمى باسم القبيلة التي نزلته ، كحي خزرج ، وحي تغلب ، وحي كندي ، وحي ثقيف ، وحي بني هاشم ، وحي قريش ، وحي طي ، وحي اليهود ، ومحلة الجصاصين ، ومحلة الطيالين ، ومحلة القلعة ، ومحلة درب دراج[3] . . . الخ .

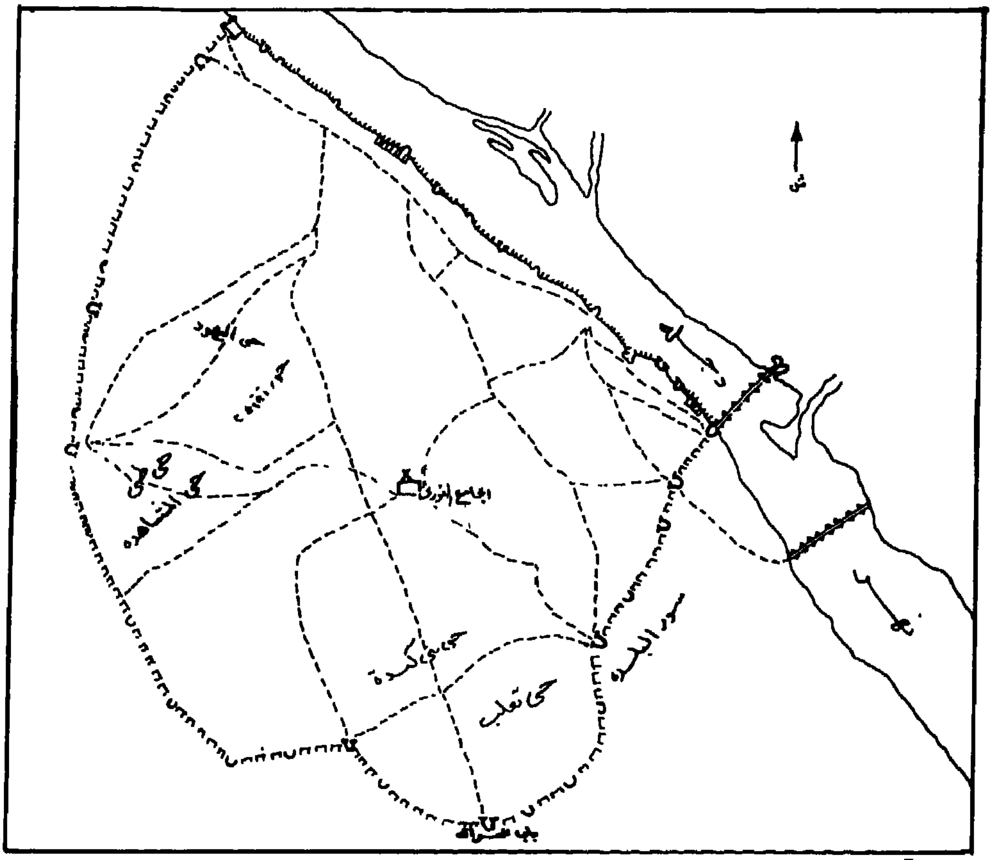
وبرغم هذه الاخماس وتلك الاسباع والاحياء والمحلات التي تكونت على أساس من القبائل ، فانها برغم ذلك . فقد شكلت خطوة جديدة في سبيل بناء

---

(١) الدولة العربية - ص ٣٩٨ .

(٢) خطط الكوفة - ص ١٣ .

(٣) سعيد الديوه جي - خطط الموصل - ص٦ .



« الموصل »

عن/ سعيد الديوه جي « خطط الموصل »

شكل « ٩ »

مجتمع جديد يحس احساسا وجدانيا اكثر شمولا من الاحساس بالقبيلة .

حقا ان الجيوش والامدادات لم تكن تصنف حين انتدابها على أساس قبلي ـ كما رأينا ـ وان كان من الممكن تجمع أعداد هائلة من قبيلة واحدة في جند واحد والذي يلفت النظر ان احساسا وجدانيا شاملا قد استحوذ على جميع النزعات القبلية وصهرها في بودقة الجهاد في سبيل الله . لكنه لم يستطع الى حد ما القضاء على هذه النزعات ، وانما حجبها لبعض الوقت فترات تقصر أو تطول حتى كان تخطيط هذه الامصار الثلاثة على أساس القبائل ، فاذا بأحاسيس جديدة تنشأ بحكم طبيعة الحياة في المدينة وبحكم علاقات الجوار والعطاء والخضوع لعوامل واحدة .

ثم تتابعت مظاهر الاختلاط بين القبائل حين استقرت في المدن واختلط بعضها ببعض اختلاطا واضحا ، فكان العمق مدى وأبعد أثراً لاشتراكها في حياة مدينة واحدة ، حتى ان سلطة القبائل السياسية وروابطها القبائلية على أساس رابطة الدم ، حيث تأثرت كثيرا بعد استقرارها في هذه الامصار وخضوعها لسلطة الامراء العليا التي لم تكن تستمد قوتها من رابطة الدم[1] .

وليس أدل على مدى اختلاط القبائل في كل من الكوفة والبصرة والموصل من أن تقرأ أسماء القبائل التي نزلتها ـ فنجد في البصرة والكوفة قبائل من الشمال وقبائل من الجنوب ومن نجد ومن الحجاز ، قبائل من مضر وأخرى من ربيعة وغيرها وبذلك محيت الفروق المكانية بين القبائل ، كما أنها حاولت أن تحمي الفروق الاخرى أو تخفف شيئا من وحدتها ، فربطتا بين القبائل ، ولم تدعا كل قبيلة ان تعيش وحدها كما حدث في خطط الموصل ، بل كونتا منها كتلا اجتماعية جديدة تسمى بالاخماس والاسباع ، ومما لا شك فيه ان هذا التكتل الاجتماعي المدني قد أدى الى صياغة

---

(١) د . صالح أحمد العلي ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ـ ص ٤٣ .

المجتمع القبلي في البصرة والكوفة صياغة جديدة .

ولما تولى زياد بن أبيه امارة البصرة ، نظم مجتمعها على شكل عشائر وجعل هذا النظام أساسا للتنظيم الاجتماعي والاداري في البصرة كما صار التنظيم المالي منسجما مع النظام العشائري ، ويبدو ـ على ما يقرر د . صالح العلي[1] ـ ان العشائر قد تساوت فيه ، وهكذا تولد نوع من الانسجام في تنظيم السكان العرب ، الا أن هذا التنظيم اقتصر على أهل العطاء ممن كان ينتظر أن يزداد عددهم لعدم وجود قانون يمنع الهجرة الى المصر الذي كانت حياته تعزى بالهجرة اليه .

ومن المرجح أن العشيرة كانت أصغره وحده عسكرية في ميدان القتال وليس هناك أي دليل على أن الجيوش الاسلامية كانت مقسمة الى خيالة ومشاة اذ أن اجتياز الحروب تدل على ان الجيوش كانت مرتبة حسب العشائر وان كان يوجد في كل عشيرة جماعة من المشاة والفرسان .

ولما أعاد زياد تنظيم المدينة ، قسمها الى خمس قبائل كبيرة ـ يسمى كل منها خمسا ويشتمل على عدد من العشائر وبرأسه رئيس له سلطات واسعة ، ولا شك في ان الغاية الأولى من ايجاد هذه الاخماس كانت عسكرية ، كما يتجلى ذلك من ان الجيوش البصرية التي اشتبكت في كافة المعارك بعد عهد زياد أبن ابيه كانت منظمة حسب هذه الأقسام[2] .

ولما تولى زياد بن أبيه أمر الكوفة سنة ٥٠ هـ بعد وفاة المغيرة بن شعبة ، خطا خطوات واسعة أخرى نحو التجمع في خطط المدينة ، فدمج القبائل ـ كما فعل في البصرة ـ في بعضها يشكل أقوى بكثير مما قام به سعد بن أبي وقاص فعدل زياد هذه الاسباع فجعلها أرباعا ومزج القبائل المختلفة داخل كل ربع هادفا من ذلك اضعاف الروح القبلية ، وصارت هذه أقرب الى توحيد القبائل وتجمعها . كما قصد زياد في

(١) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ـ ص ٤٤ .

(٢) المبرد ـ الكامل في اللغة ـ ١/ ٥١ .

هذا التعديل الى تثبيت دعائم الحكم ونشر الامن في ربوع الكوفة ، وأراد بذلك أيضا المحافظة على وحدة الجيش وتماسكه . والابتعاد به عن العصبية القبلية التي تمزقه وتشتت سمكه : اذا ما تفشت فيه وسيطرت عليه[1] .

ويبدو ان تقسيم حامية الكوفة الى أربعة مجموعات كان ـ على ما يذكر فلها وزن[2] ـ المقصود به ان تتوحد القبائل المختلفة في مجموعة ليكون قائدها معينا من قبل الحكومة لا قائدا قبليا .

ومن هنا نلاحظ ان الحياة المدنية وما تتطلبه من ضوابط والتزامات كفيلة باحداث أعرق التغييرات في حياة القبائل العربية التي استقرت في مصرى البصرة والكوفة وفي علاقاتها العامة ، فقد أدى ربط النظام القبلي من قبل زياد ـ كما أشرنا ـ عامة في الجهاز الاداري للدولة بالضرورة الى تدهور ، واضح في سلطة القبائل ومراكزها . فاستقرار هذه القبائل في المصرين وخضوعها لسلطة الأمير الحاكم الذي لم يكن يستمد سلطانه من علاقة الدم التي تربطه بالآخرين ، اضعف من فعاليتها السياسية ، وقلل من شأن الرابطة التي كانت تقوم بين أفرادها على أساس صلة الدم والقربى ، وكان نفوذ الأمير الذي يشمل المصر ويتعداه في بعض الاحيا ن الى امصار أخرى ، وقد قلص من دائرة نفوذ الزعماء القبليين الذين كانوا في معظم الأحوال يخضعون في توليهم المناصب للحكومة المركزية[3] .

وهكذا صارت الزيادة المطردة في سلطة الأمير على حساب القبائل التي فقدت بالتدريج حريتها على الحركة .

وكانت مهمة الأمير في حفظ الأمن والنظام داخل المصر مهمة بالغة الصعوبة في البداية ، وذلك لجموح المستبدين من الاعراف وتمسكهم بعاداتهم اليدوية .

---

(١) د . يوسف خليف ـ حياة الشعر في الكوفة ـ ص ٣٤ .
(٢) الدولة العربية ـ ص ١٢٥ .
(٣) الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ ١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١ ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ١/ ٢٩٦ .

وكلما زادت سلطاته اكتسب الفعالية اللازمة في تدبير شؤون المصر السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فأصبح بهذه السلطات مركز القوة الحقيقية التي يدين لها الجميع بالولاء في المصير . وقد دفعت سيطرته على النظام المالي ونفوذه السياسي والاجتماعي على زعماء القبائل بهؤلاء الزعماء للتنافس فيما بينهم على أن يكسبوا رضاه ولينالوا بالتالي قدر أكبر من السلطة على قبائلهم من جراء ذلك ، وقد أدى ذلك بالضرورة الى اضعاف قوتهم العقلية وتبديد ما كان لهم من أهمية ، وما كان من الممكن للمجتمع اليدوي في معرى البصرة والكوفة أن يحافظ بصراحة ولمدى طويل من الزمن على التوازن بين نظمه الموروثة وسلطة الأمير الصاعدة التي لا تقهر[1] .

وكان نمو المصرين يدعو لاقامة جهاز اداري يتطلب استخدام الموظفين لادارته من البارزين في المصرين الذين أصبحت مصالحهم الشخصية تزداد ارتباطاً بمصالح الأمير وادارته . وكانت قوة هذه الفئة الادارية الحاكمة تزداد مع الزمن ، وتطغي على المجتمع القبلي وغيره من الفئات التي كانت تفقد نفوذها بالتدريج ، حيث لم تعد هذه العناصر ذات وزن كبير الا في أوقات الأزمات والفوضى حين ينفرط عقد النظام ، فعندما تجد هذه العناصر فرصتها في تفرض وجودها عن طريق الثورة والصدام والتمرد والعصيان .

وقد بلغت قوة الأمير وفعالية جهاز امنه في المصرين مرتبة في أيام زياد وأبنه عبيد الله (٤١ هـ ـ ٩١ هـ) والحجاج بن يوسف الثقفي (٧٥ هـ ـ ٩٥ هـ) لم يعد معها معها مجال لنقد السياسة الرسمية للدولة ، الا عن طريق العنف ، كما تشهد بذلك ثورات المجموعات المختلفة من خوارج وشيعة وسواهما . وقد استعان الحكام في سبيل تدعيم سلطتهم بكل وسائل الترغيب والترهيب ، فقد لجأوا للتهديد والسجن

(١) البلاذري ـ انساب الاشراف ـ ٤/ ٢٩ ـ مخطوط .

والتقى وغير ذلك من صنوف القهر لكسر حدة المقاومة في المصرين[1].

ويبدو ان سكنى العرب في أخماس البصرة وأرباع الكوفة واحياء الموصل جنبا الى جنب جعلهم يشعرون أنهم أبناء المدينة التي يسكنونها . وتفرض عليهم نوعا من العلاقات الاجتماعية مما جعلهم يحسون أنهم وحدة متجانسة متشابهة الملامح والسمات ، فبدأ يتسرب الى نفوسهم احساس بالمدينة ، ولكن هذا الاحساس لم يقض على احساسها المتأصل بالقبيلة ، وانما ظلت ـ على ما يذكر د. أحمد أمين[2] ـ رواسب لا شعورية في أعماق تفكيرها . أي تحولت الى عصبية للمدينة التي سكنوها .

ومن هنا بدأت تظهر في هذه الامصار ظاهرة اجتماعية ، جديدة حيث تحولت الحياة القبلية في المصرين الى حياة قبيلة تؤمن بالمدينة تستطيع ان تسميها (الاقليمية) وهي انتسمى القبيلة باسم المدينة ، فهي في الواقع حياة قبيلة مدنية تؤمن بالقبيلة ، كما تؤمن بالمدينة ، أو على حياة ـ كما يعبر عنها الاصفهاني[3] ـ تؤاخي بين ابنائها بالعشيرية والبلدية . وقد ذكر لنا ابن الفقيه أمثلة كثيرة على هذه الظاهرة الجديدة في مختصر كتاب البلدان[4] ، اذ فيه تتردد عبارت : تميم الكوفة وتميم البصرة وعبد القيس الكوفة وعبد القيس البصرة وبكر الكوفة وبكر البصرة ، وكذلك في خطبة الاحنف ، ابن قيس زعيم تميم البصرة تتردد أصداء قوية لهذه الظاهرة الاجتماعية ، وقد قبلت بمناسبة اندلاع الفتنة في البصرة بين الازد وربيعة انتم اخواننا في الدار ، ويدنا على العدو ، والله لازد البصرة أحب الينا من تميم الكوفة ، وازد الكوفة . أحب الينا من تيم الشام[5] .

(١) ابن سعد ـ الطبقات ـ ٧/ ٧٧ وما بعدها .
(٢) فجر الاسلام ـ ١/ ٢٢٣ .
(٣) الاغاني ـ ٦/ ٣٣ .
(٤) ص ١٧٠ .
(٥) المبرد ـ الكامل في اللغة ـ ١/ ١٢٢ .

ونتيجة لهذه الظاهرة أصبحت تثور بين البصرة والكوفة المفاخرات والمناظرات كما كانت تثور قديما بين القبائل ، ويبدو أن هذه القبائل لم تستطع أن تتخلص من تلك الرواسب القبلية التي كانت تسيطر على حياتها القديمة في الصحراء أو البادية فأخذت القبائل العربية في كل مدينة تفخر بطبيعة الأرض التي تنزل فيها ، وموقعها الجغرافي ، وبما كان على يديها من فتوح ، وبمن نزل فيها من الصحابة ، وبما تمتاز به من العلم ونحو ذلك . وقد ذكر ابن الفقيه[1] ؛ والمسعودي[2] ، وياقوت[3] ، وغيرهم كثيرا من هذه المناظرات والمفاخرات بين أهل المصرين .

ويبدو أن هذه والمناظرات والمناظرات قد تسربت الى الشعر في كل مدينة ولنا في لامية ـ أعشى همدان ـ التي ذكرها ـ ابن الفقيه[4] ـ في تفضيل الكوفيين على البصريين وكذلك .رائيتي النجاتي التي ذكرها المؤلف نفسه في ذم الكوفيين ومدح البصريين ـ وغيرهم ـ خير دليل على تسرب الشعر الى المفاخرات.

وهكذا بدأت كل مدينة تحاول أن تحقق لنفسها شخصية متميزة في جوانب الحياة المختلفة سواء كانت حياة اجتماعية أم سياسية أم عقلية أم فنية .

وعلى كل حال ومهما يكن التطور الاجتماعي الذي أحدثته هذه المدن الجديدة ، فقد كانت البصرة والكوفة هما المدينتان اللتان تمثلان هذا التطور اصدق تمثيل فقد تحولت ـ على ما يقرر د . أحمد أمين[5] ـ اليهما كنوز المدائن وحضارة بابل والحيرة ، وتركزت فيهما مدينة العراق في عهد الامويين ، حتى كان اذا قيل العراق فمعناه البصرة والكوفة ، وكانوا ـ على ما يذكر ابن رسته[6] ـ أحيانا يطلقون عليهما

---

(١) مختصر كتاب البلدان ـ ١٦٣ ـ ١٧٣ .
(٢) مروج الذهب ـ ٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .
(٣) معجم البلدان ـ ٧/ ٢٩٧ ـ ٢٩٩ .
(٤) مختصر كتاب البلدان ـ ص ١٦٦ ، ١٨٥ .
(٥) فجر الاسلام ـ ١/ ٢٢١ .
(٦) الاعلاق النفسية ـ ص ١٩٥ .

العراقيين ،وأحيانا ـ على ما يذكر البلاذري[1] ـ المصرين ، الا أن الكوفة كانت أصدق تمثيلا لهذا التطور من البصرة ، والحقيقة ـ كما يعبر عنها ماستيون[2] ـ ان الكوفة كانت مركزا مهما لحادث اجتماعي عظيم ، وعاصمة لتأسيس الحضارة الاسلامية يومذاك . ولم تكن أختها البصرة ولا دمشق حتى ولا الفسطاط والقيروان ، لتعرض لنا صورة واضحة رصينة كالكوفة ، وذلك في التمصير وتثبيت القبائل البدوية الفاتحة المنتصرة ، واستقرارها على حافة الصحراء في ريق مماس الى لسان من الرمل اليابس النافذ في منطقة تروي بمياه شط عظيم هو الفرات ، وفي جزء من ذلك القطر الذي كانت له مدنية زاهية زاهرة في الأزمنة الغابرة .

أما واسط فقد أنشأها الحجاج ليحول بها دون اختلاط الجند الشامي بأهل البصرة والكوفة ، لأن سكان هاتين المدينتين ـ كما يدعي ـ اخلاط من الناس يعتنقون أفكارا وآراء متباينة ومتعددة ، كما كان أهل السواد من النبط وغيرهم يمنعون أيضا من السكنى في واسط[3] . فنستنتج من هذا ان خطط واسط ارتبطت كل الارتباط بسكنى الجيش الشامي والمخلصين من العرب للحكم الاموي في العراق ، فجاءت ـ على ما أسلفنا ـ خططها على شكل محلات يقطنها الجند الشامي وغيرهم من العرب الموالين للسلطة ، فكانت حياتها الاجتماعية تسير فيها وفقا لهذا النمط العسكري الذي من أجله أسست واسط لادارة العراق والمشرق .

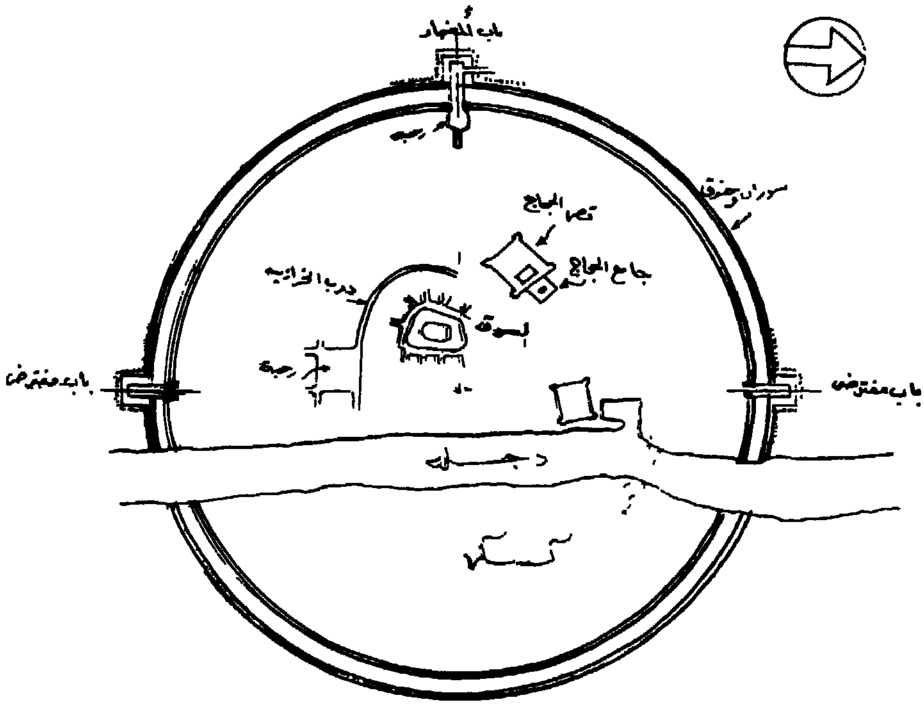
وكان العامل الاجتماعي العربي واضح الأثر في خطط بغداد ، فقد كانت خططها موزعة الى أربعة أقسام (شكل ١١) فيها منازل العرب والفرس والترك ، فصل بينها أربعة شوارع تفضي الى أربعة أبواب هي باب البصرة وباب الكوفة وباب الشام وباب خراسان ، ومن هذه الأبواب الأربعة توجد السكك والدروب واقترنت

---

(١) فتوح البلدان ـ ص ٢٧٧ .

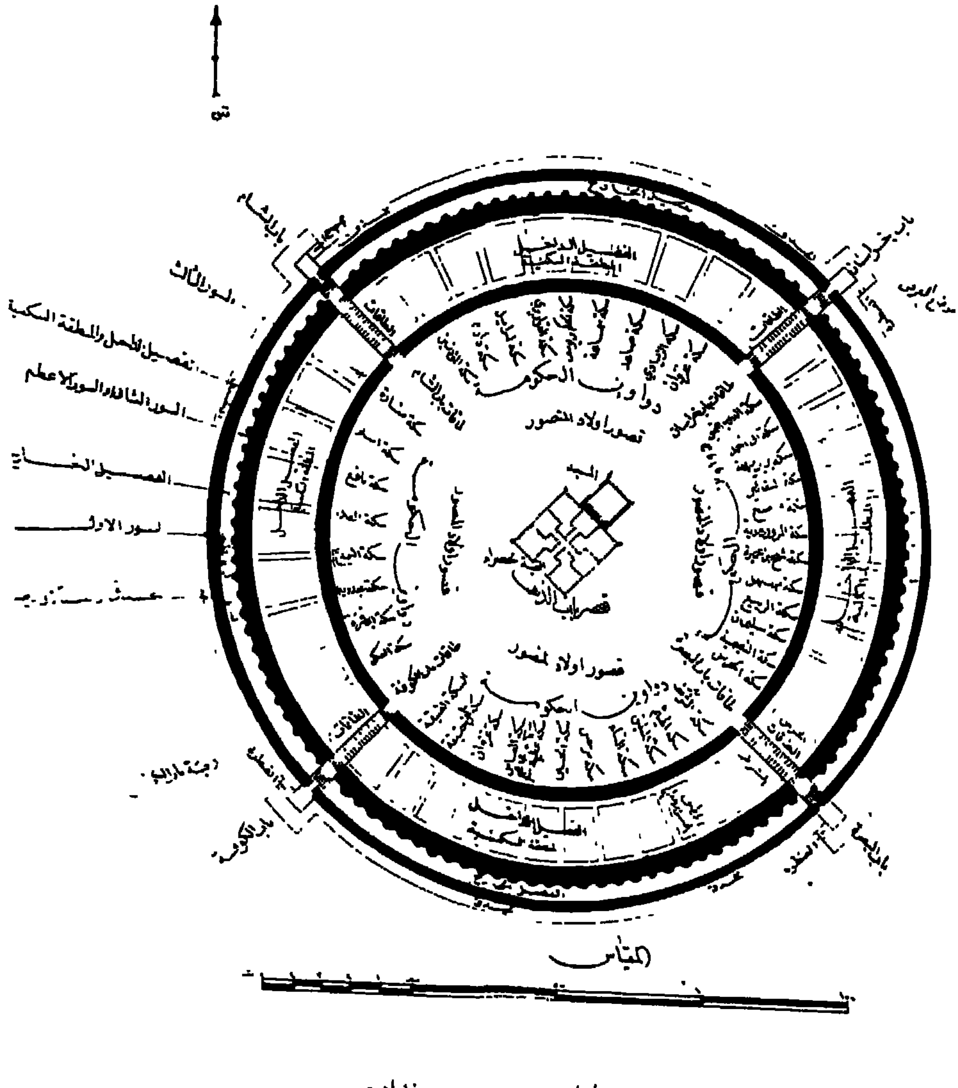
(٢) خطط الكوفة ـ ص٤ .

(٣) الجاحظ ـ البيان والتبين ـ ١/ ٣٧٠ .



« واسط » عن/ فؤاد سفر

شكل (١٠)



عن/ احمد سوسه « يرى بغداد »
شكل (١١)

بأسماء القواد والموالين ولسكان كل سكة كسكة الهيثم وسكة وثيق البنا ، وكانت الأقسام الاربعة التي تنتظم خطط بغداد موزعة على العرب والفرس والترك على شكل قطائع ، وحول كل قطيعة توجد منازل صاحب القطيعة كقطيعة الحسن بن قحطبة التي حولها نشأت منازله ومنازل أهله من العرب ، وقطيعة رباوه الكرماني وحولها منازل أصحابه من الفرس ، وحول قطيعة الحارث بن رفاد الخوارزمي أقيمت منازل الخوارزمية من الاتراك(١) .

وعندما ضاقت بغداد بالمهاجرين أضطر المنصور أن يخرج الأسواق من بغداد الى ربص الكرخ ، ولم يكفه هذا بل عمد الى معالجة هذه الهجرة الى بغداد بانشاء معسكر المهدي في الجانب الشرقي من دجلة مقابل مدينة السلام والذي عرف فيما بعد بالمهدية أو الرصافة ، واقطع ـ على ما يذكر اليعقوبي(٢) ـ المنصور أخوته وقواده بما يماثل ما أجراه في مدينة السلام .

وهذا الاجراء الحضري الذي اعتمده المنصور على ما اعتقد ، لا بد وان يكون من تدابيره الامنيه ، لكي تصبح للادارة العباسية ذراع طويلة تمكنها من التحرك بسرعة لما يحدث مستقبلا من أمور جسام تهدد أمن الدولة ، كما انه من جانب آخر معالجة لأزمة السكن التي تتفاقم بمرور الايام في بغداد بسبب الهجرة المتزايدة عليها ، مما يعرضها الى ارباك اداري واجتماعي وامني ، في حين تم للمنصور بانشاء معسكر المهدي العربي التوازن بين قوتي العرب والفرس باعتبار ان مدينة السلام ، كان يطغى عليها العنصر الفارسي .

وللعرب أثر واضح في تخطيط سامرا الى جانب خطط الاتراك وكانت خطط العرب في سامرا هي عبارة عن قطائع ممتدة على جانب الشارع الاعظم (٣) . ولكن

(١) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ١٤ وما بعدها .
(٢) المصدر نفسه ـ ص ١٨ .
(٣) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٢٥٩ .

تضخم سامرا بسبب الهجرة السكانية المستمرة اليها وقلقهـا السياسي النـاشيء من تدخل الاتراك في شؤون السياسية وادارة الدولة في أيام المتوكل جعله مضطرا الى أن يلحق بها مجمعا عمرانيا في شمالهـا اقامـه لاعوانه وأصحابه عرف باسمه ، الا أنه ترك بعد اغتياله من قبل الاتراك فتدهور واضمحل[1] .

(١) المصدر نفسه ـ ص ٢٦٦ ، ـ ٢٦٧) .

٤ ـ الأعاجم منشؤهم ودورهم الاجتماعي والسياسي في تطور المدن العربية الاسلامية بالعراق :

الى جانب العرب عاشت جماعات أعجمية ، كالفرس والاتراك والعبيد لها خطط ومنازل في المدن الاسلامية التي نشأت بالعراق خلال القرون الثلاثة الهجرية الأولى ، كما لها دور اجتماعي ، فعال في التطور السياسي والمدني بالدولة الاسلامية .

والعرب ـ كما ذكرنا ـ حينما نزلوا أرض العراق عند بدئهم الفتوح أسسوا معسكري البصرة والكوفة ، انما نزلوا أرضا عذراء غير مأهوله بالسكان . فكانوا هم في الحقيقة العنصر المؤسس لهاتين المدينتين ، والجنس الأول في تكوينهما ، ولم يكونوا عنصرا وافدا أو جنسا ثانويا كما كانت الحال في مدن الشام ومصر وفارس والمغرب .

وأما الحقيقة الثانية فهي ان البصرة والكوفة ، قامتا على اتصال السواد بالبادية ، فالبصرة نشأت على بعد بضعة أميال جنوبي غربي الابله الميناء الفارسي بجنوب السواد قريبة من شط العرب ، في حين قامت الكوفة شمالي غربي السواد على مسافة ميلين شمالي الحيرة ذلك النفر من نفور البادية الذي كان معسكرا ثابتا للرؤساء اللحميين تحت السيطرة الفارسية [١] .

وهذان المصران قاما في منطقتين يذكر عنهما المؤرخون ، أنهما كانتا محطتين

---

(١) م. ج. ـ كنز ـ الحيره ومكه ـ ص ١٩ ـ ترجمة د. يحيى الجبوري .

للقوافل التجارية ومركزين للتبادل التجاري بين عمال الفرس من ناحية وبين كبار أصحاب الابل من البدو من ناحية أخرى[1] . كما أنهما كانتا تجمعان بين أهل المدن والقرى الفارسيه والآراميه وبين العشائر الصغيرة الأليفة من رعاة الغنم الذين اعتادوا التردد لهذين المصرين .

فمن الطبيعي أن يكون هذان المصران الناشئان اللذان قاما بين البادية العربية والمدن الفارسية مركزين نشيطين ، تلتقى بهما التيارات العربية البدوية المحلية والخارجية من أعماق الصحراء ، وخصوصا ان طبيعة المهمة التي أنشئت من أجلها كل من البصرة والكوفة ، هي مهمة عسكرية - كما رأينا من قبل - تقتضي ان تزداد هذه التيارات المتعارضة المتدافعة بنشاط وقوة ، وبحكم ما يتصل بهذه المهمة من اشتباكات ومصادمات وما يترتب عليها من سبي وأسر ، ثم ما ينتهي اليه الأسر في النهاية من صلات الحلف والمصاهرة ونحو ذلك .

والواقع أن الجميش العربي منذ ان وطئت أقدامه أرض العراق بدأت صلاته بالفرس أو بأولئك الحمراء كما يسمونهم[2] ، وقد سلكت هذه الصلات عدة طرق منها انضمام جماعة من الفرس الى الجيش العربي وعدتهم القيادة افرادا منهم . ومن ناحية أخرى وقعت جماعات كبيرة العدد من الفرس في الاسر ، وهذه نتيجة طبيعية للوقائع الكثيرة المتعددة التي دارت رحاها بين العرب والفرس ، وان المتتبع لهذه الوقائع يلاحظ أنها أمدت المجتمع العربي بمجموعات ضخمة من الاسرى والسبايا ، وتفيض أخبار هذه الوقائع بذكرهم ولا تكاد تخلو أخبار وقعة منها من الاشارة اليهم .

ويتضح من هذا أن هؤلاء الفرس قدموا الى البصرة والكوفة والموصل أسرى

(١) ماستيون - خطط الكوفه - ص ٦ .

(٢) أبو حنيفة الدنبوري - الاخبار الطوال ص ٢٩٦ .

حرب ، ثم اعتنقوا الاسلام فاعتقهم أسيادهم فأصبحوا ـ على ما يذكر نيكلسون[1] ـ موالى لهم . ويصبح هؤلاء الموالي اعضاء في عشيرة سيدهم ويتمتعون بحرية كبيرة في استغلال مواهبهم وقابلياتهم الفردية ، والمولى حر في اختيار المهنة والعمل الذي يتلائم مع قابليته .

وقد تجمعت في البصرة والكوفة اعداد ضخمة منهم وأصبحت لهم خطط ومنازل فيهما ، وشاع استخدامهم بصورة فريدة قلما نجد بيتا في الكوفة والبصرة يخلو منهم ، وقد أشار المبرد الى ذلك بقوله [2] : يخرج الرجل من أهل الكوفة في العشرة والعشرين من مواليه .

وهكذا منذ البداية أخذت جماعات من هؤلاء الموالي تشترك اشتراكا فعليا في حياة البصرة والكوفة الاجتماعية والسياسية ، وكان عددها يزداد مع الزمن وقد أسلم في ولاية أبي موسى الاشعري للبصرة حوالي أربعة آلاف من الاساورة ، وكانوا فرقة من الجيش الساساني ، وفرض لهم في العطاء كجند المسلمين وسمح لهم بالاقامة في البصرة وحالفوا قبيلة تميم[3] ، كما كان عددهم في الكوفة أيام الامام علي ـ على ما يذكر ابن قتيبة [4] ـ ثمانية آلاف ، حتى قيل ـ على ما يقرر نيكلسون [5] ـ ان الموالي بلغوا في الكوفة نصف السكان .

وكان الزط والسيابجة يقومون بمهمة حفظ الأمن وحراسة السجون في المصرين ، وقد وكل اليهم حراسة بيت المال في البصرة عام ٣٦ هـ في أيام الفتن التي أعقبت موت عثمان (رضى) ، مما يدل على تقدير الحكام العرب لخدماتهم في هذا

(١) تاريخ الادب العربي ـ ١/ ٢١٨ ، ترجمة د. صفاء خلوص .
(٢) الكامل ـ ١/ ٣٢٣ .
(٣) البلاذري ـ فتوح البلدان ٥٢٠ .
(٤) الامامة والسياسة ـ ١/ ١٤٨ .
(٥) المصدر السابق ـ ١/ ٢١٨ .

المجال [١] ، وأصبح هؤلاء موالى لبنى حنظلة من تميم [٢] ، وقد بنى زياد في امارته للبصرة ساحة لهم ، أسكن فيها أربعة آلاف من البخارية كانوا يعرفون ببخارية زياد[٣] .

وفي مثل مجتمعى البصرة والكوفة القائم على العصبية والتخريب ، حيث كانت الغلبه فيه للعنصرالعربي كان السبيل الأوحد لتحقيق مصالح غير العرب هي استغلال نظام الولاء ، وذلك أن يربط الفرد نفسه باحدى القبائل أو العشائر العربية فتحميه وتدافع عن حقوقه . وكان نظام الجوار القبلى الى جانب نظام الولاء سائدين في المصرين .

وتمتع هؤلاء الموالى بالمساوات مع العرب في العطاء أيام الراشدين ، وسمح لهم أن يأخذوا مكانتهم في كل مناحى الحياة جنبا الى جنب العرب جالبين معهم سمات ثقافتهم البارزة المتميزة من أجل اغناء المجموع ولذلك كونوا في المصرين مجتمعا ذا طابع متميز عن المجتمع العربي منهما .

الا انهم فقدوا هذه الميزة أيام الامويين فقد بلغت نسبة استقرارهم بالمصرين مدى أفزعت الحاكمين في هذا العصر [٤] .

ويذكر ان معاوية الأول اقضى الى الاحتف بن قيس وسمره بن جندب وكلاهما من البصرة ، بخوفه من غلبة هؤلاء الموالى وخشيته من وثبتهم على العرب وازالة سلطانهم ، وحدتهم انه ينوى على قتل نصفهم تاركا نصفهم الآخر لاقامة الأسواق وعمارة الطرف ، فدافع الاحنف عنهم دفاعا مؤثرا ، في حين وافق سمره على خطة معاوية ، وأخذ معاوية برأى الاحنف [٥] ، ويبدو انه اكتفى بنقل عدد كبير

---

(١) شارل بلاا ـ الجاحظ ـ ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٥٢٠ .

(٣) ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان ـ ص ١٩١ .

(٤) البلاذري ـ المصدر السابق ـ ص ٥٢٢ .

(٥) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ٣/٤١٣ .

من الزط والسيابجه الى سواحل الشام [1] .

كما أنهم لاحظوا في فترة مبكرة من تعاملهم مع الوضع الجديد انهم ممن يحظوا بمكانة حقيقية في المجتمع العربي الاسلامي ، من دون النفوذ أولا داخل الكيان الاجتماعي ، فكانت صلتهم بمواليهم من العرب هي المقدمة ، وتبين لهم ان انخراطهم في المجتمع الجديد يعتمد الى حد كبير على درجة التعرب وتسرب روح الاسلام التي يحققونها ، وكان لا بد لعلاقة الولاء بين العربي وغير العربي التي يطغى عليها الجانب العربي من ان تبلغ غايتها المنطقية من التعرب الخالص قبل أن يقف غير العربي على قدم المساواة مع موالاة العربي على الاقل في مجال التفاهم اللغوي والديني . وقد قدح هذا الاحساس في نفوس الموالى رغبة جامحه لتحسين مستواهم والأخذ بنصيب من الامتيازات التي كان العرب يتمتعون بها ، وذلك بالتوفر على دراسة العربية والدين الاسلامي والاخذ بناصيتهما .

ولم يمض وقت طويل حتى تبين لهم ان السبيل الى المساواة لم يكن بالسهولة أيام الامويين حين ظنوها أول مرة . ولكن تناقض المصالح وصدامها ، كان يسير في غير صالح الموالى في بداية الأمر . وكان العرب على وعي تام بمركزهم الممتاز ، فقد وضعهم انتصارهم على البيزنطيين والساسانيين في القمة كطبقة حاكمة تجبى اليها كل خيرات الامبراطورية ، وذلك مما قوى من ثقتهم بأنفسهم كصفوة مختارة بالقياس الى رعاياهم . وقد دفعهم هذا الشعور الى التمييز ضد الموالى في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ليحافظوا على موقع ألفوه الذي يحتلونه في الدوله .

وكان التناقض الظاهرى في هدا الموقف وصل في عام ٩٣ هـ ، وهو العام الذي وصلت فيه الفتوحات العربية الاسلامية الى أقصى مداها

---

(١) البلاذري ـ المصدر السابق ـ ص ٥٢٤ .

وكانت مصالح العرب الذاتية كطبقة حاكمة تتعارض تعارضا تاما مع مصالح الجموع الحاشده من غير العرب ، ورغم ان هذه المصالح كانت حقيقية ومحسوسه الا أنها لم تكن قائمة على أوهن الاسس وأضعفها ، حيث كان عناد العرب مخالفا لتعاليم الدين الاسلامي الذى باسمه بنى العرب الدولة .

وكان الأمل في تحقيق المساواة التي دعا اليها الاسلام هو الدافع الاساسى لقبول اعداد كبيرة من غير العرب للعقيدة الجديدة . فقد كان قبولهم الدين الجديد يبشر بفتح أفاق جديدة في الحياة لم يستطيعوا تحقيقها لو احتفظوا بعقيدتهم السابقه . وكانت الدوله العربية الاسلامية على اية حال دولة دينية ، الاسلام فيها القاسم المشترك بين العرب وغير العرب ، وسرعان ما تبين لغير العرب ان الاسلام وتعلم اللغة العربية وحدهما غير كاف لتحقيق طموحهم في مجتمع تغلب عليه العصبيه العربية .

وكان عليهم فضلا عن الاسلام النفوذ من جدار العصبية العربية التي فرضت عليهم صنوفا من التدابير المهينة المميزة [1] ، فلم يسمحوا لهم مثلا بشغل بعض المناصب العامه التي تكسب شاغلها بعض النفوذ والسلطة كمنصب القاضى وقيادة الجيش ، فحين عين الحجاج « سعيد بن جبير » قاضيا على الكوفة صاح الناس « لا يصلح للقضاء الاعربى » [2] ، ولم يحدث ان عين قاضى من الموالى على البصره الا في بداية القرن الثاني الهجرى حين عين الخليفة عمر بن عبد العزيز الحسن البصرى قاضيا عليها [3] .

(١) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ٣/ ٣٢٦٤ ـ ٣٦٨ .
(٢) المبرد ـ الكامل في اللغة ـ ٢/ ٢٨٢ .
(٣) وكيع ـ اخبار القضاة ـ ٢/ ١ .

وكان ميل العرب الى الزواج من نساء الموالى يبطل من فعالية هذه الموانع الدفاعية، وقد بلغ هذا الزواج منهن مبلغا عظيما كما يشهد بذلك دفاع الاحنف بن قيس زعيم البصرة عن الموالى امام معاوية الذي سلفت الاشارة اليه اذ قال : أرى ان نفسى لا تطب بقتل أخى لامى وخالى ومولاى وقد شاركناهم وشاركونا في النسب[1] ، وقد ظلت ثمرات هذه المصاهرات تفعل فعلها في تشكيل الأساس الاجتماعى للمصرين .

ويبدو ان المختار كان أشهر من استطاع ان يستميل موالى الكوفه اليه باعدادٍ ضخمةٍ وأن يحارب بهم بنى أمية . وقد ضرب أبو حنيفة الدنيورى مثلا واضحا بين قبه كثرة هؤلاء الموالى في جيش المختار فقال [2] : وكانوا يسمون بالحمراء حتى انه لم يسمع في جيشه كلمة عربية واحدة .

وبعد المختار انضم موالى البصره والكوفه الى ثورة ابن الاشعث وقد اجتمع - على ما يذكر الطبرى[3] -- يدير الجماجم من أهل المصرين مائة ألف مقاتل ومعهم مثلهم من مواليهم . وعندما فشلت ثورة ابن الاشعث لقى الموالى من الحجاج وبطانته صنوفا من التعذيب الوحشي والقتل الجماعي[4] ، فهرب عدد كبير منهم الى الحجاز متخلصا من ظلم الحجاج وقسوته[5] .

وهذا يدل دلالة واضحة أنهم أصبحوا عونا لكل من خلع طاعة الحكم القائم أو طلب الخلافه من علوين وخوارج وغيرهم ممنين أنفسهم بالخلاص من هذا الظلم والحصول على امتيازات ربما يتغير معها وضعهم الاجتماعى . واتخذوا الدين ستارا لاغراضهم الخاصة فقاتلوا أعدائهم باسم الدين والرغبة في اعلاء كلمة الاسلام .

---

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد - ٣/ ٤١٣ .
(٢) الاخبار الطوال - ص ٣٠٠ .
(٣) تاريخ الرسل - ٨/ ١٥ .
(٤) المبرد - الكامل في اللغة صـ ٢/ ٢٣٩ . وما بعدها .
(٥) الطبري - المصدر السابق - ٨/ ١٩٠ .

وقد طغى العنصر الفارسى على البصره في نهاية العصر الاموى الى درجة تجلت في شخصية المدينة وصبغتها بصبغتها ، فقد رووا أن أبا عمر بن العلاء الفقيه اللغوى الذى كان عربيا قال لأهل الكوفه : لكم حذلقة التبط وصلفهم ، ولنا دهاء الفرس وأحلامهم[1] .

وكانت كثرتهم العددية قد ضمنت استمرار دوران الحياة العمرانية والادارية والاقتصادية والثقافية في المصر من دون توقف حتى في أكثر الاوقات اضطرابا حين كانت القبائل مشغولة بصراعاتها وبقتل بعضها بعضا .

وكانت الموجات الفارسيه قد بلغت درجة المد العالى قبيل قيام الدوله العباسية أو مع قيامها عندما أصبحت الكوفه مركزا للحركة العباسيه وهمزة وصل للعباسيين وانصارهم في فارس وخراسان وقد زاد عددها في الكوفه بعد قيام الدولة العباسية التي ساند قيامها الخراسانيين الذين وصفهم الخليفة المنصور انهم وأنصارهم[2] .

وقد اشترك الفرس في الحياة السياسية في بغداد وكان لهم أثر واضح في ادارة أمور الدولة ، فأسند العباسيون الى الفرس في بغداد منصب الوزارة وقيادة الجيش ، ولكن كثيرا منهم لم ينج من حساب ـ ورقابة العباسيين . فالخليفة المنصور قتل وزيره أبا أيوب المورياني [3] وزج المهدى وزيره يعقوب بن داود وأقاربه في السجن[4] ونكل الرشيد بوزرائه البرامكة واستصغى أموالهم [5] ، وتخلص المأمون من وزيره الفضل بن سهل[6] ، لأنهم جميعا أساءوا استغلال نفوذهم وثقة الخلفاء فيهم .

---

(١) الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ ٢/ ٨٦ .
(٢) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ٢/ ١٩٠ .
(٣) ابن الطقطقي ـ الفخري ـ ص ١٥٧ .
(٤) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ـ ص ١٢٠ .
(٥) ابن الاثير ـ ٦/ ٥٨ .
(٦) ديماند ـ الفنون الاسلامية ـ ص ٨٦ .

ويبدو أنهم ساهموا بنصيب كبير في الحياة الفكرية ، لكن بعضهم لم يصح اسلامه ، فأظهروا نحلهم القديمة كالزندقة ، وبذل الخلفاء العباسيون قصارى جهدهم في تعقبهم واستئصال شأفتهم ، وكان هؤلاء الفرس قد دخلوا في الاسلام ظاهرا ليستفيدوا من حقوق المواطن المسلم، لكنهم ظلوا يخلصون لعقيدتهم القديمة ويعملون على بثها في العلوم والآداب .

وكان لاختلاط العرب بالفرس ان تسربت بعض العادات والتقاليد الفارسية اليهم ولا سيما عيدى النوروز والمهرجان ، كما انتشرت الملابس الفارسية بين العرب وشاع استعمالها كالسراويل وغيرها .

والعنصر الثاني الذي عاش الى جانب العرب في الحواضر العربية الاسلامية وترك أثرا اجتماعيا خطيرا على وضعية العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في الدولة العربية الاسلامية هو العنصر التركى الذي كانت سياسة اصطناعه تأسيس سامرا .

واقتصرت بداية علاقة العرب بالاتراك في تلك الحواضر حتى نهاية القرن الثالث الهجري على استملاك بعض العبيد من الاتراك وتسرى التركيبات ، ولا شك أن كثيرا منهم قد سمع بالمقاومه العنيفة التي لقيها العرب على الجبهات التركيه في بلاد ما وراء النهر موطنهم الاصلى ، كما وصلتهم أنباء شجاعة الأتراك ومقدرتهم العسكرية ، ويزين قصر قصير عمره الاموى في الصحراء الاردنيه حتى الآن صورة ملك الترك الذي أزعج العرب(١) .

ودخلت السرايا التركيبات البيوت العربية وقصور الخلفاء في وقت مبكر فكانت أم الخليفة الاموي يزيد بن الوليد سفديه تركيه . كانت أمهات الخلفاء العباسيين المعتصم والمكتفى والمقتدر من أصل تركى (٢) ، وأعجب العرب بالسرايا

(١) ديماند ـ الفنون الاسلامية ـ ص ٨٦ .
(٢) .

التركيات ، وانهـن ـ على حد تعبير ابن بطـلان ـ قد جمعن الحسـن والبياض ، ووجوههن مائله الى الجهامه ، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوه وقد يوجـد فيهـن السمراء الاسيله ، وقدودهن ما بين الربع والقصر والطول فيهن قليل ، ومليحتهن غاية وقبيحتهن آية ، وهن كنوز الأولاد ، ومعادن النسل ، قلما يتفق في أولادهن وحشي ولا رديء التركيب ، فيهن نظافة ولباقة ، لا يكاد يوجد فيهن نكهة متغيرة وفيهن اخلاق سمـحه وقلة وفاء[1] .

كذلك أعجب العرب بالصفات العسكريه للاتراك فقد كتب الجاحظ رسالة في مدحهم فوصفهم : بأنهم اشجع من الخوارج ، لأن الخصال التي فضل بها الخارجي جميع المقاتله غير تامه في الخارجي وتامه في التركي ، والتركي يرضى مديرا ومقبلا ، وجلوسه على ظهر دابته أكثر من جلوسه على الارض ، والترك اعراب العجم ، لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات ولا الطب ، ولم يكن همهم غير الغزو والقاره والصبر وركوب الخيل ومقارعة الابطال وتـدويخ البلـدان وهـم عدو شديد كلبه قليل سلبه[2] ، وقال عنهم القاضي صاعد الاندلسى : انهم من الامم التي لم تعن بالعلوم ، كثيرة العدد فخمة الممالك ومساكنهم ما بين مشارق خراسـان من مملـكة الاسلام ومن مغارب الصين وشمالي الهند الى أقصى المعموره الشمالي ، وفضيلتهم التي برعوا فيها ، وأحرزوا خصلتها معاناة الحروب ومعالجة الاشهار فهم أحـذف الناس بالفروسية وأبصرهم بالطعن والضرب والرمايه[3]

وليس عجبا ان يستدعي الخلفاء والـولاة جنـودا من الاتـراك لفضلهـم على سائـر الاجناس في اليأس والجرأة والشجاعة والاقدام[4] .

وقد جلب عبيد الله بن زياد الفين من الاتراك البخارية فاسكنهم البصرة لحراسة

---

(١) احمد أمين ، ظهر الاسلام ـ ص ٣٥ ـ ٣٦

(٢) مناقب الترك ص ٢٩٠ .

(٣) طبقات الامم ـ ص ٨٠٧ .

(٤) الاصطخري ـ مسالك الممالك ـ ص ١٢٧ .

السجون وبيت المال ، وفي اخضاع بعض المتمردين من العرب في اليمامه[1] . كما جعل الحجاج للبخاريه والخوارزمية الاتراك خططا ومنازل في واسط[2] ، واستكثر منهم المعتصم في بغداد حتى ضاقت بهم وتأذى بهم الناس وزاحموهم في دورهم[3] ، وتعرضوا بالنساء وضج الناس واشتكوا فبنى لهم سامرا عام ٢٢٠ هـ وجعل للاتراك مواضع فيها متميزه، وجاورهم بالفراعنة والاشروسنيه[4] .

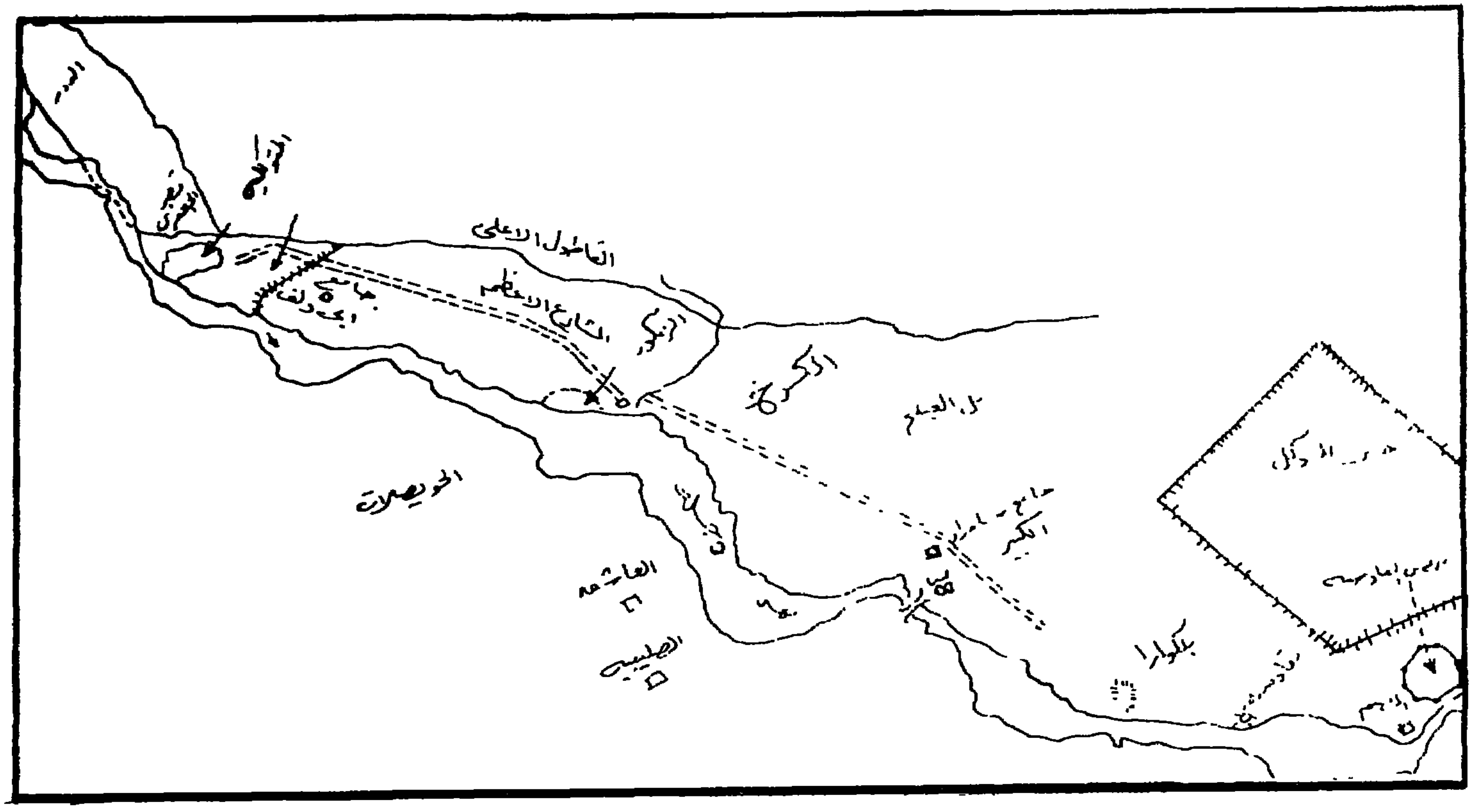
وازداد نفوذ الاتراك بعد ان مكنهم المعتصم بسامرا في دار الخلافة واصبحوا ـ في رأي الجاحظ ـ مادة الاسلام وللخلفاء وقاية ومؤلاء وجنة حصينة وشعارا دون الدثار[5] .

وقد صاروا حاشية الخلافة وشحنتها ورؤساء عساكرها ، ويسببهم على الاكثر يرجع انتصار الخلافة على البابكيه في بلاد الديسلم وعلى الروم في وقعة عموريه سنة ٢٢٣ هـ .

ومن هذا التاريخ بدأ الوضع السياسي والاجتماعي في الدولة الاسلامية يصطبغ بالصبغة التركية بعد ان كانت ـ على ما يذكر أحمد أمين[6] ـ الاحداث تتصل باعلام الفرس كأبي سلمه الخلال ـ وأبي مسلم الخراساني في الكوفه والبرامكه والحسن بن سهل والفضل بن سهل في بغداد وعبد الله بن طاهر بمرور فاصبحت الاحداث مرتبطة باستياس وابناخ في سامرا والمتوكليه ويغا الكبير ويغا الصغير في بغداد وابن طولون في الفسطاط وامثالهم من الاتراك حيث كانوا القابضين على زمام الدولة والمتصرفين في شئونها .

ولكن الأمر تطور اكثر من هذا فتغلبوا على الخلفاء وتحكموا بالخلافة وحياة

(١) ابن قتيبه ـ عيون الاخبار ـ ١/ ١٢٣ .
(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٣٨٦ .
(٣) ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ـ ٦/ ٢٦٦ .
(٤) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ١/ ٢٧٢ .
(٥) الجاحظ ـ مناقب الترك ـ ص ٢٩٢ .
(٦) ظهر الاسلام ـ ص ٦ .



شكل (١٢)

« سامرا »

الخلفاء[1] ، او كما قال الشاعر في مقتل المعتز[2] :

اصبح الترك مالكي الأمر والعالم ما بين سماع ومطيع

واعتدوا على الخلفاء في سامرا خلعا وسملا وتعذيبا وقتلا ، فقد شهدت المتوكليه قتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ ، كما اجبر الاتراك ابنه المنتصر في سامرا على خلع اخويه سنة ٢٤٨ هـ [3] . ومن بعده اعتدوا بالضرب على اخيه المعتز واقاموه فيالشمس فكان يرفع رجلا ويضع اخرى لشدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ثم جعلوه في بيت وسدوا بابه حتى مات بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه [4] ، وسمعت أمه في مكه وهي تدعو : اللهم اخز صالح بن وصيف كما هتك ستري وقتل ولدي وشتت شملي واخذ مالي وغربني عن بلدي وركب الفاحشة مني[5] .

هكذا استضعف الاتراك الخلفاء في سامرا فكان الخليفة في يدهم كالاسير ان شاءوا ابقوه ، وان شاءوا خلعوه ، وان شاءوا قتلوه ، وبلغت حصيلة ما فعله الاتراك انهم قتلوا خمسة خلفاء وهم المتوكل والمستعين والمعتز وابنه والمقتدر ، وخلعوا اربعة هم المستعين والمهتدي والقاهر والمتقي ، وعذبوا اثنين هما المعتز والمهتدي ، وسملوا عيني كل من القاهر والمتقي ، وقطعوا راس المقتدر وحمل الى مؤنس الخادم ومكثت جثته مرمية على قارعة الطريق[6] . ووجد في بغداد عام ٣٣٤ هـ ثلاثة خلفاء مخلوعين هم القاهر والمتقي والمستكفي سملت اعينهم وعاشوا عالة على اهل الاحسان[7] .

ويصور لنا الشاعر العربي البحتري في قصيدته السينية المشهورة التيمطلعها[8]

---

(١) الاصطخري - مسالك الممالك - ص ٢٣٢ .
(٢) أحمد أمين - المصدر السابق ص ٢٢ .
(٣) ابن خلدون - تاريخ العبر - ٣/ ٢٨٠ .
(٤) ابو المحاسن - النجوم الزاهرة - ٣/ ٢٣ .
(٥) ابو الفدا - المختصر في اخبار البشر - ٢/ ٤٦ .
(٦) ابن خلدون - المصدر السابق - ٣/ ٣٥٨ وما بعدها .
(٧) ابو الفدا - المصدر السابق - ٢/ ١٠٩ .
(٨) الديوان .

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس
وكأن الزمان أصبح محمولا هواه منع الاخس الاخس

مأساة العلاقات العربية التركية التي سببها الاتراك بتصرفاتهم الحمقاء في دار الخلافة بالمتوكلية عندما قتلوا المتوكل بالله عام ٢٤٧ هـ ، فاندفع يعبر الخس التركي الحديث النعمة الذي لم يسبق له ان حكم شعوبا وساس دولا .

أما العبيد فكانوا من غنائم الحرب يكاد لا يحصى عددهم مختلفين باختلاف الامم التي قاتلت العرب وجاريتهم .

وقد كان هؤلاء الاسرى يوزعون على المحاربين كغنائم الامر الذي أدى الى انتشار العبيد وكثرته في بيوت البصرة والكوفة والموصل وذكر البلاذري في معرض حديثه عن أسرى الحروب واسترقاقهم فقال[1] : روى ان الربيع بن زياد الحارثي ، قاد بعض الحملات في سجستان ، وقد غنم العرب في هذه المعارك أربعين الفا .

وهناك اشارات الى عدد من المدن الايرانية التي فتحت عنوةبحد السيف كسوق الاهواز ورامهرمز وسايور واصطخر والتبرجان وغيرها ، فخلفت حاميات هذه المدن المقهورة للعرب استرقاقا بالجملة ولكن من الصعب جدا تحديد عددهم تحديدا دقيقا[2] .

ومن مصادر العبيد أيضا الشراء حيث كان الناس يجلبون العبيد من مناطق بعيدة ، وقد لعب النخاسون دورا كبيرا في تصدير العبيد الى البلاد الاسلامية ، وكانت الكوفة من هذه البلاد التي يباع العبيد ويتشرون في اسواقها باثمان باهضه حت أصبحت تجارة قائمة بذاتها ، وكان لهذه التجارة سوق خاصة في الكوفه تسمى

(١) فتوح البلدان ـ ص ٣٨٦ .
(٢) المصدر نفسه ـ ص ٣٧٦ وما بعدها .

سوق السماسرة[1] . كما انتشرت تجارة الرقيق ببغداد اضافة الى استحواذها على مغانم كثيرة ومن بين هذه الغنائم الاسرى [2] ، فكانت بها محله تسمى دار الرقيق [3] ، وكان بالرصافه وهي الجانب الشرقي من بغداد محلة دار الروم نسبة الى سكانها الذين قدموا اليها في عهد المهدي أسرى من بلاد الروم[4] .

وثمة مصادر أخرى للعبيد ، فكان بعض العمال والولاة يؤدون جزءا من خراجهم اعدادا هائلة من العبيد ، كما ان بعض اهل الكتاب كانوا يقدمون اولادهم بدل ما عليهم من الجزيه هذا فضلا عن بعض الخلفاء او الولاة العرب الذين كانوا يصالحون اهل البلاد المغلوبه على دفع الجزيه التي تتضمن اعدادا كبيره من الرقيق تدفع كل سنة ، فقد صالح الخليفة عثمان بلاد النوبه على اربعمائة رأس في السنة[5] ، وكانت سجستان بايران تدفع ألف عبد سنويا مع الجزيه[6] .

وكان هؤلاء العبيد يوزعون على الأمراء وحاشيتهم ، او يباعون لهم . ومن المرجح ان نسبتهم في البصره والكوفه تقارب ثمن السكان العرب[7] . ولا ريب في ان هذا العدد لا يشمل العدد الضخم من العبيد المستخدمين في الاراضي الزراعية حول البصره والكوفه وواسط وبغداد[8] .

وقد كون هؤلاء العبيد طبقه كبيره في المجتمعين البصري والكوفي ، وكانت هذه الطبقة فقيره معدمه ، استخدمت في الخدمة وسخرت في الاعمال الوضيعة التي

---

(١) ماسنيون ـ خطط الكوفه ـ ص ٢٣ .
(٢) الماوردي ـ الاحكام السلطانية ـ ص ١٣٨ .
(٣) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ص ٤٧/٨ .
(٤) الاصفهاني ـ الاغاني ـ ٤/ ١٩٩ .
(٥) ابن خرداذبه ـ المسالك والممالك ـ ص ٨٣ .
(٦) البلاذري ـ المصدر السابق ـ ص ٣٩٤ .
(٧) ابن قتيبه ـ الامامة والسياسة ـ ١/ ١٣٤ .
(٨) البلاذري ـ انساب الاشراف ـ ١١/ ٣٠٣ طبقة اهلورت .

كان العربي يأنف من مزاولتها ، الامر الذي ساعد العرب على الانصراف الى الحروب والقتال والادب والشعر ، ومن الاعمال التي زاولها العبيد حرفة الصناعة ، فقد أدى التطور الحرفي في كل من البصره والكوفه وبغداد الى استخدام أيدي عاملة كثيرة ورخيصة فاستقدم العبيد باعداد كبيره ، مارست المهن اليدويه المختلفة ، فكان منهم الحائكون والنجارون وصانعوا الحلى ، كما اشتغلوا في الحداده، وصناعة الجلود والاواني ، وعصر الخمور[1] .

وأدى توسع التجارة الى ظهور طبقة من أصحاب رؤوس الاموال الواسعة اخذت تستثمر اموالها بتوسيع مجاراتها او باقتناء الاراضي ، فنتج عن ذلك زيادة انتشار الملكيات الكبيرة في الارض . ونشأ عن تقدم الحضارة تحسن اساليب الزراعة وصل الى استغلال الارض استغلالا مركزا مما استوجب زيادة الايدي العاملة فيها . فلجأ اصحاب الضياع الواسعة قرب البصرة والكوفه وواسط الى استخدام العبيد استخداما واسعا ، فقد استخدم مصعب بن الزبير عبيدا من الزنوج يعمرون ارضه في السواد قرب البصرة[2] ، وكذلك استخدم هؤلاء العبيد في السخرة لسد البتوق واصلاح البطائح وجعلها أرضا صالحة للزراعة ، وقد اشتغل هؤلاء تحت ظروف معاشيه سيئه حيث كان يكتفي باعطائهم الغذاء الرخيص المكون من الدقيق والتمر[3] . وقد استخدمت اعداد ضخمة منهم أيضا في السفن التجارية بنهر دجله ما بين البصرة وواسط وبغداد وسامرا والموصل، وبنهر الفرات ما بين واسط والكوفه والانبار، كما استخدموا في الكوفه لكسح الطرق وتنظيفها وحفر الترع[4] . في حين ظهر عدد كبير من هؤلاء العبيد في البصرة والكوفه وواسط براعة فائقة في الحرف

---

(١) شفيق باشا ـ الرق في الاسلام ـ ص ٢٦ .

(٢) التنوخي ـ المستجاد ـ ص ٣٤ .

(٣) الجاحظ ـ البخلاء ـ ص ٣٠٦ .

(٤) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ٣/ ٤١٤ .

والصناعـات المحلية كخـرازة الاحـذية وخياطـة الثياب ، وممارسـة بعض الاعمال التجارية بعد موافقة أسيادهـم .

وقد عرف من الزنـج الصبر في العمل والقابلية على الكدح ، فنظم التجـار نتيجة لهذه الصفات الحملات لاصطيادهم أو لشرائهـم من جهـات شرق أفـريقيا وأواسطها ، وجلبوا منهم الآلاف لغرض استخدامهم في مختلف جهات العراق ولا سيما في الاراضى السيخه المحيط بالبصرة حيث حشد العديد منهم ، ولم تكن هذه الحشود من الزنوج تفهم شيئا ما عن البيئة الجديدة أو عن ثقافتها . فلا غرابة ان لدى تشغيلهم على هيئة جماعات كبيرة في محل واحد الى سوء وضعهم المعاشي وصعوبة عملهم لتذمر دفين انفجر في أيام الحجاج ، كما ثاروا زمن المنصور [1] ، في حـين هددت ثورتهـم الكبرى أيام حكم سامراء الدولة العباسية في بداية النصف الثانـي من القرن الثالث الهجري[2] .

---

(١) وكيع ـ اخبار القضاة ـ ٢/ ٥٧ .

(٢) أحمد علي ـ ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد ـ ص ١٢ .

٥ ـ أهل الذمة واثرهم في نمو المدن الاسلامية :

كان أهل الذمة وهـم المسيحيون واليهـود من العنـاصر المؤثـرة في نمـو المدن الاسلامية التي نشأت في العراق خلال القرون الثلاثة الهجرية الاولى وبعدها .

فسكن مسيحيو الحيره وقراها الكوفه ولا سيما بعد ان زال مجد الحيرة وعزها ، وقد أقاموا في الكوفة بيع عدة بموافقة الامير ومساعدته حتى ان خالد القسرى والى الكوفة أيام هشام بن عبد الملك ذهب الى أبعد من ذلك حيث أمر ببيعة للمسيحيين في الكوفة وكانت في ظهر قبلة المسجد [١] . وذكر البلاذرى : ان الخليفة عمـر بن الخطاب عندما أرسلت اليه سبايا الفتح جعل بعضهم رقيقا ليتامى الانصار وبعضا كتابا أدخلهم في خدمة الدولة [٢] . كما اتخذ أبو موسى الاشعـري في أثنـاء امارتـه للبصرة كاتبا نصرانيا [٣] . في حين اتخذ رجلا مسيحيا لادارة سجن قريب من الكوفة في سنة ٢٦ هـ عندما كان الوليد بن عقبه واليا عليها [٤] .

. وكان العباسيون يأذنون للنصارى باقامة بيع لهم ، فوافق الخليفة المهدى على تشييد بيعة للنصارى في محلة الروم بالجانب الشرقي من بغداد ، وتقضي القاعدة

---

(١) فتوح البلدان ـ ص ٢٨٤ .
(٢) تريتون ـ اهل الذمة في الاسلام ـ ص ١١ .
(٣) البلاذري ـ المصدر السابق ـ ص ١٤٧ .
(٤) تريتون ـ المصدر السابق ص ١٩ .

الفقهية بترك البيع والكنائس لاهل الذمة وعلى المسلمين حقن دمائهم ، كما يقاتل المسلمون من ناوأهم من عدوهم ، ويذيبوا عنهم[1].

وكانت الاديره المسيحية منتشرة في جميع انحاء بغداد حتى لم تخل منها ناحية ، فكانت تقع في أماكن خاصة بالبساتين والشجر والنخل والرياحين ولـذلك حرص المسلمون من أهل بغداد على قضاء أوقات فراغهم بها وعقد مجالس اللهو هناك ، ومن أقرب الديارات الى بغداد دير قوطا في قرية البردان في قرية البردان علىَ شاطىء دجله ويفصله عن بغداد بساتين ومنتزهات متتابعة [2] .

ومن أشهر بيع بغداد بيعة سمالو وبيعة درب دينار ، وبيعة درب القراطيس وبيعة سوق الثلاثاء [3] ، على ان الحرب بين قوات الامين وقوات المأمون قد الحقت الكثير من التخريب والتدمير ببيع بغداد وأديرتها [4] ,

وكان المسيحيون في جميع المدن الاسلامية يشتغلون بالصيرفه حيث كان هؤلاء الصيارفة واسطة التبادل الوحيدة بين مسكوكات الفرس الفضية ومسكوكات الرومان الذهبية [5] .

والى جانب المسيحيين عاش اليهود في الكوفة والموصل وبغداد ، فيهود الكوفة جاءوا اليها من نجران بعد تحسيسها وقدم الكوفه ايضا عدد آخر من يهود الحيره ، ولهم في الموصل حي قائم بذاته يقع شمال المدينة كما لهم منازل في بغداد ، وقد استطاعوا ان يقيموا شعائرهم الدينية بحرية تامة في ظل الاسلام ، وبنوا المعابد في

---

(١) ابو يوسف ـ الخراج ـ ص ٨٠ .
(٢) الشابشتي ـ الديارات ـ ص ٣٠ وما بعدها .
(٣) روفائيل بأبو اسحق ـ تاريخ نصارى العراق ـ ص ٦٩ .
(٤) ابن النديم ـ الفهرست ـ ص ٣٣٩ .
(٥) ماستيون ـ خطط الكوفه ـ ص ٢٣ .

الكوفة والموصل ، وقد ذكر بنيامين التطيلي ان شاهد كنيسا لليهود في الكوفه عند زيارته لها[١] . وكان لليهود ببغداد رئيس خاص يلقب احيانا بلقب ملك[٢] .

وقد زاول اليهود بعض الحرف التي كان العرب يانف من مزاولتها فكان منهم الصفارون والصباغون وغيرهم . وبمرور الزمن استطاع اليهود ان يثبتوا اقدامهم في المجتمع العربي الاسلامي ، وان يبسطوا سلطانهم على جميع المهن فزاولوا مهنة التجارة والصرافة والصياغة والحياكة وادارة السفن وصناعة الزجاج[٣] .

وفي ظل هذا التسامح تولى اهل الذمة بعض الوظائف في الدولة الاسلامية ، ولا سيما كتابة الدواوين ومزاولة الاعمال الحرة كالجهبذه والتجارة والحرف ، واقامة الطقوس الدينية .

يتضح ـ مما تقدم ـ ان تأثير القبائل العربية في تاريخ بلاد الرافدين هو تزويد البلاد بسكانها العرب ، كما ساعد على تعريبها وتغليب الثقافة العربية الاسلامية فيها ، وهذه القبائل هي التي حملت اليها الاسلام ، وكونت المادة الاساسية في سكان المدن الجديدة ، كالبصرة والكوفه والموصل وواسط وبغداد وسامرا ، في حين ادت تغذيتها الاجتماعية المستمرة لتلك المدن ان تخرج عن نطاقها السابق متحديه الاسوار والعقبات . كما حدث ببغداد التي تضخمت خارج اسوارها بفعل هذه الهجرة ، فنشأت جنوبها الكرخ ، وعلى ضفة دجله الشرقية قلمت المهدية او ما يسمى اليوم بالرصافة ، وعالجت سامراء الزيادة السكانية ببناء مجمع سكنى شمالها ايام المتوكل والقادسية في جنوبها في حين توسعت الكوفه ووصلت دور سكناها الى حافة نهر

(١) رحلة بنيامين ـ ص ١٤٠ ـ تريثون اهل الذمة في الاسلام ـ ص ٥٩ .
(٢) آدم متز ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ـ ٥٨/١ .
(٣) تريثون ـ أهل الذمة في الاسلام ـ ص ٢٠٥ .

الفرات الغربية وتعدتها الى الشرقية ، اما واسط فاصبحت مدينتين يفصل بينهما نهر دجله ، ومثلها حذت الموصل بحل ازمة السكن فيها وذلك ببناء حي كبير في الجهة الشرقية من نهر دجلة ، كما ان البصرة تحركت عندما القت نفسها مكبلة بعوائق طبيعية واجتماعية لانها تقوم بموقع اصبح غير ملائم ، ما دامت تتعرض لهجرة سكانية دائمة ، فاقدمت بشجاعة على زحزحت نفسها من موقعها الصحراوي الى ضفة شط العرب الغربية ، وذلك لتحسين وسائلها التجارية والعمرانية .

هذا بالاضافة الى ان القبائل قد تغلغلت في الريف ومناطق الرعي حتى جبال ايران وسدت جزء من الفراغ الذي كان يحصل في تقصي النفوس نتيجة الاوبئة والفيضانات والهجرة .

الفصل الرابع

العامل الاقتصادي

١ ـ تمهيد
٢ ـ الزراعة
٣ ـ النشاط الحرفي
٤ ـ التجارة

تمهيد

أن تغييرا كبيرا في حياة القبائل العربية قدحصل بعد انتقالها الى الأمصار ذلك ان اقامتها في المدن جعلتها تتجه الى الاستقرار والى الحياة الحضرية ومع ان كثيرا من القيم والمفاهيم القبليه بقيت ، الا أن القبائل أصبحت جزءا من مجتمعات مستقرة ، ولم تبق دور الهجرة أو الغزو العمراني العربي الاسلامي في العراق مراكز عسكريه ، بل تحولت الى مجتمعات حضرية نشطه تمارس مختلف الفعاليات المدنية . وقد تمثل هذا التحول في النواحي الزراعية والتجارية والحرفية التي ساعدت على انشاء المدن واتساعها .

وكان التوسع المدهش من قبل العرب المسلمين في الزراعة والتجارة والحرف قد اوجد حينئذ في العراق شبكة من المدن ، كالبصرة والكوفة والموصل وواسط وبغداد وسامرا والنجف وكربلا بالغة التقدم ، تقطنها فئات تربة من مالكي الارض واصحاب الحرف والتجار الذين عرفوا أحوال العالم يومذاك وامتلكوا الذكاء والجرأة والاستقلال .

الزراعة

الزراعة هي العناية بالحقل الزراعي وانتجته ، فتمثل العمود الفقري للهيكل الاقتصادي لاية دولة من دول العالم . وهي تمثل أيضا قاعدة رفاهية أية دولة ، والمقياس الاساسي لمستوى معيشة أي فرد أو أية أسرة في أية دولة ، ولهذا ستظل للاراضي أهميتها المطلقة والمؤثرة في الحياة البشرية بل وفي الحضارة الانسانية ذاتها والارض بخصائها بيئة طبيعية يعيش فيها الانسان ، فالارض بمواردها الفنية سلع اقتصادية تتحول بواسطة عنصر العمل الانساني الى اعطاء الارض أهمية خاصة في تقرير التقدم الاقتصادي والحضاري للانسان .

ويعتمد التقدم الزراعي على مدى تعاون الدولة والافراد في السيطرة على المياه أولا وهذا ما يسمى بنظام الري ، وتهيئة واصلاح الارض ثانيا ، وملكية الاراضي (الاصلاح الزراعي) ، ثالثا ، والاهتمام بالحاصلات الزراعية رابعا .

أ ـ الري :

يتكون نظام الري في بلاد الرافدين بصورة أساسية من نهري دجلة والفرات وتوابعهما والقنوات التي تتفرع منهما ، ويعد أساسا يقوم عليه توزيع السكان وتجمعهم ، لأن مهنة الزراعة كانت المصدر الرئيسي لمعيشتهم .

ولأن وسائل الري كانت بدائية لا تستطيع أن تمتد بالاراضي الزراعية الى مسافات بعيده عن الأنهار ، كما هي الحال في الوقت الحاضر باستثناء منطقة الجزيرة الفراتية والجبال حيث تكثر فيهما الأمطار وتتعدد بها الينابيع .

ويوجهنا كل من الاصطخري وابن حوقل الى ملاحظة جديرة بالاهتمام عن المناطق المهمة لتوزيع السكان فكلاهما من أهل القرن الرابع الهجري ، فيقول الاصطخري[1] . ان المنطقة الواقعة وراء الخط الممتد بين الدسكره على النهروان وسامرا وتكريت الى مقربة من العلث من جهة وواسط من جهة أخرى ، هذه المنطقة التي تصل الى حلوان والجبال قليلة العماره منفردة المنازل والقرى ، فهي مراع للاكراد والاعراب ويقول كذلك : ان المنطقة الممتدة بين دجله والفرات من غربي تكريت الى الاتبار قليلة العمارة ، ويضيف الى ذلك قوله : وانما العمارة ما يحاذي سامرا أميالا يسيرة والباقي بادية ، ويشير أيضا : الى أن المنطقة الواقعة على نهر دجلة جنوبي المدائن كانت مشتبكة العماره ، وبين بغداد والكوفه سواد مشتبك غير متميز تخترق اليها أنهار من الفرات ، وهو يشيد بكبر مدينة البصرة وكثرة النخيل في منطقتها . ويضيف ابن حوقل النصيبي اشارات مفيدة عن بلاد الجزيرة الفراتية فيقول[2] : وللموصل نواح عريضه ورساتيق عظيمة وكور كثيرة وغزيرة الاهل والقرى . وبعد هذه الرساتيق يذكر : نينوى وباهدرا والخابور وبعلثايا وفيشخابور ويصفها بما يفيد الغنى وكثرة المدن . ولكنه يشير الى البلاد الواقعة بين الزابين الاعلى والاسفل وهما نهران يصبان في دجله ، بما يفيد تحولها الى الخراب وخلوها من السكان بسبب غزوات البدو واشتداد الفتن .

وقد مر السائح العربي ابن جبير بالعراق في أواخر القرن السادس الهجري ،

---

(١) مسالك الممالك : ص ٨٠ وما بعدها .

(٢) صورة الارض : ص ٢٨ ، ٢٩ .

فوصف الكوفه بكثرة الخلق ، ووصف الطريق الممتد بين الكوفه وبغداد عبر الحلة : بأنه في بسائط من الارض وعمائر تتصل به القرى يمينا وشمالا ووصف بغداد الشرقية أنها كثيرة النقوى[1] .

لذلك كانت هذه المدن شبه ريفية أي أن معظم سكانها يعيشون على الزراعة وهذا أمر طبيعي قبل نشوء الصناعة المدنية ووسائل النقل السريعة الرخيصة التي جعلت بالامكان قيام مدن تعيش على الصناعة وحدها وينقل اليها الماء والغذاء من مناطق اخرى . وكون المدن ريفيه دليل على ان القلق السياسي وكثرة انقطاع الطرق وعدم سلامتها وتهديد العدو للمدن جعلها مضطرة على تكييف اقتصادها الى نوع من الاكتفاء الذاتي ليستطيع سكانها الاستمرار على المعيشة ايام انقطاعها عن الريف وهذا ما فرض على بناتها انشاءها على الانهار والعيون ومصادر الماء الاخرى ، وبالقرب منها وذلك لتسهيل عملية سقي المزروعات أولا وسد حاجات المدينة من الماء ثانيا ، وقد ذكر ابن الفقيه الهمداني[2] . ان الخليفة عمر بن الخطاب اهتم بمشاريع الري ونظمها تنظيما يتفق مع الحاجة اليها ، فبعث ابا موسى الأشعري يأمره بحفر نهر الصراة في البصره بسبب شكوى الاحنف بن قيس زعيم البصرة من فقر تربة البصرة وملوحة مياهها .

وأشار اليعقوبي[3] الى : ان الامام علي قد أمر بحفر الانهر وشق الترع وتطهيرها ، فكتب الى عامله دقرظه بن كعب الانصاري : اما بعد فان رجالا من أهل الذمة من عملك ذكروا نهرا في ارضهم قد عفا وادفن وفيه عمارة على المسلمين ، فانظر أنت وهم ثم أعمروا ما يصلح النهر ، فلعمري لئن يعمروا ، أحب الينا من أن

---

(١) رحلة ابن جبير ـ ١٩٩ وما بعدها .
(٢) مختصر كتاب البلدان : ص ١٩٨ .
(٣) التاريخ : ٢/ ١٧٩ .

يخرجوا ، وأن يعجزوا أو يقصروا في واجب من صلاح البلاد والسلام .

كما اهتم الولاة الأمويون بمشاريع الري عناية كبيرة فأمروا بحفر الانهار وشق القنوات واقاموا القناطر والجسور والمسنيات لمكافحة الفيضانات ، وحجزمياههامن غمر الاراضي المجاورة للنهر . فقد بنى ـ كما يشير البلاذري[1] ـ زياد بن ابيه جسرا كبيرا في الكوفه ليمنع فيضان الماء ، وظل هذا الجسر طوال العهد الاموي ، وقد أجريت عليه اصلاحات كثيرة في عهد ولاة بني أمية مثل ابن هبيره وخالد بن عبد الله القري ويزيد بن هبيرة ثم اصلحت بعد بني أمية مرات . ويذكر البلاذري أيضا[2] : الى أن الحجاج بن يوسف الثقفي بالرغم من انشغاله في اخماد ثورات وفتن عديدة شغلت الناس عن الزراعة ، الا أنه اعتنى بشؤون الري ، فحفر الأنهار الكثيرة ـ كنهر الصين ونهر النيل ونهر الزاب وغيرها . وقام ابن هبيرة بتطهير الأنهار وأصلح القنطرة التي بناها زياد ابن أبيه في الكوفه .

واهتم خالد بن عبد الله القسري أيام هشام بن عبد الملك بشؤون الري والزراعة ، فشق الانهار والترع للحصول على كميات كبيره من المحصولات الزراعية ، فحفر ـ على ما يذكر الفقيه الهمداني[3] ـ نهر الجامع وأصلح القنطرة التي بناها زياد بن ابيه في الكوفه وحفر نهر المبارك . وقام بتجفيف مستنقعات الجزء الادنى من نهر دجله واضاف بذلك مساحات واسعة الى اراضي الكوفة الزراعية .

وقد وصف القزويني الموصل[4] : ان أهلها انتفعوا بدجله كثيرا فشقوا منه قناتا ونصبوا نواعير على الماء وعندما ينقص دجله يبقى الجانب الشرقي ضحضاحا وتظهر الارض فيزرعون فيها القثاء والخيار ، وذكر عن واسط أنها وافرة الغلات كلها

(١) فتوح البلدان : ص ٢٨٥ .
(٢) المصدر نفسه : ص ٢٨٥ و٢٨٨ .
(٣) مختصر كتاب البلدان ـ ص ١٨٣ .
(٤) آثار البلاد واخبار العباد ـ ص٤١٨ و ٤٧٨ .

زروع وبساتين ومياه .

ووصف ابن بطوطه البصره[1] : انها ذات بساتين وفواكه كثيرة وليس في الدنيا أكثر نخلا منها ، وذكر الجانب الغربي من بغداد انـــه مصدر الفواكه للجانب الشرقي لأن فيه البساتين والحدائق .

وتحيط ببغداد شبكة ري تستمد مياهها من دجله لتيسر ري الاراضي القريبة منها مثل قناة دجيل ، كما أقيمت في عهد المنصور قناتا تاخذ مياههـا من كرخـايا ـ احدى روافد الفرات ، وتجري في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالأجر من أعلاها ، يتنفذ في أكثر شوارع بغداد صيفا وشتاء ، وقد صممت على ان تكون دائمة الجريان طول ايام السنة ، في حين شقت قناة تجري الى الكرخ وما اتصل به بأمر المنصـور وسميت نهر الدجاج ، وأقيمت قناتا ثانية سميت بنهر طابق ، وحفرت قناتا ثالثـه سميت بنهر عيسى الاعظم الذي يستمد معظم مائه من الفرات ، وتتفرع منه انهار تخترق بغداد ، ومن بينها الصراة ويصب في دجله[2] . وفي المهديه وهي جانب بغداد الشرقي شق المنصور نهر المهدي الذي يستمد مياهه من النهروان[3] . وكان لتوفر المياه في منطقة بغداد أكبر الأثر في وفرة انتاجها الزراعي .

وذكر اليعقوبي : ان المعتصم قد حفر الانهار من دجله وصيرها الى سامرا وحمل النخيل اليها من بغداد والبصره وسائر السواد ، وحملت الفروس من الجزيرة الفراتية والشام والجبل والري وخراسان وسائر البلدان فكثـرت المياه في هذه العمارة بجانـب سامرا الشرقي ، وصلح النخل وثبتـت الاشجـار وزكت الثمار وحسنـت الفـواكه

---

(١) الرحلة . ١/ ١١٥ وما بعدها .

(٢) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ٢/ ٢٣٦ .

(٣) اليعقوبي . البلدان ـ ص .

وحسن الريحان والبقل ، وزرع الناس أصناف الزروع والرياحين والبقول والرطاب ، وكانت الارض على ما يذكر اليعقوبي[1] ـ مستريحة آلاف السنين ، فزكا كل ما غرس فيها ، وزرع بها حتى بلغت غلة العمارات بالنهر المعروف بالاسحاقي وما عليه ، والايتاخي والعمري والعبد الملكي ، ودالية ابن حماد والمسروري وسيف والعربات المحدفه ، وهي خمس قرى ، والقرى السفلى وهي سبع قرى والاجنه والبساتين وخراج الزرع اربع مائة ألف دينار في السنة .

وعرف أهل المدن المزارعون وسائل الري الآلية ، فاستعمل أهل البصره والكوفه الدولاب والداليه ، وأهل واسط اضافة الى ذلك النازوحة ، كما استعمل اهل بغداد في سقي مزروعاتهم الدولاب والنعور والداليه، في حين استعمل مزارعوا الموصل الطواحين المائية اضافة الى النواعير والدوالي ، أما اهل سامرا فاستخدموا الدولاب والداليه لرفع المياه من الانهار والجداول وايصالها الى المزارع بوساطة سواقي صغيرة .

ب ـ تهيئة واصلاح الأرض :

الارض بلا شك هي العنصر الاساسي للزراعة ، وان الانتاج الزراعي يتطلب مساحة أرضية ، أي رقعة مساحية أكبر من تلك التي يتطلبها الانتاج الصناعي وهذا ما يجعل لحيازة الارض اهمية عظمى في الزراعة ، وتمثل الارض وما عليها من منتجات ثابته حوالي ـ على ما يقرر الدكتور أحمد سعيد حسنين[2] ـ ٧٠ ٪ من مجموع الأموال المستثمرة في الانتاج الزراعي .

ويبدو ان منهج تهيئة الارض واصلاحها ـ كما أرى ـ موجه نحو عيوب طوبوغرافية الاراضي واعدادها للاستثمار ، وبهذا المعنى يكون موضوع اصلاح

---

(١) البلدان : ص ٢٦٤ .

(٢) اصول الاقتصاد الزراعي ـ ص ١٠٥ .

الاراضي مقتصرا على العمليات الطبيعية للارض ، لذا اتجه خلفاء وولاة أمور المسلمين الى العناية بالارض ، وقد بذلوا جهودا مضنيه في السيطرة على المياه وفي اصلاح الاراضي ، فاهتم الخليفة عمر بن الخطاب اهتماما واسعا باصلاح الاراضي ، وكان أول اصلاح ارساله عثمان بن حثيف الانصاري لمسح السواد وذلك لمعرفة مقدار الاراضي الصالحة للزراعة . وطلب من الفلاحين العناية بالتربة وحرثها واصلاح الطرق والجسور[1] ، ولكنه من جانب آخر كتب الى أهل البصره يحذرهم من انهاك الارض ، عندما بلغه أنهم قد اتخذوا الضياع وعمروا الارضين ، فعبر عن ذلك بقوله : لا تنهكوا الارض لأن شحمتها فيه[2] . كما أنه سمح باحياء الاراضي الموات فقال : من أحيا أرضا مواتا ليست في يد مسلم ولا معاهد ، فهي له ، وروى عن أيضا أنه كتب الى الناس من أحيا مواتا فهو احق به[3] . وفي الكوفه طلب دهاقين الانبار من سعد بن أبي وقاص ان يحفر لهم نهرا كانوا قد سألوا عظيم الفرس حفره لهم ، فكتب الى عامل الانبار سعيد بن عمرو بن حرام يحفره لهم[4] .

وقد اهتم الخلفاء الامويون في الزراعة واستصلاح الاراضي ، كما اهتموا في أمر البطائح وتجفيفها ، فطلب معاوية الاول من مولاه عبد الله بن دراج عامل خراج العراق بمكافحة الفيضانات والاهتمام بأمر البطائح وتجفيفها ، فاستخرج له من البطائح أراضي واسعة بلغت غلتها خمسة ملايين درهم في السنة[5] .

وتابع الولاة الامويون في العراق الاهتمام بالزراعة ، فشجعوا الفلاحين على

(١) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٤/ ١٨٤ .
(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ـ ٢/ ٢٢٦ .
(٣) السويطي ـ حسن المحاضرة ـ ١/ ٦٦ .
(٤) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٢٧٣ .
(٥) المصدر نفسه ـ ص ٢٩١ .

احياء الاراضي الموات فكان زياد بن أبيه يقطع الرجل قطعة من الارض تبلغ مساحتها ستين جريبا ، فان عمرها وزرعها امتلكها والا انتزعت منه[1] . وقد وضع الولاة الامويون شروطا معينا لاحياء الاراضي الموات منها مطالبة الفلاحين باقامة حواجز بينها وايصال الماء اليها ان كانت مجدبه واخراجه منها ان كانت بطائح ، هذا اضافة الى حرثها جيدا بحيث يصبح سطحها مستويا[2] .

واهتم الحجاج بتجفيف البطائح وذلك لزيادة الارض المزروعه التي تمتد من واسط الى جوار الكوفه[3] . كما أنه اتخذ اجراءات صارمة تتعلق بالفلاحين أنفسهم ، فقد منع هجرة الفلاحين من قراهم الى المدن ، فأمر بارجاعهم الى مزارعهم وقراهم بالقوة ونقش ـ كما يذكر بن عبد ربه[4] ـ على يد كل واحد منهم اسم قريته .

وشجع الامراء الذين جاءوا بعد الحجاج الفلاحين على الزراعة ، فاهتموا بتعمير الاراضي والري ، فعمر بن هبيرة قام بمسح السواد سنة ١٠٥ هـ وقد ذكرت المصادر ، ان هذه هي المرة الثانية منذ مسح عثمان بن حنيف السواد بأمر الخليفة عمر بن الخطاب[5] .

وظهر أن المسح هذه المرة كان دقيقا يدل على ذلك ان العباسيين كانوا ياخذون بمساحة ابن هبيرة حتى زمن اليعقوبي المتوفي في نهاية القرن الثالث الهجري[6] ، كما ان عمر بن هبيرة أقام القناطر في اراضي السواد لدرء الفيضانات[7] .

---

(١) المصدر نفسه ـ ص ٣٥٦ .
(٢) الماوردي ـ الاحكام السلطانية ـ ص ١٧٧ .
(٣) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ ص٢٣٨ .
(٤) العقد الفريد : ٤١٦١/٣ .
(٥) ابن الاخوه ـ معالم الغربه في احكام الحسبه ـ ص ٢٨٨ .
(٦) اليعقوبي ـ التاريخ ـ ٣١٣/٢ .
(٧) ابن الفقيه الهمداني ـ مختصر كتاب البلدان ـ ص ١٨٣ .

وذكر ابن الفقيه الهمداني(١) : ان خالد بن عبد الله القسري اهتم بشؤون الزراعة واصلاح الاراضي والري ، فأمر بحفر عدد من الانهار في منطقة السواد منها نهر المبارك والصلح في منطقة واسط، وأقام سدا بالقرب من مدينة الكوت الحاليه وذلك لرفع منسوب المياه في هذا النهر للاستفاده منه في المشاريع الزراعية(٢) . كما ذكر البلاذري(٣) : انه قد أقام القناطر والسدود في منطقة السواد وجفف المستنقعات في منطقة البطائح ، فاضاف على ما يذكر بليوس فلها وزن(٤) ـ بذلك مساحات واسعة الى الاراضي الزراعية هناك .

ويبدو ان سبب اهتمام هؤلاء الولاة بشؤون الزراعة والري واصلاح الاراضي في العراق يرجع الى ان موارد الزراعة في هذا الاقليم كانت تكون مصدرا مهما من مصادر بيت المال بدمشق ، فقد ذكر الماوردي(٥) ، ان يوسف ابن عمر كان يرسل سنويا من ضرائب ارض العراق سبعين مليون درهم .

واستخدم العباسيون الاسلوب العلمي في الزراعة واصلاح الاراضي ، فدرسوا الوسائل التي تؤدي الى خصوبة الارض وانواع النباتات ، وبخاصة التربة التي تصلح لكل نبات (٦) ، ورشحت المستنقعات بنظام تصريف دقيق(٧) .

حـ ـ ملكية الارض (الاصلاح الزراعي) :

يعني الاصلاح الزراعي في الوقت الحاضر هو تحسين الموارد الطبيعية والموارد

---

(١) المصدر نفسه ـ ص ١٨٣ .
(٢) لبن رسته ـ الاعلاق النفيسه ـ ص ٩٥ ـ ٩٦ .
(٣) فتوح البلدان ـ ص ٣٥١ .
(٤) الدولة العربية ـ ص ٢٦٥ .
(٥) الاحكام السلطانية ـ ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .
(٦) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي : ٣٠٧/٢ .
(٧) سيد أمير علي ـ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ـ ص ٣٦٤ .

البشرية وايجاد أفضل سبل التوافق بينهما .

وكان مفهوم الاصلاح الزراعي الذي أعقب حركة الفتوح العربية الاسلامية في العراق مقصورا على ابقاء الاراضي الزراعية بين سكانها الزراعيين ، لأن العرب كانوا جنودا محاربين تحت السلاح متأهبين للقتال والرحيل في كل وقت ، والزراعة - كما تعلم - تحتاج الى الاستقرار والسكنى قرب المناطق الزراعية . وقد يؤدي هذا الاستقرار الى فقدان العرب الروح العسكرية ، وروح القتال التي امتازت بها القبائل العربية القادمة الى العراق في أثناء الفتح وقبله .

يضاف الى ذلك ان الخليفة عمر بن الخطاب قد حظر على العرب سكنى المدن القديمة - كما مر بنا - كالمدائن والحيرة والابله ، وأمر قادتهم أن ينزلوا العرب بمواضع بعيدة كل البعد عن المدن والقرى ومنعهم من الاشتغال بالزراعة لئلا يتقاعسوا عن الحروب ويميلوا الى الترف ، فيفقدوا بذلك ميزاتهم العسكرية وحماسهم للحرب .

وكان الخليفة عمر يرى ضرورة بقاء العرب أمة عسكرية بدلا من تفريقهم على الارض ، فيضيعوا بين السكان المغلوبين ويكون ذلك خطرا على وجودهم وقد أشار الطبري الى ذلك فقال[1] : أراد العرب الفاتحون ان يقسم الخليفة عمر بن الخطاب أراضي السواد عليهم باعتبارهم جزءا من الغنائم التي جازوها بانتصاراتهم على جيوش الفرس ، ولكن الخليفة عمر ابى ذلك عليهم ، وصمم على ترك هذه الاراضي لاصحابها مقابل دفع الخراج . ويبدو أن ذلك كان توفيقا - على حد تعبير أبي يوسف[2] - من الله - كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين . وفيما رآه من جمع خراج ذلك قسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ، لأن هذا لو لم يكن موقوفا على الناس في الاعطيات والارزاق ، لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش

(١) تاريخ الرسل والملوك - ٢/١٨٣ .
(٢) الخراج - ص ٢٧ -

على السير في الجهاد .

ويتضح من اشارة ابي يوسف . أن مسألة بقاء العرب في مجمعات عسكرية محظور عليهم بأمر رسمي من الاختلاط بسكان البلاد المفتوحة والابتعاد عن الاشتغال بالأرض ، لم تكن هي السبب الوحيد الذي دفع عمر لمنع العرب من امتلاك الارض وانما أراد كذلك أن يجد موردا ثابتا للدولة تستطيع به الاستمرار لتمشية أمور الدولة في الجهاد .

كما أنه ـ على ما يقرر الدكتور ضياء الدين الريس[1] ـ قرارا بالغ الخطورة ، فيه أصبحت الاراضي التي فتحها المسلمون وكذلك ما يمكن أن يفتحوه بعد ، غيثا موقوفا ، أي ملكا عاما للأمة الاسلامية كوحدة بجميع أجيالها ، بدلا من أن تكون ملكا متقاسما بين الافراد يتداولونه ويرثه الابناء عن الآباء .

ويعد هذا الاجراء رتب أمير المؤمنين عمر تقدير الضرائب من غير حيف بمالك ولا أجحاف بمزارع ، ولضبط هذا الغرض ، انتدب الخليفة عمر «عثمان ابن حنيف» وهو رجل حصيف ومجرب ، وأرسل معه حذيفة بن اليمان ليساعده في هذه المهمة ، وأمرهما بمسح السواد ، وتقدير الضريبة الخراجية على الوحدات الزراعية بالدقة وما تحتمله الارض[2] . فقاما بذلك ، فوجدا أن مساحة السواد تبلغ ـ على ما يذكر أبو عبيد[3] ـ ستة وثلاثين مليون جريب .

ففي ضوء هذه المساحة وضع الخليفة عمر على كل جريب عامر او غامر يناله الماء من الحنطة قفيزا ودرهما وأربعة دراهم ، وعلى جريب الشعير ، درهمين ، وعلى جريب الكرم عشرة دراهم ، والقصب ستة والرطبة خمسة[4] .

---

(١) الخراج والنظم المالية ـ ص ١١٧ .

(٢) ابو يوسف ـ الخراج ـ ص ٢٦ وما بعدها .

(٣) الاموال ـ ص ٦٩ .

(٤) الماوردي ـ الاحكام السلطانية ـ ص ١٤٢ وما بعدها .

وكانت ضريبة الخراج ـ على كل حال ـ تختلف في تقديراتها بحسب موقع الارض اذ راعى الخليفة عمر في كل أرض ما تحتمله[1] .

ويقابل ضريبة الخراج التي تؤخذ من الذميين الصدقات التي هي مفروضة على المسلمين ومن هذه العشر وهي عشر الزروع والثمار في الاراضي المملوكة لهم . فما يؤخذ من المسلمين ـ على ما يذكر أبو يوسف[2] ـ من العشور فسبيله سبيل الصدقة وما يؤخذ من أهل الذمة جميعا وأهل الحرب فسبيله سبيل الخراج .

وقد أمر الخليفة عمر ولاته أن يأخذوا العشور مرة واحدة في السنة ، أما الخراج فيحسب الحاصل في كل موسم . وهناك فرق كبير وأساسي بين أرض الخراج وأرض العشر ، فالأولى هي الأراضي التي فتحها المسلمون وتركوها في أيدي أهلها على ان يدفعوا الخراج عنها أما الثانية فهي الأراضي التي اسلم عليها اهلها أو الاراضي التي يوزعها الامام بين الذين غنموها وهذه يدفع عنها أصحابها العشر[3] .

وأراد الخليفة عمر بهذه الاجراءات أن يحقق من ورائها أهدافا لخدمة الاسلام ، فدخلت أقوام كثيرة في الاسلام تخلصا من ضريبتي الخراج والجزية ! ، كما ضمنت هذه الاجراءات أيضا موارد ثابتة لبيت مال المسلمين .

من هذا يبدو أن سياسة الدولة الاسلامية في زمن أمير المؤمنين عمر ، قامت تجاه ملكية الاراضي الزراعية على مبدأ اعتبار الارض المفتوحة في العراق وغيره ملكا عاما للدولة ، على أن تبقى الارض بأيدي أصحابها يزرعونها ويدفعون عنها الخراج[4] ، ورفض جميع الاقتراحات بتوزيع الارض على المقاتلة العرب ، كيلا تحصر الملكية في عدد محدود من الناس ، وتحرم الأجيال القادمة منها[5] .

---

(١) الماوردي ـ الأحكام السلطانية ـ ص ١٤١ ـ ١٤٢ .

(٢) ابو يوسف ـ المصدر السابق ـ ص ١٣٤ .

(٣) أبو يوسف ـ الخراج ـ ص ٦٩ .

(٤) ابو يوسف الخراج ـ ص ٥٧ .

(٥) المصدر نفسه ـ ص ٢٨ .

ولم يغير الخليفتان عثمان ولا علي ما فعله عمر ، وان عمر ـ على حد تعبير الامام علي ـ كان رشيد الامر ولن أغير شيئا صفة عمر[1] . ولا نعلم ـ على ما يذكر يحيى بن آدم ـ ان عليا خالف عمر ولا غير شيئا مما صنع حين قدم الكوفة[2] .

ومن جهة أخرى كانت هناك القطائع وهي في العراق ـ كل ما كان لكسرى ومرازيته وأهل بيته ما لم يكن في يد أحد[3] . وكانت الدولة العربية الاسلامية تقطع هذه الاراضي منذ صدر الاسلام بهدف احيائها ، أو تشجيع الاستقرار وزيادة الانتاج الزراعي[4] .

وتشير المصادر الى أن أهل المدن وبخاصة قريش ، كانوا في طليعة من سعى الى امتلاك الاراضي ، وسرعان ما تبعهم أشراف القبائل في ذلك ، وكان مصدر اقطاع الارض من قبل الخلفاء ، وقد منحت اقطاعيات من قبل الخلفاء الراشدين ، ولعل الخليفة الثالث ـ على ما يذكر أبو عبيد[5] ـ عثمان بن عفان توسع في ذلك أكثر من غيره ، ومع ان الاقطاعات الممنوحة كانت صغيرة ومتواضعة الا أن بعضها كان قرية أو ضيعة كبيرة .

وقد أدى هذا الاقطاع على مر الأيام الى ظهور الملكيات الزراعية الواسعة في المجتمع العربي الاسلامي ، واذا لاحظنا أيضا الى جانب هذه الاقطاعيات الممنوحة توسيع بعضهم لملكياته بالشراء ، أدركنا ظهور ـ على ما يذكر الدكتور صالح أحمد العلي[6] ـ بعض الملاكين الكبار مثل طلحة والزبير وهما من الصحابة ،مم ولد بعض

---

(١) يحيى بن آدم ـ الخراج ـ ص ٢٣ ـ ٢٤ .
(٢) المصدر نفسه ـ ص ٢٣ .
(٣) أبو يوسف الخراج ـ ص ٥٧ .
(٤) أبو عبيد ـ الاموال ـ ص ١٢٥ .
(٥) المصدر نفسه ـ ص ٢٧٨ .
(٦) ملكيات الاراضي في الحجاز في القرن الأول الهجري ـ مجلة العربي ـ ص ٣ ـ ١٩٦٩ .

التذمر لدى القبائل ـ وكانت القاعدة الفقهية التي استندت الى حديث الرسول (ص) وهو من أحيا أرضا مواتا فهي له ، قد أدت الى التوسع في اقطاع الاراضي الخربة المتروكة بالقرب من البصرة والكوفة والموصل وواسط منذ العصر الاموي[1] .

هذا الى جانب منح الاقطاعات في هذا العصر بتوسع أيام معاوية الأول حتى اذا كان عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، كانت الصوافي في العراق قد أقطعت أيام الحجاج كلها لقريش والاشراف والقبائل في كل من البصرة والكوفة .

ونجح الوليد الأول بشراء الاراضي الخراجية من أهل الذمة والمجوس والنبط ، الا أن الخليفة عمر بن عبد العزيز ألغى هذا الاجراء . ولكنه استمر بعده الى نهاية العصر الأموي[2] .

وظل اقطاع الارض الموات بعد احيائها مصدرا مهما للملكية وبخاصة في أرض السواد حيث تراوحت مساحة هذه الاقطاعيات بين (٦٠) جريب الى ٨٠٠ جريب[3] .

وهكذا ظهرت في مناطق البصرة والكوفة وواسط اقطاعيات واسعة وملكيات كبيرة ، قبل نهاية القرن الأول الهجري ، وصار كما مر ـ بنا ـ حفر الانهار لري هذه الاقطاعيات في سواد البصرة وواسط ظاهرة لدى الولاة وأصحاب هذه الاقطاعيات[4] .

والى جانب هذا لم يتوقف الاندفاع لامتلاك الارض عند الحصول على

---

(١) مولوي حسيني ـ الادارة العربية ـ ص ١٢٩ .
(٢) ابن عساكر ـ تاريخ دمشق ـ ٣/ ١٨٢ وما بعدها .
(٣) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٥٠١ .
(٤) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٥٠٣ ـ ٥٠٤ .

اقطاعيات عن طريق المنحة أو الشراء بل لجأ قسم من ملاك الارض الى أساليب أخرى ، كالتجاوز مثلا على أراضي الآخرين أو على الصوافي والارض الموات بوساطة استغلال النفوذ ، ممثلا كان اقطاع آل بكره وهم من منفذي البصرة ١٠٠ جريب في بداية العهد الأموي الا أنه أصبح (١٠٠٠) جريب بنهاية هذا العصر[١] .

واستولى ملاكوا الكوفة على مساحات واسعة من أرض الصوافي أثر ثورة ابن الاشعث بعد أن أحرقوا ديوان الكوفة عمدا[٢] .

ومن ناحية أخرى حافظوا دهافين العراق على اقطاعياتهم واراضيهم الواسعة عن طريق دخولهم الاسلام واستمروا في جباية الضرائب .

وقد ساعدت أساليب اقتطاع الارض وبخاصة شراء الاراضي وتعسف الحياة في عملية استلام الضرائب ، على ضعف تماسك المجتمعات القروية ، كما أوجدت خللا في كيانها ، وقد اعتبر الاسلام الفلاحين أحرارا لهم أن يتركوا الأرض متى شاءوا ، وصارت الهجرة من الريف الى المدن أيام الحجاج ظاهرة مألوفة واسعة لدرجة أنها هددت الزراعة بالانهيار في العراق ولحد ما بمصر ، كما ساعد دخول كثير من أهل الذمة وغيرهم في الاسلام عن عقيدة أو عن رغبة في الخلاص من الضرائب على حدوث أزمة مالية تهدد خزانة الدولة ، فحاول الحجاج انقاذ مالية الدولة فاستمر في أخذ ضريبتي الجزية والخراج على من أسلم وهما يسقطان ـ حسب نظام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ عن الذمى عند اسلامه ، كما حاول أيضا ارجاع الفلاحين النازحين الى المدن لقراهم حتى لا تبور الارض[٣] .

---

(١) المصدر نفسه ـ ص ٢٤٤ .
(٢) المصدر نفسه ـ ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ .
(٣) ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ـ ٤/ ١٧٩ .

ويجب ان لا تنسى أنه اذا انتقل الريفي الى المدينة ، فانه في جميع الحالات تقريبا يصبح غير راغب بالحياة في القرية مرة ثانية ، ويبدو أن المقصود من الاغنية القديمة القائلة : كيف نتمكن من ابقائهم في المزرعة بعد أن شاهدوا مدينة باريس كان صحيحاً في العصور السومرية كما هو صحيح في أيام الحجاج وأيامنا هذه[1] .

وظل هذا الوضع مستمرا حتى خلافة عمر بن العزيز ، فوضع هذا الامام حلا مرضيا يتفق والاسلام ، كما أنه يحفظ لخزانة الدولة حقوقها ، بأن أعفى الذي أسلم من الجزية ، ولكنه اعتبر الخراج ايجارا لأرض الخراج التي تعد ملكا مشتركا للمسلمين ، ويترتب على زارع هذه الأرض ان يدفعه كان مسلماً أو ذمياً ، ، الا ان تدابير الخليفة عمر بن عبد العزيز هذه انتهت بوفاته ، فاعاد يزيد الثاني (١٠١ هـ ـ ١٠٥ هـ) الضغط على دافعي الضرائب[2] .

وقد أدت هذه التطورات الى أن يصبح اشراف القبائل العربية ملاكا ارستقراطيين وأوجدت فجوة كبيرة أحيانا بينهم وبين عامة أفراد القبائل فولدت تذمرا حتى بين العرب من أصحاب الملكيات الكبيرة ، وقد وعد يزيد الثالث في خطابه سنة ١٢٦ هـ ، أن لا يحفر نهرا ولا يمتلك عقارا[3] .

ويبدو ـ مما تقدم ـ ان الامويين لم يتمكنوا من التوفيق بين مصالح الطبقات المتضادة ، أي بين ملاكي الارض والفلاحين ، أو بمعنى آخر أنهم فشلوا في التنسيق بين البناء الاجتماعي للدولة العربية الاسلامية حسبما نظمت في أعقاب الفتوحات الاسلامية أيام الخليفة عمر بن الخطاب ، والاقتصاد الزراعي في الولايات المفتوحة

---

(١) رالف لنتون ـ شجرة الحضارة ـ ٢٠٢/١ ـ ترجمة د . أحمد فخري .
(٢) محمد كرد علي ـ الادارة الاسلامية في عز العرب . ص ١٤ .
(٣) ابن الاثير ـ الكامل ـ ص ٤/ ٢٦٩/ بيروت/ ط٢/ ١٩٦٧ .

وبخاصة في العراق ، فترتب على ذلك حالة اجتماعية توترت فيها العلاقات بين طبقات المجتمع الاسلامي ، وبلغ هذا التوتر درجة أدت الى اصطدام عنيف نتج عنه سقوط الدولة(١) .

ومما لا شك فيه ان قيام دولة بني العباس لم يضعف الاتجاهات الاقطاعية بالنسبة للارض بل عززوها بشراء الارض وتطويرها ، فظهرت أنواع متعددة منها اقطاع التملك ، واقطاع الاستغلال ، والضياع السلطانية ، والاقطاعات المدنية والاقطاعات العسكرية(٢) . وكانت هذه الاقطاعات واسعة وغنية تنتشر في ارجاء بلاد الخلافة ، وأصبح اقتناء الضياع دليل الشرف والثروة فظهرت أنواع كبيرة ومتعددة من هذه الاقطاعيات ، الامر الذي أدى الى ازدياد الملكيات الزراعية الواسعة ، والى تبلور المصالح الاقطاعية في هذا العصر(٣) . ذلك ان المجتمع العباسي شهد الانتقال من الزراعة الضيقة الى الزراعة الواسعة . وظهور طبقة من كبار الملاكين العرب التي تكونت من المتنفذين والعسكريين والتجار(٤) ، وهم عادة يعيشون في المدن الكبيرة ، كالبصرة والكوفة والموصل وواسط وبغداد ، وأنابوا عنهم في زراعة أراضيهم وكلاء يرسلون اليهم وارداتها(٥) . كما استعانوا في فلاحتها باعداد كبيرة من الايدي العاملة الرخيصة للعمل في أراضيهم ، تجمعت من النبط والزنج بطريق النخاسة (تجارة الرقيق) من سواحل افريقيا الشرقية منذ القرن الأول الهجري ، فاستقاوموا بالبطائح في أرض السواد(٦) .

وقد استغل ملاك الراضي هؤلاء العمال وبخاصة الزنج أسوأ استغلال وكان:

(١) سدي الحوزي ـ من تاريخ الحركات المكرية في الاسلام ـ ص ٤٠ .
(٢) ابن مسكويه ـ تجارب الامم ـ ٥/ ٩٦ .
(٣) التنوخي ـ نشوار المحاضرة ـ ٨/ ٧٦ .
(٤) ابن مسكويه ـ المصدر السابق ـ ٥/ ٩٩ .
(٥) الصابي ـ الوزراء ـ ص ٢٩ .
(٦) د . فيصل السامر ـ ثورة الزنج ـ ص ٢٢ .

العمل الذي سخر فيه الزنج وغيرهم هو ازالة السباخ او الطبقة الملحية التي تغطي التربة وجعلها صالحة للزراعة . كما كانت أجورهم ـ على ما يذكر الطبري[1] ـ لا تتجاوز ملء بطونهم فقط لذلك ترى أن تأييد الفلاحين ومنهم الزنج للحركات التي تنادي بالعدالة وتتجه ضد الملاكين في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، يجلب الانتباه من حيث العمق والشمول ، مثال ذلك ثورة المازيار في جرجان سنة ٢٢٤ هـ ـ كما مر بنا ـ أيام المعتصم ، حيث أنها أمرت عمال الضياع الوثوب باربابها وانتهاب أموالهم وهو يعرف ان جل الملاكين من العرب[2] .

وكشفت ثورة الزنج (٢٥٥ هـ ـ ٢٧٠ هـ) التي قادها المغامر على بن محمد ـ الملقب بصاحب الزنج أيام المهتدي (٢٥٥ هـ ـ ٢٥٦ هـ) والمعتمد (٢٥٦ هـ ـ ٢٧٩ هـ)[3] عن نطاق الاقطاع في منطقة واسط والبصرة ، وعن مدى استغلال الرقيق على الأرض . ورغم طبيعتها المحدودة فانها استهوت جموع غفيرة من العبيد في كل المنطقة الممتدة بين واسط والبصرة[4] ، كما أنها لقيت تأييدا كثيرا من القرى المجاورة مما يظهر تدهور أوضاع مجتمعات القرى وسيطرة سادة الاقطاع[5] ، فكانوا يتركون سادتهم ويسرعون اليه تخلصا من الرق .

وكانت حركة الزنج طبقية محدودة الافق ، قامت بهدف تحرير الزنوج فقط ، وهي تمثل لنا حرفة اجتماعية خطرة نشأت كما أشرنا ـ أيام العباسيين في سامرا ضد النظام الاجتماعي الاقتصادي السائد ، كما أنها تكشف لنا عن فضاعة استغلال الرقيق بشكل يخالف مبادىء الاسلام وتمثل الجشع المادي لأصحاب الأموال .

---

(١) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٩/ .
(٢) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة مازيار ـ ٢/ ٤٣٦ .
(٣) زامباور ـ معجم الانساب والاسرات الحاكمة ـ ص ٣ .
(٤) د . أحمد ابرهيم شريف ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ـ ٢/ ٣٤٧ .
(٥) د . عبد العزيز الدوري ـ دراسات في العصور العباسية المتأخرة ـ ص ٥٧ .

فالتف حول هذا الداعية المغامر معظم العبيد الذين كانوا يضيقون بحالهم ويرغبون بالتحرر التفافا شديدا ، فكون منهم جيشا كبيرا استخدمه لتحقيق اطماعه واتخذ لنفسه قاعدة ، فبنى شمال واسط على ضفة دجلة الشرقية سماها المختارة ، وأحسن تحصينها ثم أخذ يتوسع فيهاجم المناطق المجاورة[١] .

وساعدت شجاعة الزنوج ومرانهم على القتال في انتشار جيوشهم في مناطق واسعة شملت أرض السواد من العراق وخوزستان والبحرين ، فتملكوا الايله وعبادان والاهواز وواسط والنعمانية ورامهرمز ، كما أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من بغداد وسامرا حاضرة الخلافة[٢] .

أشاعات جيوش الزنج الرعب في قلوب الناس ، ومن دراسة حوادث الحركة تظهر شدة حقد الزنوج على أسيادهم وحنقهم على المجتمع الاسلامي ، اذ قاموا بفضائح ومنكرات ، لا يقدرها الا من تصفح تاريخ اليعقوبي[٣] ، وتاريخ الرسل والملوك للطبري[٤] ، ومروج الذهب للمسعودي[٥] ، وتجارب الامم لابن مسكويه[٦] ، والكامل في التاريخ لابن الاثير[٧] ، الذين يتحدثون عن هذه الحركة باسهاب ملفت للنظر يدل على خطورتها في تلك الفترة من الحكم العباسي .

وقد انهارت الحركة أمام جيوش الدولة العباسية التي قادها الموفق في ٢٧٠ هـ بعد أن خربت مزارع قسم كبير من السواد ، ودمرت عددا من قراه ومدنه المهمة ،

---

(١) الطبري ـ المصدر السابق ـ ٩/
(٢) المصدر نفسه : ٩/
(٣) ٢/ ٣٧٠ .
(٤) ٩/ ٢٢٩ .
(٥) ٤/ ٢٠٨ .
(٦) ٦/ ٢٩١ .
(٧) ٧/ ٧٦ ، ٨٨ .

كالبصرة والايله ، ولعل فشلها ـ على ما يعتقد الدوري[1] ـ ناتج بالدرجة الأولى عن كثرة فضائحها وخلوها من برنامج اجتماعي شامل .

وأظهرت الحركة القرمطية في أواخر القرن الثالث الهجري ، هي الأخرى اضطراب النظام الاقتصادي والاجتماعي على حقيقته في ذلك العصر ، فوجدت تجاوبا جماعيا من الفلاحين وبخاصة في السواد . وكانت كلمات الداعي الاول الى أهل الكوفة معبرة اذ قال : أمرت أن أروي هذه القرية ، واغني اهلها ، وان انقذهم ، وأضع بيدهم ثروة أسيادهم[2] .

وكانت الحكومة دائما على أهبة الاستعداد لنجدة أصحاب الضياع من فعاليات الدعاة ، وحين قمعت الحركة في السواد جنحت الدولة تجاه العامل الزراعي الى الاعتدال ، وذلك خوفا ـ على ما يذكر الطبري[3] ـ على السواد أن يخرب اذ كانوا ـ أي الثوار ـ فلاحية وعماله .

واعتمد خلفاء سامرا في القرن الثالث الهجري على المرتزقة من المماليك الاتراك ، فمنحت لهم الاقطاعات فاستغلوها أسوأ استغلال ، فتكدست الثروات الطائلة في أيديهم ، وحرموا غيرهم من كل شيء ، الى حد أن تحرك الموالي بكرخ بغداد في ٢٥٥ هـ أيام المهتدي فبعثوا اليه برسالة يشكون فيها تأخر أرزاقهم وما صار من الاقطاعات والزيادات والرسوم الى قوادهم ، وقد صحب عهد الأتراك كثير من المصادرات والمطالبات المالية ، فأدى ذلك الى ضعضعة سلطان العباسيين السياسي والمالي وأكد الحركات الانفصالية والثورات الاجتماعية .

وبنهاية الربع الأول من القرن الرابع الهجري صارت للجند الاتراك برئاسة

---

(١) دراسات في العصور العباسية المتأخرة ـ ص ٢١ .

(٢) ابن الجوزي ـ المنتظم : ١١٣/٥ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : ٣٦٧/١٠ .

أمير الامراء (٣٢٤ هـ - ٣٣٤ هـ) السيطرة الكلية في خلافة مجزأة سياسيا ومرتبكة ماليا . ولم تمض عشر سنوات حتى استولى البويهيون (٣٣٤ هـ - ٤٤٧ هـ) على العراق واتخذوا خطا الاقطاع على نطاق واسع مما زاد الاقتصاد الزراعي يومذاك بلة في الطين .

د - الحاصلات الزراعية :

عرفت الزراعة في العراق منذ القدم ، وهي الحرفة الرئيسية لسكانه نظرا لملاءمة الظروف الطبيعية لها كوجود مساحات كبيرة من الاراضي المنبسطة الصالحة للزراعة ، ومناخ مساعد للنمو مختلف شتاء وصيفا ومعتدل ربيعا وخريفا ، وهذا ما نتج عنه تنوع في الحاصلات الزراعية ، كما أدى توفر الموارد المائية في مناطق واسعة صاحبها انتشار حضري واسع شمل كل المساحة المزروعة في القطر شمالا ووسطا وجنوبا .

وقد اهتم العرب المسلمون عند دخولهم العراق في الزراعة واصلاح الارض واحيائها . فنشأت حركة زراعية في عهدي الراشدين والامويين واسعة النطاق ، فشقت لها الانهار بالقرب من المدن لاغراض الري ، وغرست النخيل وأشجار الفاكهة حول البصرة والموصل وواسط ، وانكب ، الناس على زراعة الارض[1] الممنوحة لهم من قبل السلطة . ولكن السلطة حذرتهم بأن لا ينهكوا وجه الارض فان شحمتها فيه[2] ، وهذا بلا شك تطلع حكومي أيام الراشدين نحو المحافظة على الارض للاغراض الزراعية .

وفي خلافة عثمان (٢٤ هـ - ٣٥ هـ) اقطعت أراضي العراق ولا سيما صوافي

---

(١) البلاذري - فتوح البلدان - ص ٤٩٠ .
(٢) الجاحظ - البيان والتبين - ٢/ ٢٢٦ .

كسرى على الصحابة لزراعتها والاستفادة منها ، كما قام بأصلاحات بارزة في مجال الزراعة والري[1] .

وأظهر معاوية الاول في مفتتح العهد الاموي (٤١ هـ ـ ١٣٢ هـ) اهتماما كبيرا في الزراعة واستصلاح الاراضي في أرض السواد ، فكوفحت الفيضانات وجففت البطائح[2] .

وقد تابع الولاة الأمويون من بعده الاهتمام بالزراعة ، فشجعوا الفلاحين على احياء الاراضي الموات . فكان الحجاج يخرج الى المزارع والحقول يتفقد أحوال الزراعة حول واسط ، فيقف عند كل حقل ليسأل الفلاحين عن طرق الزراعة ، وحال المحاصيل ، وكان يكتب فضلا عن ذلك الى عبد الملك بن مروان تقارير وافية عن كميات الامطار التي تسقط في العراق[3] . كما قام أيضا بتسليف الفلاحين من بيت المال لتمشية أمورهم الزراعية وتحسين ظروفهم المعاشية ، فأقرض الفلاحين ـ على ما يذكر ابن خرداذبه[4] ـ مليوني درهم . في حين منع أهل السواد من ذبح البقر لتوفير الاعداد اللازمة منها للحراثة والزراعة والري ، وقد لقي انتقادات لاذعة من سكان أهل السواد لهذا الاجراء ، فقال فيه الشاعر :

شكونا اليه خراب السواد فحرم جهلا لحوم البقر

وبذل خالد بن عبد الله القسري أمير العراق أيام هشام بن عبد الملك جهود مضنية في تنظيم الري واصلاح التربة للحصول على كميات وفيرة من المحصولات الزراعية .

---

(١) البلاذري ـ المصدر السابق ـ ص ٢٧٣ .
(٢) الماردي ـ الاحكام السلطانية ـ ص ١٧٧ .
(٣) الجاحظ ـ المصدر السابق ـ ٣/ ٢٥٣ .
(٤) المسالك والممالك ـ ص ١٥ .

أما العصر العباسي فقد ازدهرت فيه الزراعة وتنوعت المحاصيل الزراعية فكانت كل مدينة محاطة برساتيق وقرى وبساتين ، مثل البصرة التي وصف الجغرافيون بساتين النخيل فيها ، كأنها صف واحد يبلغ طوله أكثر من خمسين فرسخا (٢٢٥ ميل)(١) .

وكان سواد الكوفة من أكبر المناطق في زراعة النخيل ، فتمتد مزارعه غربا حتى القادسية وشمالا حتى الانبار وهيت(٢) ، كما غرست النخيل أيام الحمدانيين (٢٩٣ هـ - ٣٦٧ هـ) في بساتين الموصل ، في حين اشتهرت منطقة واسط بزراعة النخيل أيضا(٣) .

وشجع تدفق المياه من دجلة والفرات أهل بغداد على غرس النخيل التي حملت اليهم من البصرة فصار ببغداد أكثر منه بالبصرة والكوفة والسواد(٤) . كما حملت النخيل أيام المعتصم الى سامرا من بغداد والبصرة وسائر السواد حتى أصبحت سامرا من أهم المدن الاسلامية في انتاج هذا المحصول(٥) .

ولم يكن العرب أول من مارسوا زراعة النخيل في العراق ، وانما كانت زراعته معروفة لدى العراقيين من أقدم العصور ، فقد كان انتاج التمور معروف في باب ، وقد وضعت مواد في شريعة حمورابي (١٧٥٠ ق . م - ١٨٠٠ ق . م) لتشجيع زراعة النخيل وتعهدها ، وتحديد غرامة كبيرة على من يقطع نخلة واحدة منها(٦) .

---

(١) ابن حوقل - صورة الارض - ٢١٢/١ .
(٢) الاصطخري - مسالك الممالك - ص ٥٨ .
(٣) ابن حوقل - المصدر السابق - ١/ ٢٣٩ .
(٤) اليعقوبي - البلدان - ص ٢٥١ .
(٥) اليعقوبي البلدان - ص ٢٦٣ .
(٦) عبد الجبار بكر - النخيل وتاريخه - ٢/ ٢١٦ - مجلة الزراعة العراقية - المجلد الثاني عشر .

وبفضل زراعة أشجار النخيل ورعايتها ، حصلت الحضارة العراقية على مر العصور على مورد زراعي متعدد الجوانب ، حيث كانت ولا تزال تستثمر من هذه الاشجار طعاما وعسلا وخلا ونبيذا ومادة للتسقيف وصنع الحصر والسلال وسيقانا للاعمدة وليفا لعمل الحبال ، وكربا وذيخا وسعفا جافا للوقود .

كذلك انتشرت زراعة الفواكه أيام العباسيين في معظم المدن الاسلامية ، وكانت الكروم من أشهرها ، وقد كثرت أصنافها وتعددت أنواعها في البصرة والكوفة والموصل وحلوان[١] . وأشار البلاذري الى كثرة الفواكه في العراق فقال[٢] . لاحظ المغيرة بن شعبة أمير الكوفة أيام معاوية الأول ، ان انتاج العراق من الفواكه زاد على انتاج الحنطة والشعير كما ازدهرت زراعة الحنطة على الامطار في المنطقة الجبلية وأرض الجزيرة الفراتية ، في حين كان الشعير من الحاصلات المهمة في كل من بغداد وواسط اضافة الى محصول الحنطة[٣].

وانتشرت زراعة القطن في كل من الموصل وواسط والبصرة ، كما اشتهرت كل من البصرة وواسط بزراعة قصب السكر في أرض السواد ، في حين تميزت الموصل بزراعة بنجر السكر بسبب برودة المناخ ، الى جانب هذا اشتهرت كل من بغداد والكوفة وواسط وأرض البطيحة بزراعة الرز[٤] ، اضافة الى زراعة أنواع من الزهور والاوراد والرياحين كالنرجس والاقحوان والياسمين ومن يتصفح العقد الفريد[٥] ـ يلاحظ أنواعا كثيرة ومتعددة من الزهور والرياحين انتظمت زراعتها في مساحات واسعة بالقرب من الكوفة وبغداد وسامرا .

---

(١) المقدسي ـ ص ١٢٢ وما بعدها
(٢) فتوح البلدان ـ ص ٣٥١ .
(٣) آدم متز ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ـ ٢١٢/١ .
(٤) ابن مسكويه ـ تجارب الأمم ـ ٥/ ٢٩٤ .
(٥) ابن عبد ربه ـ ٢٤٨/٦ .

واشتهرت كربلا وبغداد بالفواكه الحمضية كالبرتقال والليمون بنوعية والتفاح واضافة الى هذه الفواكه فقدعرفت كربلا بجودة الرمان والمشمش والأجاص باختلاف أنواعه . كما انتشرت زراعة البقول والفروس والفواكه بسامرا[1] . هذا ويشير الاصطخري[2] : الى أن منطقة واسط غنية بالحاصلات الزراعية المتنوعة وكانت تضمن ـ على ما يذكر ـ بمبالغ طائلة سنويا . ويذكر ابن حوقل[3] : ان البطائح كانت تمد العراق بمختلف المنتوجات . كما تمد الموصل والجزيرة الفراتية بكثير من المؤن والحاصلات ، ويسري القول نفسه على سامرا وواسط اللتين تجهزان بغداد بما تحتاجه من الحاصلات الزراعية والمؤن الأخرى كلما يتطلب الامر ذلك .

ويبدو ان بعضا من هذه الحاصلات الزراعية قد زودت الصناعة ببعض الخامات ، فقد اعتمدت صناعة النسيج على القطن والحرير والكتان ،فيري ـ متز ـ ان انتشار زراعة القطن في الجزيرة الفراتية والموصل أيام الحمدانيين قد شجع صناعة الاقمشة القطنية[4] . كما اعتمدت صناعة العطور في الكوفة على الزهور والرياحين[5] ، ويشير آدم متز الى : أن صناعة السكر في البصرة اعتمدت على قصب السكر وفي الموصل على البنجر[6] . في حين اعتمدت صناعة الزيوت والشموع والصابون على حاصلات السمسم والزيتون ، كما استخرج زيت المصابيح في العراق من زيت السمسم[7] .

ويقدر ابن الفقيه ما يستهلكه المنزل في بغداد من زيت الاضاءة (دهن

---

(١) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٢٦٤ .
(٢) مسالك المالك ـ ص ٥٨ .
(٣) صورة الأرض ـ ٢١٢ و ١٩٥ .
(٤) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهرجي ـ ص ٢/ ٣٤٤/ . ٣٥/ ٣٥٢ .
(٥) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ ص ٢٦١ .
(٦) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ـ ٢/ ٣٠٥ .
(٧) المصدر نفسه ـ ٢/ ٣٠٥ .

البزر) كل ليلة أوقيتين ـ كما يستهلك الحمام ربع رطل ، في حين يستهلك المسجد في كل ليلة رطلا واحدا[1] . وكذلك يقدر ما يستهلكه المنزل الواحد من الصابون برطـل واحـد يوميا ، وهـذا ما يدل على الحاجـة الهائلـة للـزيوت المستخرجة من المحاصيل الزراعية .

(١) مختصر كتاب البلدان ـ ص ٢٦٩ .

٢ ـ النشاط الحرفي :

يستمد العمل قيمته من كونه عنصرا فعالا من عناصر الانتاج وأساسا مهما في بناء صرح الحضارة والعمران ، وقد كان ولا يزال ضرورة اجتماعية تفرضها الحاجات المعاشية على الافراد .

عرف العراق هذا النشاط منذ أقدم الازمنه ، فكانت صناعة الفخار الملون منتشرة به في عصور ما قبل التاريخ ، كما وجدت آثار أقدم القرى والمباني فيه ، في حين توجد نماذج من خوذ وأسلحة ذهبية مطعمه بالاحجار الكريمة ، وحلى دقيقة الصنعه ، وتماثيل سومريه واكديه وبابليه وآشوريه كثيره معروضه في قاعات المتحف العراقى الحالي ، وآثار بابل لا تزال قائمة الآن تؤكد وجود فنون البناء كالنحت والزخرفه والنقش في العراق القديم . وقد استمر هذا النشاط الحرفي والفني في العصور التاليه ، وان كانت تتذبذب في جودتها وانتشارها تبعا لتذبذب الأحوال السياسية والاقتصادية التي مرت بها البلاد في تاريخها الطويل .

وعندما قدم العرب المسلمون العراق فاتحين ، ظلت الحرف والصناعات الفنية فترة طويلة من الزمن في ايدي اهله ، وقد سمح العرب لهذه الحرف بالاستمرار بل تتلمذ كثير من الصناع العرب على يد أرباب الصناعات الفنية في تلك البلاد [1] ، وحاولوا تقليد أو نقل بعض تلك الحرف الى مدن البصره والكوفه

---

(١) د . زكي محمد حسن ـ فنون الاسلام ـ ص ٣٢ .

والموصل[1] .

وقد جذبت الامصار التي أنشأها العرب المسلمون في العراق كثيرا من الأيدي العامله لتوفر فرص العمل والكسب فيها ، وحاجة المدن الى وسائل الترف فانتقل حذاف أهل الصناعات اليها[2] يضاف الى ذلك ان الدولة العربية الاسلامية أباحت الهجرة الى المدن ، فقد سمح مثلا لأهل مرو وبخارى أيام زياد[3] بالسكن في البصره ، وأهل خوارزم سكنوا بواسط بعد سماح الحجاج لهم[4] ، كما سمح أيضا لأهل مرو وبخارى وخوارزم بالسكن في بغداد[5] . في حين استجلب الكثير من الصناع والحرفيين للعمل في المدن الاسلامية من ذلك مثلا ، ان المنصور لم يبدأ ببناء مدينة بغداد حتى تكامل عنده من الفعله وأهل المهن مائة ألف[6] . وكذلك فعل المعتصم حين بنى سامرا ، والمتوكل عندما شيد المتوكليه[7] .

ولا شك أن تجمع مثل هذه الاعداد الكبيره من العمال والحرفيين من كل أمصار الدولة الاسلامية ، كان له أبعد الاثر في التقدم الحرفي نتيجة الاحتكاك والاتصال وتبادل المعرفة والخبرات .

وكان يساعد على ذلك تشجيع الخلفاء وحاشيتهم ونشاط التجارة العالمية التي كان العراق أحد طرقها الرئيسية ومركزا لتزويدها بسلع مهمه كالمنسوجات الفاخره والزجاج والورق وغيره وتوفر المهاره الفنيه ورؤوس الاموال ، فالعراق ـ على حد

---

(١) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ ص ٢٦١ .
(٢) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٢٥١ .
(٣) البلاذرى ـ فتوح البلدان ـ ص ٢٦١ .
(٤) بحشل ـ تاريخ واسط ـ ص ٤٤ .
(٥) اليعقوبي ـ المصدر السابق ـ ص ٢٤٨ .
(٦) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٢٣٨ .
(٧) ابن الجوزي ـ مناقب بغداد ـ ص ٨ .

تعبير ابن الفقيه[1] ـ قلب الارض وخزانة الملك الاعظم وقل في عجائب بغداد ماشئت التي اجتمع فيها ما هو متفرق في جميع الاقليم من أنواع التجارات والصناعات .

واذا استعرضنا أهم ما جاء به الجغرافيون والبلدانيون والرحاله والمؤرخون عن الانتاج الحرفي في العراق ، نجد ابن قتيبه الدنيورى[2] ـ يؤكد تميز البصره بنسج الاكسبه والمطارف ، حيث كانت الامثال تضرب بجمال ورونق ايراد البصرة وأكسبتها ، كما اشتهرت بنسج الخز والبز ومنسوجات أخرى تصنع منها الملاحف المعروفة بالملاحف البصريه والربط ، واشتهرت كذلك بالمنسوجات الحريريه والصوفيه والكتانية[3]

ويؤكد ـ ابن الفقيه [4] ـ مكانة الكوفه في صناعة النسيج منذ تأسيسها حتى ازدهار ـ الدولة العباسية ، وقد ذكر أحد رجالها البارزين والمعروف بابي بكر الهذلي مفاخرا أهل البصره ـ نحن أكثر منكم ساجا وعاجا وديباجا ، وهذا يدلنا على شهرة الكوفة وقدرتهم على نسج الديباج والوشى والخز .

ويشير ـ الخطيب البغدادي ـ الى[5] : ان مدينة واسط قد اشتهرت بنسج الستور التي نالت شهرة واسعه بين ستائر العراق . وكانت تعرف بالستور الواسطيه ، التي تستخدم للزينة وتعلق على الحيطان .

وكانت هذه الستائر ذات الوان متعدده ، ويبدو ان الصياخين بواسط كانوا قد

---

(١) مختصر كتاب البلدان ـ ص ٢٥٢ .
(٢) عيون الاخبار ـ ١/ ٢٨٩ .
(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ـ ص ٣٣ .
(٤) مختصر كتاب البلدان ـ ص ٢٥٢ .
(٥) تاريخ بغداد ـ ٢/ ١٠٢ .

تفننوا في عمل الاصباغ لايجاد أنواع متعددة منها وذلك لاخراج رسوم الفرش بألوان زاهيه لاسيماان الواسطين كانوا قد اشتهروا بعمل الصباغه ، وخير ما يصبغ ـ على ما يذكر الجاحظ[1] ـ في الاماكن بأرض واسط ، وكانت واسط تستورد هذه الاصباغ من المشرق ، وقد ظلت هذه الستائر محتفظة بجودتها حتى القرن الرابع الهجري ، فقد أشار الخطيب البغدادي الى [2] : ان الخليفة المقتدر (٢٩٥ هـ ـ ٣٢٠ هـ) عمل ستائر قصره ببغداد منها . ومما كان ينسج في مدينة واسط نوع من النسيج يصنع منها الفلانس[3] .

ويذكر الخطيب البغدادي [4] : شهرة الموصل بنسيج القطيفة الموصليه ، والمنسوجات الصوفيه ، التي كان يصنع منها المسوح الموصلية الشهيرة ، والمنسوجات الحريرية المزينة بخيوط الفضه والذهب ، كما برع الموصليون بنسج الكتان الذي يصنع منه الستائر البديعة وأغطية الفرش والناموسيات التي تعرف باسم المقارم[5] . وحازت الموصل أيضا على شهرة واسعة بين المدن العراقية بانتاجها نوعا من النسيج القطني البديع بكثرة والذي كان يعرف بالشاش ، وكان للشاش الموصلي شهرة عظيمة[6] .

وانتجت بغداد ـ على ما يذكر المقدسي[7] ـ أنوعا عديدة من المنسوجات الحريرية والصوفية التي اشتهر نساج بغداد بنسج الازر البديعة منها ، كما زودت مناسج بغداد قصور الخلفاء بنسج القصب والملحم ، حيث ظهر من الأخير نوع

---

(١) التبصر بالتجارة ـ ص ٣٢ .
(٢) تاريخ بغداد ـ ١/ ٥٢ .
(٣) القزويني ـ آثار البلاد واخبار العباد ـ ص ٤٧٩ .
(٤) تاريخ بغداد ـ ٢/ ٨٠ .
(٥) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة ـ ص ٣١ .
(٦) الف ليله وليله ـ حكاية هرون الرشيد مع الخليفة الثاني ـ ص ٣٧ .
(٧) أحسن التقاسيم ـ ص ١٢٨ .

يسمى بالملحم الطرازي .

وأشار أبو الفرج الاصفهاني الى[1] بغداد : انها برعت بنسج الخـز ، وقـد عرفت الثياب الخزية أيام المنصور باسم المنصورى . والخز هو النسيج الذي تكون فيه السدى من الحرير واللحمات من الصوف .

واتصفت الانسجة في سامرا دون غيرها بالزخاف ، فقد وصفها السعودي[2] ، بأنها نهاية في الحسن والصنعة وجودة الصبغ . ويشير الاصطخرى[3] : الى صناعة قصر الثياب في بغداد حتى ان أنواعا وبخاصة منها كانت تصنع في تستر من أعمال اقليم خوزستان ببلاد فارس لاجل حملها الى بغداد .

ويقدم لنا المقدسى ، وصفا جيدا لأنواع الصناعات في العراق مع توزيعها الجغرافي ، ، فأشار الى[4] : ان البصرة مشهورة بالخز والبز ، وانها كانت مدن اللالىء والجواهر وبها يصنع الراسخت والزنجفر والمداسخ ، كما أنها ذات أقطان ، وأن الكوفة تشتهر بعمل عمائم الخز وصناعة العطريات ، وبغداد تنسج الطرائف وأنواعا من ثياب الغز ، وأشار كذلك الى شهرة السفن الواسطية والبصرية والقوارب البغدادية ، وذكر أيضا : ان من رسوم أهل العراق التجميل والتطليس ، وأنهم يكثرون التنقل وتسطيل للعمائم .

وكان للانشطه الحرفيه محلات تعرف بها ، ففي بغداد كانت محلة العتامية التي تنسج الثياب المعروفة باسمها ، وهي من حرير مختلف الألوان[5] . وان باقداري هي

---

(١) الاعاني ـ ٨/ ١٤١ .
(٢) مروج الذهب ـ ٤/ ١٩٠ .
(٣) مسالك الممالك ـ ص ٩٣ .
(٤) أحسن التقاسيم ـ ص ١١٨ وما بعدها .
(٥) ابن حبير ـ الرحله ـ ص ٢١١ .

قرية من قرى بغداد وتعمل بها ثياب من القطن غلاظ يضرب بها أهل بغداد المثل[1] ، كما أن ترسي وهو نهر بنواحي الكوفه مأخذه من الفرات وعليه عدة قرى ، تنسب اليه ثياب جميله تسمى بالترسية[2] . في حين تشتهر الموصل بالصناعات النحاسية المكفته التي تحمل الى الملوك ، كما فيها تنسج الثياب المحررات[3] .

وصاحب (الحوادث الجامعة) [4] يشير الى وجود الصابون في بغداد وعيره من المدن العراقية في هذه الفترة وهو من المستلزمات المهمه للمدينة ، فقد ذكر الخطيب البغدادي[5] : ان مصانع للصابون قد أقيمت في بغداد تعتمد على الزيوت .

كذلك أنشأ العباسيون ـ على ـ على ما يذكر بن خلدون [6] ـ مصنعاً للورق في بغداد وآخر في الموصل وثالث في البصره ، وجلبوا لهذه المصانع الصناع وأرباب الحرف من مصر التي اشتهرت بهذه الصناعة منذ وقت بعيد .

واشتهرت بغداد والموصل بالصناعات الزجاجية التي أخذوها عن الفرس وبلغت درجة كبيرة من الدقه والاتقان ، وبلغ من مهارة الصناع ان الزجاج كانوا يرصعونه بالجواهر ويكتبون عليه بالذهب المجسم ويصنعون منه أقداحا بديعة الصنع[7] .

وصاحب الحوادث الجامعه يشير الى [8] : صناعات كماليه كثيرة اشتهرت بها كل من البصره والكوفه وواسط والموصل وانشئت لها محلات لصناعاتها وأسواق

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ١/ ٣٧٥ .

(٢) المصدر نفسه ـ ٤/ ٧٧٣ .

(٣) ابن سعيد المغربي ـ كتاب بسط الارض في الطول والعرض ـ ص ٩٠ .

(٤) ص ٢١٥ .

(٥) تاريخ بغداد ـ ١/ ٧٥ .

(٦) المقدمة ـ ص ٢٤٥ .

(٧) الحوادث الجامعه ـ ص ٢٢١ .

(٨) ص ٧٩ وما بعدها .

لبيعها ، ومن هذه الصناعات صناعة التحف المعـدنية والفضية من قنـاديل وحلى نسائية وأقمشة فاخرة من الحرير والصوف والقطن .

وفي المبنى الموجود في بغداد الحاليه والموسوم بالقصر العبـاسي ، وفي جامـع مرجان المطل على شارع الرشيد ، والمدرسه المستنصرية المطلـه على ضفـة دجلـة اليسرى بالقرب من الجسر العتيق ، توجد نماذج عباسية معروضة في هذه الامكنـة لمصنوعات زجاجيه ومعدنيه وأخرى فخاريه وخزفيه جميله وقاشانى وابواب وشبابيك معموله من الخشب المزخرف بالزخرفة الاسلامية الهندسية منها والنباتية .

وأخيرا لا بد لنا من الاشارة الى صناعة ضرب النقود الذهبية منهـا والفضيه والنحاسيه التي سكت في دور ضرب واسط والبصره ومدينة السلام (بغداد) وواسط ونجدها من دور الضرب العربية الاسلامية المنتشرة في جميع ديار الاسلام وتعود هذه المسكوكات الى العهدين الاموي والعباسي .

٣ ـ التجارة :

التجارة بلا شك تساعد على ازدهار حياة المدن ، لانه مع اتساع نطاق المعمور بدأت الشخصيه الكامنه للعراق تتبلـور مع الفتـح الاسلامـي من جديد كمنطقـة عبور ، ووصل بين الموسميات والمعتدلات ، ، وشغل وظيفة الممر كالسابق بين المقر الآسيوي والمقر الاوربى حتى أصبحت كلمة عربي بالافرنجية تعنى تاجرا[1] .

وكان كل النشاط التجارى مركزا بالضرورة في المدن ، واذا دلفنا جنوبا الى الموانىء وجدنا انتقال مركز الثقل السياسي والبشري من دمشق والشام الامويه الى بغداد والعراق العباسيه ، قـد أدى الى انتقال التجارة والاهمية الملاحية من طريق مصر البحـر الاحمـر الى الخليج العربـي ، فبقيت موانيه القديمـة وظهـرت أخــرى جديدة ، فأصبحت الايله نتيجة لهذا الانتقال ميناء توأما للبصره التي أنشأها العرب المسلمون جنوب العراق ، ورغم ان البصرة كانت المركز التجاري الكبير ، الا أن السفن الكبرى لم تكن تستطيع التصعيد اليها ، فكانت تنتهي عند الايله ، فكانت البصره القديمة على قناتها هي ميناء الجزء الجنوبي من العراق وكانت الايله مساعدة لها .

ومع ذلك لم تكن الملاحة الى الايله سهلة للسفن الكبيرة مما أدى الى انشاء

---

(١) د . جمال حمدان ـ جغرافية المدن ـ ص ٢٠٥ .

ميناء سيراف على ساحل فارس جنوب غرب شيراز ، وهي وان كانت في موضع حار مجدب كعدن أي موضع من مواضع الضرورة ، الا انها بلغت حجما وأهمية كبرى في تجارة الصين ، وكانت السفن الكبرى تنتهي اليها فتنتقل السلع الى السفن الصغرى لتقلها الى البصرة ، أي انها كانت تماما ميناء خارجيا للبصره ، ولم تلبث أن أصبحت كعدن دهليز الصين(١) .

ويضيف هذا الانتقال السياسي الى جانب بعث وظهور الموانيء خصيصة بارزة في شبكة المدن العربية الاسلامية في العراق تتميز بالتنافس التوازني بين المواقع المختلفة لشدة اشتراكها في الاعتماد على التجارة العبوريه التي تتأثر بالمتغيرات السياسية والتطورات التاريخية ، ويبدو هذا بأوضح صورة في عملية الشد والجذب بين موانىء الخليج العربي من ناحية والبحر الاحمر من ناحية أخرى، باعتبارهما المحورين الاساسيين للملاحه العبوريه حول الجزيرة العربية ، ففي العهد الاموي ، كانت الاهمية للبحر الاحمر وموانيه ولا سيما مع وجود قناة خليج أمير المؤمنين ، ولكن مع انتقال الحكم من الشام الاموي الى العراق العباسي .

انتقلت الاهمية التجارية والملاحية الى الخليج العربي لا سيما مع ردم العباسيين لخليج أمير المؤمنين لاسباب سياسيه . فحلت موانيء الخليج العربي كسيراف والبصره والايله محل القلزم وعدن ، واصبح دور البحر الاحمر ثانوي ، ولكن في اواخر القرن الثالث الهجري اضعفت الحركات والفتن في جنوب العراق المتمثلة بحركتي الزنج والقرامطه النشاط التجاري في الخليج العربي ، فعادت الاهمية مباشرة الى موانيءالبحر الاحمر وبخاصة في عهدي الدولتين الفاطمية والمملوكية(٢) .

---

(١) A . H . Hourani - The Islamic city in the light of Recent recearch P _ 207

(٢) د. جمال حمدان ـ المدينة العربية ـ ص ٧٤ .

ولم تقتصر ظاهرة التوازن التنافسي هذه على الابعاد الاقليمية الكبرى وانما كانت فعاله أيضا في الاطارات الاصغر ، ففي وسط العراق حلت الكوفه محل الحيره وواسط محل كسكر وبغداد محل المدائن والانبار وفي شماله حلت الموصل محل اربيل ونوارد شير وفي جنوبه حلت البصره محل الايله حيث اصبحت (أي البصره) اعظم مركز تجاري في جنوب العراق على الطريق التجاري القديم الذي كان يربط الشرق والهند والروم، وازدهر سوق المربد واجتذب تجارة البدو الى درجة اضمحلت باقامته معظم الاسواق التي كان العرب يمارسون اعمالهم التجارية بها في شرق الجزيرة العربية قبل الاسلام . وقد أصبح هذا السوق الى جانب أهميته التجارية مركزا يتجمع فيه العرب على اختلاف الوانهم ودرجاتهم من البدو والحضر .

وكان تطور البصره الى مركز تجاري مزدهر يهيىء أساسا ثابت الاركان تقوم عليه نهضة المدينة ونموها المتصل ويضمن استمرار ذلك حتى في الوقت الذي استنفذت فيه اغراضها كقاعدة حربية ولم يعد هناك مبرر لتوسعها وتقدمها على ذلك الاساس وقد كان للنشاط التجاري النصيب الاوفر في دفع حركة التحول الحضاري وتغيير تلك النواة العسكرية التي يغلفها سياج سميك من البداوة الى مجتمع مستقر يفيض بظل الاسلام في الخير والبركات .

وقد أعظم الاسلام من شأن التجاره ، وليس أدل على ذلك من أن « تسعة اعشار الرزق في التجارة » « وبارك الله في التجارة وقلاب الحجارة » ولذلك صرف كثير من صحابة الرسول وغيرهم ممن استقر في البصره وغيرها من المدن الاسلامية جهودهم لها . ووجد عدد من القرشيين والثقيفيين الذين أقاموا بها الفرصة سانحة لابراز ملكاتهم في هذا المجال ، وقد جمع رجال مثل أنس بن مالك الذي يعتبر من اصحاب الرسول (ص)[1] . وابو بكره ونافع بن الحارث وزياد وابناؤه ثروات

---

(١) ابن سعد ـ الطبقات الكبير ـ ٧/ ١١ .

ضخمة[1] ، وقد اتاح نظام الوظائف المدنية الذي يستطيع الرجل بمقتضاه ان لا يدخل في صفوف المجاهدين في الجيش الفرصة لعدد كبير من ذوي النفوذ ان يستقروا في البصره . ويشاركوا بفعالية في حياتها التجارية حيث كان الامراء وعمالهم وموظفوهم الذين كانت طبيعة اعمالهم تقتضي اقامتهم بالمدينة فاشتغلوا بالتجارة واجتازوا على ما يذكر بن قتيبه الدنيوري ـ وافر الارباح[2] .

ونشط الرأسماليون والتجار والمهنيون من الفرس فاداروا اعمالهم بحرية تامة تحميهم الدولة ، ونظام الولاء ، واستخدمت الحكومة بعضهم في مصالحها المختلفة كسك العملة وجبي الاموال والوظائف الكتابية والادارية التي اتاحت لهم الفرص للاشتغال بالتجارة الى جانب اعمالهم الرسمية .

فالبصرة اذن تحتل مركبا كاملا من التصدير والاستيراد للبضائع والمسافرين معا . وتقدم ظهيرا كبيرا يشتمل على وحدة سياسية كاملة او اكثر وتعتبر البصرة ـ على حد تعبير الدكتور ـ جمال حمدان [3] ـ بموقعها البحري هذا النافذه الحقيقية للعراق العربي الاسلامي على العالم الخارجي .

واذا غادرنا البصره الى وسط العراق نجد الكوفه التي نشأت بعد البصره ، بثلاث سنوات شغلت وظيفه الحيرة التجارية ، وان موقعها لا يقل اهمية من الناحية التجارية عنه من الناحيتين الادارية والعسكرية ، لان حوض القسم الاوسط من نهر الفرات كحوض الاوسط من نهر دجله ، اذ يتضمن عدة مسالك تسير عليها قوافل التجارة من سهل العراق وبين الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وفي شمال الكوفة يقترب وادي الفرات من وادي دجله مما يسهل حركة الاتصالات بينهما . كما أن افرع

---

(١) المصدر نفسه ـ ٧/ ٥٠ .
(٢) عيون الاخبار ـ ١/ ١٧٥ .
(٣) المدينة العربية ـ ص ٧٦ .

الفرات وقنواته المتجهة نحو دجله حيث تتخذ مجاريها في اوقات السلم سبلا للنقل المائي بين النهرين في حين تستخدم ضفافها كطرق لسير القوافل بينهما . وفضلا عن ذلك تتجه بعض مسالك من داخل الصحراء السورية وبعض من داخل بلاد العرب الى منطقة الكوفه .

وتركزت التجارة في مناطق معينه من الكوفه ، فكانت الكناسة ودار الرزق من اهم هذه المراكز ، فالكناسة في الكوفه مثل المربد في البصره ، مكان واسع للتجارة واناخة الابل وتحميل البضائع وتفريغها ، وبها سوق البزازين وآخر لبيع الرقيق ودار الرزق عند جسر الزوارق المقام على الفرات ، كانت مخزنا لجمع غنائم الحرب (١) ، ثم اصبحت بعد ذلك مركزا تجاريا مهما في الكوفه ، كما انها قامت بدور كبير في الحركات والاضطرابات والفتن الداخلية التي حدثت في الكوفه خلال تاريخها الطويل ، والى جانب هذين المركزين ، كانت هناك اسواق كثيرة في المدينة تقوم بمهمة التجارة الداخلية فيها(٢) .

والى الشمال من الكوفة نشأت الموصل بمسافة ٥٠٠ كم على ضفة دجلة الغربية وكانت واسعة التجارة لانها تقع على الطريق الذي يصل الشرق بالغرب ، فهي فرصة لاذربيجان وارمينية والعراق والشام ، ولها احياء وبواد كثيره تضيف في مصايفها وتشتوا في مشاتيها(٣) . فكانت تصدر الى بغداد الدقيق والسكر والعسل والسمن والجبن ونعل الخيل وغير ذلك(٤) .

ومنح موقع واسط لها اهمية تجارية عظيمة ، فقد كانت منذ نشأتها ملتقى عدة

---

(١) البراقي ـ تاريخ الكوفه ـ ص ٢٢ .
(٢) ماسيون ـ خطط الكوفه ـ ص ٢٢ .
(٣) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ ١/ ٢٢٩ .
(٤) ابن الجوزي ـ المنتظم ـ ١٠/ ١٧٠ .

طرق لوقوعها على دجله من جهة توسطها بين الكوفه والبصرة والمدائن والاهواز من جهة اخرى[١] ، مما أدى الى تنشيط الحركة وتبادل السلع في انحاء مختلفة من العراق ولا سيا بينها و بين مدينتي بغداد والبصره ، وقد اصبحت واسط بموقعها الجغرافي هذا جسرا يربط بين المشرق واواسط آسيا والصين من جهة وبلاد الحجاز والشام والمغرب من جهة أخرى .

وكانت بغداد ملتقى التجارة في العصر الساساني ، كما ازدهرت التجارة فيها بعدتأسيسها مباشرة ،فقد سكنها اناس من مختلف الامصار واثرها السكان الجدد على اوطانهم ، فليس من اهل بلد الا ولهم فيها محلة ومتجر ومتصرف ، فاجتمع بها ما ليس في مدينة اخرى ، وادى موقعها التجاري الممتاز وجريان دجله والفرات في حافتها الى ايصال الموارد التجارية بايسر السبل برا وبحرا ، حتى اجتمعت فيها بضائع المشرق والمغرب من ارض الاسلام وغيرها . فتأتيها التجارة من الهند والسند والصين والتبت وبلاد ما وراء النهر والترك والخزر والحبشة وسائر البلدان[٢] ، وازدهرت التجارة في اسواق بغداد الكثيرة المتنوعة لكثرة ما يتداول بها من سلع ومواد استهلاكية وكماليه ، حتى ان الكبش كان يباع بدرهم والحمل بأربعة دوانق ، وينادي على لحم الغنم في سوق الجزارين كل ستين رطلا بدرهم ولحم البقر كل تسعين رطلا بدرهم . . الخ .

ولهذا الامن والرخص كثر سكان بغداد وكثر الدارج في اسواقها حتى ان المار لا يستطيع ان يجتاز اسواقها لكثرة زحام أهلها ، مما اضطر المنصور أن يأمر التجار بالخروج من المدينة لأنها ضاقت بهم ، فشيد لهم سوقا خارج المدينة يعرف بسوق الكرخ ، وكان يباع فيه مختلف البضائع وبمرور الزمن كثر التجار في الكرخ ، وضاق

---

(١) ابو الفدا ـ تقويم البلدان ـ ص ٣٠٦ .
(٢) اليعقوبي ـ البلدان ـ ص ٢٣٤ .

بهم ، فبنى التجار اسواقا من اموالهم حتى اتسع الكرخ[1] .

والى الشمال من بغداد على بعد (٨٠) ميلا نشأت سامرا بالقرب من ضفة دجلة اليسرى ، فقد اعتنى عندبنائها في الناحية التجارية ، فوسعت صفوف الاسواق المتعددة المتنوعة الاصناف ، كسوق الزجاج والخزف واسواق الخبازين والقصابين والصاغة والبزازين والبقالين ، كما كان فيها مرسى السفن التجارية التي ترد على ما يذكر اليعقوبي [2] من بغداد وواسط وسائر السواد والبصره والايله والاهواز وما يتصل بذلك ، ومن الموصل وبصرياتا وديار بكر وربيعة وما اتصل بذلك .

واصبحت في كربلا والنجف وغيرهما من المدن الدينية حركة تجارية نشطة نظرا لتقاطر الزوار عليهم من كل حدب وصوب في مواسم معلومة من السنة ، فكثرت فيهما الاسواق والمخازن والفنادق والخانات والربض لايواء الابل والخيل والحمير ، مما ساعد على نمو المدينتين باضطراد نتيجة لهذه الهجرة السكانية المؤقته .

---

(١) لسترنج ـ بغداد في ظل الخلافة العباسية ـ ص ١٨١ .

(٢) البلدان ـ ص ٣٦٣ وما بعدها .

الخاتمة

نتائج البحث
المقترحات

وأخيرا يجدر بنا في خاتمة هذه الدراسة ، ان ندرج نتائج ما توصل اليه البحث وذلك لايضاح بعض معالم هذا المجهود وما يمكن ان يكون فيه من لمسة رأي ، كما أن ايمان الباحث بالناحية العلمية الهادفة ، فقد رأى ان يدرج أيضا في هذه الخاتمة المقترحات والتوصيات التي يراها كفيلة بأحداث تغيير حضري منسق النواحي على أساس تخطيط مدير يوصي من الاستنتاجات التي وصل اليها ، فمن حيث النتائج التي توصل اليها الباحث في أثناء دراسته للموضوع هي :

١ ـ توصل الى أن العراق قد صار قبل الاسلام المركز الرئيسي للامبراطورية الشرقية تبعا لضرورة التطور التاريخي ، وهذه الخصوصية ـ كما أراها ـ اتاحها له موقعه الجغرافي فهو يقع في وسط العالم القديم ، كما يشكل موقعه أيضا حجر الزاوية لبلاد العرب ، فقد اتخذه ـ كما أسلفنا ـ الفرس في كل أدوارهم السياسية دروعا واقيه لعمق ايران بلادهم ، كما اتخذه الاسكندر المقدوني وخلفاؤه مقرا لامبراطوريته الواسعة يومذاك .

٢ ـ وتوصل الباحث في القسم الاول الى عملية فرز وتحليل عوامل نشأة المدن الاسلامية في تتبع وتركيب لوصفه عناصرها المتباينة كحقائق عن النشأة والنمو والتدهور .

ومن نتائج البحث في هذا القسم تحقيق أسماء مدن البصره وبغداد وسامرا على أنها أسماء آرامية بدلا من ان تكون مشتقة من طبيعة الارض كالبصره أو مأخوذه من الفارسية كبغداد وسامرا ، أما اسم كربلا فقد ارجعه البحث الى

اللغة البابلية لوجاهته التاريخية .

٣ ـ وتوصل الباحث في القسم الثاني الى النتائج الآتية :

أ ـ ناقش الموضع وأثره في التبيوء الاجتماعي وخلص من ذلك الى ان المناخ له صلة في انتقال الحضارة من معقل إلى آخر، كما خلص أيضا في دراسته لمواقع المدن الاسلامية الى أنها لم تحطم استمرارية الميراث الحضري القديم ولو أنها أنشئت انشاء .

ب ـ وصف الباحث في موضوع العامل الفني أثر الخطط في تطور المدن الاسلامية وحصل ببراعة ـ وهو يدرس موضوع الخطط ـ على نقطتين اساسيتين الاولى : تحليل أثر الخطط الخاص بكل مدينة ، كتحول خطط الكوفه مثلا من الخيام الى القصب وبعده اعتمدت في منشئاتها على اللبن والاجر ، أما الثانية فكانت : توحي بتطور الخطط العام بين مدينة وأخرى كخطط واسط مثلا التي اعتمدت على البناء الثابت الى البناء المحكم المحتشد المحاط باسوار عظام في خطط بغداد والمتسع المنتشر كشريط طويل يطل على دجله في خطط سامرا ، كما علل البحث أيضا مسألة الاشكال التي اتخذتها المدن في خططها ، وانتهى به التعليل الى ان هذه ا لاشكال لم تكن من بنات أفكار مؤسسي المدن الاسلامية في العراق بل حتمتها ظروف بيئيه تتعلق بهيئات مواضع المدن المختاره . وناقش الباحث أيضا موضوع بوابات بغداد المنحنيه وتوصل بهذه المناقشة الى انها لم تكن من اختراع أبي جعفر المنصور بل كانت بتأثير بوابات مدينة الحضر وهذه متأثرة بما هو موجود بمدينة شوتة الزبيب في مصر .

وتابع الباحث دراسته للعامل الفني في موضوع العوامل المؤثره في تصميم الوحده المعمارية واستنتج من ذلك بأن العوامل المدينية والبيئيه لها اكبر الاثر في توجيه هذا التصميم ، فحصلت للباحث القناعة من ملائمة المسكن الاسلامي ذي الصحن المفتوح للظروف المناخيه والمحليه ، كما حذر الباحث في مجال دراسته

لتصميم الوحده المعمارية من مغبة الغزو المعماري الغربي ، واكد على التمسك بالثقافة المعمارية المحليه .

حـ ـ بين الباحث في دراسته للعامل الاجتماعي فاعلية حركة الفتح الاسلامي والمدن في اختلاط القبائل العربية ، كما بين ارتباط نمو هذه المدن بهجرة القبائل اليها ، في حين احالت هذه الهجرة تسيب البدوي الى ساكني المدن .

وحلل البحث موضوع هذا الانتشار الحضري الذي وضع أساسه أمير المؤمنين عمر في العراق وفي غيره من الامصار فانتهى الى أنه حفظ عروبة العراق كما ثبتت بهذا الانتشار أيضا الرقعة المساحية له . وتوصل الباحث الى أن العرب كانوا عنصرا أساسيا في تأسيس البصرة والكوفة والموصل ولم يكونوا عنصرا وافدا أو ثانويا .

د ـ وفي موضوع أثر العامل الاقتصادي في تطور المدن توصل البحث الى فعالية كل من الزراعة والمهن الحرفية والتجارة الى تحويل دور الهجرة من مراكز عسكرية الى مجتمعات حضرية تمارس مختلف الفعالية المدنية .

هـ ـ وناقش البحث في ملحقه الأول موقف القرآن في مسألة التمييز بين القرية والمدينة ، وخلص البحث الى ان القرآن يميز بينهما على أساس من الصيغة القضائية والسياسية ، كما درس البحث في ملحقه الثاني شخصية الصحابي عتبه بن غزوان التي اهملها المحدثون ، فاثبت بدراسته ان هذا الصحابي من أبرز قادة الفتح الاسلامي لسبقه في الاسلام وجهاده في سبيله وتمصيره البصره .

أما المقترحات والتوصيات فقد تناولت أمورا معماريه واجتماعية واقتصادية وصحيه وحضاريه . فمن حيث الأمور المعمارية ، يرى الباحث ان العمارة العراقية تمر اليوم بخصيصة قلقة ، وان المشكلة تهم المعماريين والمهندسين في العراق الذي

ازدهرت فيه العماره سابقا ووصلت الى مرتبة عاليه بحيث اصبحت له شخصية معمارية مميزة نضعها في مصاف أرقى الفنون المعماريه التي وصلت اليها الانسانية في تاريخها الطويل ، فيراها الباحث اليوم وقد نبذت بكل أسف جملة وتفصيلا في كل ميادين الثقافة والتعمير واستبدلت بعمارة أجنبية تحت مبرر التجديد ، لم يكن لها بالامكان ان تثبت في ارضنا اذ ما سارت الامور على طبيعتها وطبقا لأصول المنطق والعلم الحديث . فيتمنى الباحث لو أن الدولة تعيد النظر في سياستها المعمارية وذلك ببعث التراث المعماري المحلي الذي رافق كل منشأة معمارية قديمة أو اسلامية ، وفقا لتصميم الوحدة المعمارية بالعوامل ان تبنيه والظروف المناخيه ، كما حدث فعلا في تصاميم خطط المدن الاسلامية ، ولا مانع من اقتباس بعض الجوانب المعمارية الغربية في تطوير عمارتنا المحلية بشرط ان لا يطغى هذا الاقتباس على تصميم الوحدة المعمارية المحلية ، كما يقترح الباحث على ان تعيد الدولة النظر في عملية استيراد مواد البناء وان تعتمد العملية البنائية في البلد على مواد البناء المحلية كالتراب والطين والرمل والحجر والصخر والآجر وسيقان الاشجار واغصانها كمواد بناء تتمتع بخصائص متفوقة وان جدران الطين العريضة كانت فعالة من حيث حفظها للحرارة ، وقد صدق أمير المؤمنين عمر عندما خاطب اهل الكوفه ، « ان يعرضوا الحيطان ولا يطاولوا بالبنيان » . واليوم تبنى الجدران رقيقه وخصائصها الحرارية سيئة جدا مما يوجب اللجوء الى التبريد الميكانيكي ، وأن ٦٠٪ من الطاقة الكهربائية ـ كما اعتقد ـ تهدر على تكييف الهواء ويمكن استعمال هذه الطاقة في الصناعة وفي تكملة كهربة الريف .

أما الاجتماعية فتتعلق بالهجرة من الريف الى الحضر ، والهجره عمليه اجتماعية لها خطرها ، فطن لها الحجاج عندما لاحظ الهجره تتزايد من الريف الى المدن فوقف ضدها بحزم خوفا على اقتصاد ولايته من التخلف فنظمها ، ولا يصح في هذا العصر أن تترك فوضى دون تنظيم أو اشراف ، فليس كل من يهاجر الى المدينة صالحا للهجرة

اليها والاشتغال في مصانعها ، والأمر ـ كما يوصي الباحث ـ يتطلب اختيار المهاجرين وتوجيههم وتدريبهم ومساعدتهم حتى يتم استقرارهم في اوضاعهم الجديدة في الاطار الحضري الذي يختلف تمام الاختلاف عن الاطار القروي وليس اختيار المهاجرين وتوجيههم وانزالهم في المدينة والاشراف عليهم وتدريبهم بالأمر المعجز بعد ان اصبح من اليسير تنظيم الهجرة من القرى الى المدن بعد المضي في نظام الحكم المحلي الذي جعل من كل محافظة وحدة ادارية مستقلة الى حد بعيد ، فيمكن انشاء مكتب للاختيار المهني في كل محافظة وظيفته اختيار القرويين الصالحين للمهن المعروضة في المناطق الصناعية ، ثم ارسالهم اليها حيث تتلقفهم فيها مكاتب التوجيه المهني التي تشرف على تدريبهم في المهن الجديدة التي اختيروا لها ثم ترسلهم الى مكاتب التوظيف التي تقوم بارشادهم الى الوظائف الخاليه في المشروعات الصناعية المختلفة .

وأما الاقتصاديه فترتبط بالتوسع المعماري نتيجة للزيادة السكانية وتطور الادارة الحكومية في الوقت الحاضر على حساب الاراضي الزراعية المطله على الانهار والغربية منها التي ابتلعتها المنشآت الحكومية والاهلية التي لا حد لها ، ويعني هذا طغيان العامل الاستهلاكي على العامل الانتاجي ، واذا ضربنا قليلا في القدم لرأينا مسئولي الدولة الاسلامية يركزون اهتمامهم بالأمن الغذائي لمدنهم فهذا امير المؤمنين عمر بن الخطاب يحذر اهل البصره من استغلال الارض بلا رحمه خوفا عليها من الخراب ، فعبر عن ذلك بقوله : ان لا ينهكوا سطح الارض لأن شحمتها فيه . وهذا الحجاج يشق انهارا كثيرة في المنطقة الصحراوية المجاوره لواسط ويجعل من تلك المنطقة مرفقا غذائيا لمدينته . في حين كان المنصور مدركا تماما لأمن مدينته الغذائي عندما عالج التوسع التجاري والاجتماعي لبغداد بأن حول الاسواق والسكان للسكنى في مناطق زراعة فعوضها بأخرى صحراويه فاستصلحها لأنه لا يستطيع أن يبتعد عن النهر ولأن امكانياته المتاحة له في نقل الماء وخلافه كانت

محدوده انـذاك . ولـكن نرى ما يجـري اليوم خلاف ما جرى فالمباني الحكومية والمساكن الاهلية بلا انصاف تكتسح ـ مع الاسف ـ أراضي زراعية واسعة في معظم المدن العراقية ، فبأسم التوسع المعماري الاداري والاهلي في بغداد وغيرها ابتلعت مساحات واسعة من الاراضي الزراعية التي كانت الى وقت قرب تشكل امنا غذائيا لهذه المدن ، فاقترح ـ وانا كلي امل ـ بان تقوم الدولة باستغلال الاراضي الصحراوية المجاورة لمعظم المدن العـراقيه لاغـراض السـكن وغـيره وهـذا الأمـر ليس صعبـا ومستحيلا ما دامت الدولة تمتلك كافة الامكانيات التي تجعـل من الصحـراء هذه الارض المعطله صالحة للسكنى فالتكنولوجيا الحديثه بامكانها بكل يسر أن توصـل المياه الى أي مكان تريده الدوله وفي أي وقت .

وأما الصحية فلها علاقة بالغطاءالنباتـي في ساحات وشـوارع المدن ، وقـد اسهم ـ كما مر بنا ـ منشئوا المدن العربيـة الاسلامية في العراق وبخاصة في بغداد وسامرا في حملة تشجير واسعة النطاق في شوارعها ورحابهـا وذلك لتلـطيف الجـو وتيسير التنفس وصد العواصف المقبره عن مدنهم ، فالحدائق والاشجار ان وجدت في المدن فهي ـ في تقـديري ـ رئـاء لهـا ، والآن وبـكل أسف نرى قلـع الحدائـق والاشجار في داخل المدن ولتصبح اماكنها ساحات لوقوف السيارات او تحت مبرر توسيع الشوارع لتيسير مرورالسيارات والسايله ، فيقترح الباحث ـ وهو يتابع اهتمام القدماء بتشجيرمدنهم ـ على ان تعير الدولة اهتمامها لهذه المسألة وتحاول بامكانياتها الضخمة ان تعيد الى مدينة المنصور وباقي المدن العراقية نظارتها النباتية ، مثل ما كانـت عليه في السابـق ايام المنصـور وغـيره من المسئولـين في الدولـة العربية الاسلامية .

وأخيرا ينبغي على الدولة ان ترعى وتهتم بالمعالم الحضارية وذلك بالاعتناء بها والحفاظ عليها والقيام بترميمها ان دعت الحاجه الى ذلك .

يقترح الباحث أن تبقى هذه المعالم قائمة في ساحات حفاظا عليها وذلك لأنها تشكل الأساس في ميراث البلاد الحضاري عبر تاريخها الطويل ، فهي بصماته التي يتحدى بها المكان والزمان .

١ ـ موقف القرآن الكريم من التمييز بين القرية والمدينة

قبل ان اتحدث عن موقف القرآن الكريم في مسألة التفريق بين القرية والمدينة ، ينبغي علي ان أتتبع المصدر اللغوي الذي اشتقت منه لفظة مدينة وقرية ، كما اتتبع أيضا الدراسات الحديثة التي عالجت الفرق بينهما عبر السنين .

المدينة ـ في نظر ابن منظور(١) ـ مأخوذة من مدن بالمكان أي أقام به ، ومنه المدينة على وزن فعيلة وتجمع على مدائن بالهمز ومدن بالتخفيف والتثقيل ، وفلان مدن المدائن يعني مصرها ، والمدينة الحصن يبني في أصطمة(٢)من الأرض ، وكل أرض يبنى بها حصن في اصطمتها فهي مدينة ، وهي تعني ـ عند الفيروزابادي(٣) ـ كبرها واتساعها ، والنسبة اليها مديني والجمع مدن أو مدائن .

ولكن البحث اللغوي المقارن يوضح أن لفظة مدينة ـ لدى د . محمود حجازي(٤) ـ لا ترجع الى المادة (مدن) على الرغم من وجود الكلمات مدن وتمدن ومدينة بل ترجع الى المادة (د . ي . ن) ، فاللغات السامية كالاكدية والبالية والاشورية تعرف الدين بمعنى القانون ، والديان في الآرامية والعبرية هو القاضي ،

---

(١) لسان العرب ـ ١٧/٢٨٨ ـ ٢٨٩ .
(٢) القاموس المحيط ـ ٤/١٩٥ .
(٣) الاصطمة ـ معظم الشيء ـ تمامه ـ ابن منظور ـ لسان العرب ـ مادة صطم .
(٤) المدخل في علم اللغة ـ ص ١٢٦ وما بعدها .

وبيت الدين هو مقر الحكم والمحكمة في الآرامية والعبرية ، وتعرف في العربية الدائن والمدين مصطلحين قانونيين . فالمادة كلها تعني القانون وما يتعلق به من ضوابط والتزامات. أما الصيغة الميمية التي نجدها في كلمة مدينة فان مصدرها مأخوذ من لفظ آرامي مدينتا ومعناه في الآرامية مكان القضاء وهو يمثل وحدة ادارية قضائية هي المدينة والقرى المجاورة التابعة لها . وما يزال لفظ قضاء يستخدم في العراق ، فيقال قضاء البصرة وقضاء الكوفة . . . . الخ .

أما القرية ـ فعند ابن منظور[1] ـ لغتان ـ المصر الجامع ، وعند الجوهري[2] القرية معروفة والجمع القرى على غير قياس ، وهي من المساكن والابنية والضياع والنسب اليها قرئي أو قروي ـ .

تعتبر القرية في الدراسات الحديثة كل تجمع للسكان قل عدده عن ٥٠٠ نسمة في حين يتجمع في المدينة ما يتراوح بين ٥٠٠ ,١٠,٠٠٠ نسمة أو أكثر من ذلك .

ويبدو أن المسألة ليست بتحديد عدد السكان ومقدار حجم تجمعهم بل ان المسألة تتعلق قبل كل شيء بالمظاهر العامة التي تكتسبها القرية . وهذه المظاهر ترتبط تماما بحياة الحقل في موسم البذر وموسم الري وموسم الحصاد ، كذلك فان ترتيب حياة القرية متصل اتصالا وثيقا بحياة الحقل ولا تظهر هذه الصلة في مواسم العمل فقط بل تظهر كذلك في مواسم الاعياد الريفية ، فنجد الاغاني تعبر عن الريف والزرع والليل والقمر والنجوم والساقية . . . . . الخ ، فالقرية لها طابع خاص يجعلها تختلف تماما عن المدينة من أوجه كثيرة ، منها الصيغة القضائية التي تمنح المدينة حقوقا وتفرض عليها واجبات معينة تميزها عن القرية كاقامة الاسواق

(١) لسان العرب ـ ١٥/ ١٧٧ .
(٢) الصحاح ـ ٢/ ٥٣٣ .

والحصون والاسوار ، فهي على حد تعبير بيرين[1] ـ جزيرة قضائية في وسط القرى ـ والمدينة أيضا حقيقة مادية مرئية في المظهر الارضي ، ويمكن أن تتعرف عليها بمظهر وحداتها المعمارية المتباينة الوظيفية وطبيعة شوارعها ، ففيه . كما ـ أرى ـ تجسيم ملموس لاسس أخرى لكثافة السكان وكتلة البناء والبعد التاريخي والحيثية الادارية . كما أن فيه تعبيرا ملحوظا عن الوظائف المدنية ، فتتميز المدينة ـ على ما يوضح دوريس[2] ـ بشكلها المنتظم بدرجة أو بأخرى ، وبمظهرها المتنوع المؤلف من عناصر شديدة التباين جدا ـ ومن البديهي كذلك ان القرية ـ كما أشرنا ـ قد عاشت للزراعة وعلى الزراعة ، وان المدينة هي ما ليس كذلك ، فاساس التفرقة هنا هو نمط الحياة ، فالقرية منتجة والمدينة مستهلكة . فالمدينة ـ عند زمبارت ـ تركز بشري يعتمد في غذائه على نتاج عمل زراعي خارجي[3] . كما ان المدينة ـ على حد تعبير راترك[4] ـ اتحاد طويل الأمد بين الجماعة والمساكن البشرية ، تغطي مساحة كبيرة وتوجد عند تقاطع ومفترق الطرق التجارية الكبرى ـ وان المدن ـ كما يراها فاجنر[5] ـ نقط تركيز التجارةالبشرية . ويضيف ـ ريشتوفن[6] ـ الى جانب التجارة الانشطة الحرفية والصناعية .

واذا كان الفرق بينالقرية والمدينة يسير وفق هذه الأمور ـ فاذن ما هو موقف القرآن الكريم من مسألة هذا الفرق ؟ ونحن نعلم أن فيه آيات عديدة ذكرت لفظتي القرية والمدينة في سور مكية ومدنية .

ورد في القرآن الكريم ذكر القرية بثلاث وخمسين آية ، خمس وأربعون آية منها مكية ، وثماني مدنيات ، وخوطبت القريه فيه بصيغة المفرد مثال ذلك قوله تعالى :

---

(١) Medieval Cities .

(٢) The west European City - P.112 .

(٣) Der Moderne Kapitalismus P . 76 .

(٤) Great cities of the World - P . 48 .

(٥) Marvin Mikesell - Reading in Culural Geography .

(٦) Caravan City . P . 125

« ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنه يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون[1] وأخرى بصيغة المثنى ، وهي آية واحدة وردت في سورة الزخرف[2] : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » . وثالثة بصيغة الجمع عددها تسع عشرة آية منها قوله تعالى : ولقد اهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلّهم يرجعون » [3] .

أما المدينة فقد جاء ذكرها في القرآن الكريم بسبع عشرة آية فقط ، ثلاث عشرة آية منها مكية والباقي مدنية ، ووردت فيه بصيغة المفرد في أربع عشرة آية منها قوله تعالى : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستَغَاثَهُ الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين »[4]

كما ذكرت أيضا بصيغة الجمع في ثلاث آيات منها قوله تعالى : ﴿فأرسل فرعون في المدائن حاشرين﴾[5] .

نستنتج من هذه الاحصائية التي أشرنا اليها ان اسم القرية أكثر ورودا من اسم المدينة في القرآن الكريم وقد أطلق اسم القرية على مراكز العمران المختلفة في شبه الجزيرة العربية ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿وكذلك اوحينا قُرْآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتُنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ [6] .

---

(١) النحل (مكية) ـ آية ـ ١١٢٠ .
(٢) (مكية) آية ـ ٣١ .
(٣) الاحقاف (مكية) ـ آية ـ ٢٧ .
(٤) القصص (مكية) ـ آية ـ ١٥ .
(٥) الشعراء (مكية) ـ آية ـ ٥٣ .
(٦) الشورى (مكية) ـ آية ـ ٧ .

وجاء في تفسير هذه الآية ان أم القرى هي مكة وسميت بذلك لأن أهل القرى كانوا يؤمونها أي يقصدونها من جميع أطراف شبه الجزيرة العربية . وقوله تعالى أيضا : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فَلله وللرسولِ ولذي القربى واليتمى والمسكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم وما اتيكُمُ الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب ﴾[1] . وهذه الآية الكريمة توضح انتشار القرى في شبه الجزيرة العربية وهو النمط الحضري العام والشامل فيها .

أما اسم المدينة فقد ذكره القرآن الكريم ـ في مناطق وأقاليم تقع . شمال شبه الجزيرة العربية ، فقد قال عز وجل : ﴿ وقال نسوة في المدينة امْرَأَت العزيز تراود فَتَيها عن نفسه قد شغفها حبا إنالنَرايهَا في ضلال مبين ﴾[2] . نزلت هذه الآية في العلاقة ما بين النبي يوسف (ع) وزليخة امرأة العزيز في مدينته مصر ، والعزيز في كلام العرب انه الملك[3] . وقوله تعالى : وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم فابعثوا احدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر ايها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعر بكم احدا[4] . المدينة في هذه الآية اسمها ـ كما يقرر الشيخ طنطاوي جوهري[5] ـ افسوس وهي مدينة يونانية وعليها ملك صالح يقال له بيدروس . وقوله تعالى : ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فاراد ربك ان يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا﴾[6] . المقصود بالمدينة في هذه الآية مدينة انطاكيا

(١) الحشر (مدنية) ـ آية ـ ٧ .
(٢) يوسف (مكية) ـ آية ـ ٣٠ .
(٣) الطبري ـ التفسير ـ ٦/ ٦٢ .
(٤) الكهف ـ مكية ـ ١٩ .
(٥) الجواهر في تفسير القرآن الكريم ـ ٩/ ١٢٥ ـ ١٢٦ . (٦) الكهف (مكية) ـ آية ـ ٨٢ .

التركية[1] . وقوله تعالى أيضا : ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بانفسهم عن نفسه ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوٍ نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع اجر المحسنين﴾[2] . نزلت هذه الآية في أهل الاسلام وهم قلة في المدينة المنورة[3] .

ويبدو ـ وأنا اتلمس طريقي بين آيات القرآن الكريم ـ ان هذه المدن جميعها تقع في بلدان عليها ملوك وحكام . ففيها ـ على وجه التحقيق ـ الصيغة القضائية والدينية والادارية والسياسية ، فجاء تمييز المدينة عن القرية في القرآن الكريم على أساس سمة التقاضي الذي أشار اليه اللفظ الآرامي سلفا .

---

(١) الشيخ طنطاوي جوهري ـ الجواهر في تفسير القرآن الكريم ـ ٩/ ١٨٦ .
(٢) التوبة (مدنية) ـ آية ـ ١٢٠ .
(٣) الطبري ـ التفسير ـ ١٤/ ٥٦٣ .

٢ ـ عتبة بن غزوان

هو عتبة بن جابر بن وهيب بن نسيب بن مالك بن الحارث بن عوف بن مازن ، ويكني أبا عبد الله وكان رجلا طويلا جميلا قديم الاسلام[١] ـ ولد في مكة سنة ٥٨١ م ومات رحمه الله سنة ٦٣٨ عن عمر يناهز السابعة والخمسين.

وكان عتبة احد السابقين الى الاسلام ، فقد ذكر في احدى خطبه أنه كان سابع سبعة مع رسول الله (ص)[٢] . ولما اشتد اذى قريش للمسلمين هاجر عتبة مع من هاجر من المسلمين الى الحبشة[٣] . وهناك اتصل بالمهاجرين ، وعندما خبروا ان قريشا قد أسلمت ، انصرف قوم منهم اليها كان عتبة من بينهم[٤] فوجدوا فيها البلاء والاذى على المسلمين ، ولكنهم صبروا الى أن هاجروا بعد النبي (ص) الى المدينة ، وقد هاجر عتبة اليها رفيقا للمقداد بن عمرو ونزل على عياد بن بشر في داره[٥] .

وفي المدينة شارك عتبة النبي (ص) في جهاده واعانه مع اخوانه المؤمنين على

(١) ابن هشام ـ السيرة ـ ١/ ٣٤٥ .
(٢) ابن سعد ـ الطبقات ـ ٦/٧ .
(٣) ابن هشام ـ المصدر السابق ـ ١/ ٣٤٦ .
(٤) المصدر نفسه ـ ١/ ٣٨٩ .
(٥) ابن حزم ـ جوامع السيرة ـ ص ٦٥ .

نشر الاسلام وحمايته ، فقد بعث النبي (ص) في السنة الثانية للهجرة ثمانية من المهاجرين بقيادة عبد الله بن جحش الاسدي كان أحدهم عتبة بن غزوان . وكان هؤلاء من الفدائيين لذلك اختارهم الرسول (ص) من أبطال المهاجرين المعروفين لأن واجبهم كان خطيرا .

وكانت مهمة هذا الواجب هي ترصد قريش ، ومعرفة أخبارها فساروا حتى نزلوا بموضع يقال له نخلة ، فمرت ابل لقريش ، تحمل - على ما يذكر ابن الأثير[1] - زبيبا وغيره ، فباغتوها استاقوا ابلها ، ورجعوا الى المدينة غانمين .

واستمر كفاح عتبة تحت راية الرسول (ص) في نشر وحماية الاسلام في غزوة بدر الكبرى والغزوات التي تلتها وابلى فيها بلاء حسنا[2] .

وبذل عتبة بن غزوان بعد الرسول (ص) في أيام الخليفة أبي بكر الصديق أقصى جهده في مقاتلة المرتدين، فقد كان له أكبر الأثر في اعادة المرتدين من أهل عُمان ومهره في جنوب شرق الجزيرة العربية الى عقيدة الاسلام تلك البلاد العربية التي أصبحت قاعدة عسكرية متقدمة لامداد الفاتحين بالرجال والسيرة والتموين .

وفي أيام الخليفة عمر بن الخطاب بعد أن عادت رايات المسلمين ترفرف على كافة شبه الجزيرة العربية سار عتبة بن غزوان الى العراق بأمر منه سنة ١٤ هـ لجهاد الفرس بمنطقة الابله في جنوبه موصيا اياه : يا عتبة اني قد استعملتك على أرض الهند وهي حومة من حومات العدو أرجو أن يكفيك الله ما حولها وعينيك عليها ، وأدع الى الله فمن اجابك فأقبل منه ومن أبي فالجزية ، والا فالسيف[3] .

ونفذ عتبة بن غزوان وصايا الخليفة بحذافيرها عندما وصل العراق ، ففتح

(١) الكامل في التاريخ - ٢/ ٧٩ .
(٢) ابن سعد - المصدر السابق - ٣/ ٩٩ .
(٣) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ٢/ ٣٣٨ .

ـ كما مر بنا ـ الابله ومصر البصرة وأصبح أميرا عليها ، وجعلها قاعدة ينطلق منها شمالا وشرقا الى حيث يكمن الفرس .

وقد حالف النجاح عتبة في كل فتوحاته بمناطق الفرس ، وكانت خسائره في الارواح والاموال بتلك الفتوحات قليلة جدا اذا ما قيست بما بذله المسلمون في سبيل نشر الاسلام في وقائعهم الحربية مع قواد آخرين ، وهذا راجع ـ كما ارى ـ لمزايا وصفات شخصية يتحلى بها عتبة منذ نعومة أظفاره عن غيره من قادة الفتح العربي .

كان عتبة بن غزوان ـ كما يحدثنا التاريخ عنه ـ من القادة المشهورين الذين يتحينون الفرص المناسبة للقتال ولا يزجون قواتهم في قتال غير مأمون العواقب ولا مضمون النتائج لذلك كانت كل معاركه فرص مواتيه اهتبلها أو يطلب من الخليفة نفذ فيها الاوامر حرفيا . وأنه قائد منيع لا مبتدع دفاعي لا تعرضي ، لهذا كانت خسائره قليلة جدا بالنسبة للفتوحات التي أجراها في ايامه القصيرة عند توليه امارة البصرة .

وكان عتبة بن غزوان قائدا عقائديا يعمل لعقيدته ويخاف الله عليها ويبالغ بهذا الخوف ، فقد خطب مرة في البصرة وهو أمير عليها قائلا : لقد رأيتني مع رسول الله (ص) سابع سبعة ما لنا طعام الا ورق اليشام[1] ، وشوك القتادة[2] حتى قرحت أشداقنا ، ولقد التقت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن ابي وقاص ولقد رايتنا بعد ذلك وما منا أيها الرهط السبعة الا أمير على مصر من الامصار[3] .

ومن يتصفح كتب الطبقات والوفيات والتاريخ يلاحظ ان عتبة كان يعتبر

(١) اليشام ـ شجر طيب الريح يستاك به . } مختار الصحاح ـ ص ٥٢١ .
(٢) القتادة ـ شجر له أشواك . }
(٣) ابن سعد ـ الطبقات ـ ٧/٧ .

منصبه قائدا وأميرا تكليفا له لا تشريفا ليباهي به ويحرص عليه . ولولا شدة خوفه من الله أن يقصر في عمله وشدة حرصه على أرواح المسلمين لكان عتبة من أبـرز قادة الفتح الاسلامي ، لأنه كان يتمتع بقابلية اصدار القرارات الصحيحة السريعة ، كما كان يتصف بالشجاعة والاقدام اللذين ينبعان من ارادة قوية ونفسية لا تتبدل .

وادا كان جهاده ، وانتصاراته في نشر وحماية الاسلام لا تعطيه صفة الصدارة بين قادة الفتح الاسلامي فان سبقه للاسلام و تمصيره البصرة فبالتأكيد تعطيه هذه الصفة ، وهذه المدينة امدت العالم الاسلامي منذ نشأتها حتى اليوم بجموع غفيرة من قادة الفتح والفاتحين وصلواالى حدود الصين . باعداد وفيرة من قادة الفكر والعلماء والادباء والشعراء وأصحاب الورع والتقوى ، فكانت أعظم قواعد الفتح الاسلامي ومن أغـزر مصـادر الفـكر العربـي والتـراث الاسلامـي ، فلا بد لهـذا الصحابي القائد أن يأخذ نصيبه من دارسي التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية رضي الله عن الصحابي الجليل الورع عتبة بن غزوان المازني .

أ ـ المصادر :

ملحوظتان :

١ ـ القرآن الكريم وكتب التفاسير ذكرت قبل ذكر المخطوطات والمطبوعات في هذا الثبت .

٢ ـ الأسلوب الذي اتبع في تنظيم هذا الثبت سار على عدم الاخذ بالملحقات (ابن ، أن ، أبو ، أبي) .

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ جوهري طنطاوي ـ الجواهر في تفسير القرآن الكريم ـ / ١٣٥٠ هـ

٣ ـ الطبري ـ محمد بن جرير ـ تفسير الطبري ـ القاهرة/ ١٩٦٨ .

المخطوطات :

ابن أعثم ـ أحمد بن عثمان الكوفي الكندي (٣١٤ هـ) .

١ ـ كتاب الفتوح ـ ـ (رقيقة) في المكتبة الوطنية العراقية تحت رقم (٦٤٢) عن الأصل الموجود في مكتبة أحمد الثالث في اسطنبول برقم (٢٩٥٦) .

البلاذري ـ أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ)

٢ ـ أنساب الأشراف ـ الجزء الرابع ـ مخطوطة مصورة في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب بجامعة بغداد تحت رقم (١٦٣٤) عن المخطوطة الأصلية في معهد المخطوطات العربية في الرباط رقم (٦٨) .

الحميري الحميري - محمد بن عبد الله (ت ٦١٠ هـ)

٣ ـ الروض المعطار في خير الأقطار (رقيقة) في مكتبة المجمع العلمي العراقي تحت رقم (٢٤٣٦) عن الأصل الموجود في مكتبة نور عثمانية باسطنبول برقم (٣١٢٥) .

ب ـ المطبوعات :

١ ـ ابن آدم	يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣) الخراج ـ ليدن / ١٨٩٥
٢ ـ ابن الأثير	عز الدين علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٢٣م) أ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة.القاهرة/ ١٢٨٠ هـ . ب ـ الكامل في التاريخ.القاهرة / ١٣٧٧ هـ
٣ ـ ابن الاخوة	محمد بن محمد بن احمد القرشي (ت ٧٢٩ هـ) معالم القرية في احكام الحسبة غير نقله وتصحيحه روبين لبوي (كمبردج ١٩٣٧)
٤ ـ الأزدي	أبو زكريا يزيد بن محمد (٣٣٤ هـ) تاريخ الموصل تحقيق د . على حبيبة.القاهرة ١٩٦٧
٥ ـ الأزهري	أبي منصور محمد بن احمد (ت ٣٧٠ هـ) تهذيب اللغة . تحقيق عبد الكريم العزاوي . القاهرة/ ١٩٦٦
٦ ـ الاصطخري	ابو أسحق ابراهيم بن محمد (ت ١٤٦ هـ) مسالك الممالك : بعناية ديفويه (ليدن/ ١٩٢٧)
٧ ـ الاصفهاني	أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ) الاغاني : دار الكتب المصرية القاهرة / ١٩٣١

٨ ـ بحشل — اسلم بن سهل الرزاز (ت ٢٩٢ هـ)
تاريخ واسط ـ تحقيق كوكيس عواد (بغداد ١٩٦٧)

٩ ـ ابن بسام — محمد بن احمد (سنة وفاته ما زالت مجهولة)
نهاية الرتبة في طلب الحسبة ـ تحقيق حسام الدين السامرائي ـ بغداد / ١٩٦٨

١٠ ـ ابن بطوطة — أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللوائي (ت ٧٧٩ هـ)
الرحلة : تحفة النظار مع غرائب الأمصار وعجائب الأشعار ـ بيروت/ ١٩٦٤

١١ ـ البكري — أبو عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ)
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع تحقيق مصطفى السقا القاهرة / ١٩٤٩

١٢ ـ البلاذري — احمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ)
أ ـ انساب الاشراف ـ جـ ١١ ـ ط ـ اهلورت (غريفزولد ١٨٨٣ م)
ب ـ فتوح البلدان ـ نشر صلاح الدين المنجد القاهرة/ ١٩٥٧

١٣ ـ التنوخي — أبو علي الحسن بن علي بن محمد (ت ٣٨٤ هـ)
أ ـ كتاب جوامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ـ تحقيق عبود الشانجي بيروت/ ١٩٧٢
ب ـ المستجاد من فعلات الاجواد دمشق/ ١٩٤٦

١٤ ـ الجاحظ — ابو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥)
أ ـ البيان والتبيين ـ تحقيق عبد السلام هارون القاهرة / ١٩٤٩

ب ـ التبصر بالتجارة ـ تحقيق حسن حسني
عبد الوهاب التونسي ـ بيروت / ١٩٦٦
جـ ـ مناقب الأتراك ـ تشرفان فلوتني ـ ١٩٠٣

١٥ ـ أبي جبير — محمد بن احمد بن جبير الكناني
الرحلة بيروت / ١٩٦٨

١٦ ـ ابن الجوزي — أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن
علي بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)
أ ـ مناقب بغداد ـ نشره محمد بهجت الأثري
بغداد/ ١٩٢٣ م
ب ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ـ الاجزاء من
٥ ـ ١٠ حيدراباد الدكن/ ١٩٣٩

١٧ ـ الجوهري — اسماعيل بن حماد (القرن الخامس)
الصحاح ـ جزءان ـ بولاق/ القاهرة/ ١٢٨٢ هـ

١٨ ـ الجهشياري — أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ هـ)
الوزراء والكتاب ـ تحقيق مصطفى السقا ـ ابراهيم
الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ـ ط القاهرة/ ١٩٣٨

١٩ ـ ابن حبيب — أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥ هـ)
اسماء المغتالين في الاشراف في الجاهلية والاسلام
تحقيق عبد السلام هرون ـ القاهرة/ ١٩٦٤

٢٠ ـ ابن أبي الحديد — عبد الحميد بن هبة الله بن محمد (ت ٦٥٦ هـ)
شرح منهج البلاغة ـ تحقيق الشيخ حسن تميم
(بيروت/ ١٩٦٣)

٢١ ـ ابن حوقل — أبو القاسم محمد بن علي التصبي (ت ٣٦٧ هـ)

صورة الأرض ـ جزآن تحقيق كريمرز ـ ليدن/ ١٩٣٩
٢٢ ـ ابن خرداذبة	أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن احمد الخراساني (ت / ٣٠٠ هـ)
المسالك والممالك ـ ليدن/ ١٨٨٩
٢٣ ـ الخطيب البغدادي
الحافظ أبو بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) تاريخ بغداد مدينة السلام ـ ١٤ جزء ـ القاهرة ١٩٣١ م
٢٤ ـ ابن خلدون	ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت٨٠٨ هـ)
تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ بيروت ١٩٥٩
٢٥ ـ ابن خلكان	أبي بكر بن خلكان (ت ٦٨١ هـ)
وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ـ باعتناء محمد محيى الدين عبد الحميد ـ القاهرة/١٩٤٨
٢٦ ـ ابن خياط	ابو عمرو خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠ هـ)
تاريخ خليفة بن خياط تحقيق اكرم ضياء العمري النجف/١٩٦٧
٢٧ ـ ابن دريد	أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١ هـ)
الاشتقاق ـ تحقيق عبد السلام هرون ـ القاهرة ١٩٥٨ م
٢٨ ـ الديار بكري	حسين بن محمد بن الحسن (ت ٩٨٢ هـ)
تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس ـ جزءان القاهرة ـ ١٢٨٣ هـ)
٢٩ ـ الدينوري	أبو حنيفة احمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ)

الاخبار الطوال تحقيق عبد المنعم عامر القاهرة/ ١٩٦٠ م
٣٠ ـ الذهبي شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ)
أ ـ تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام
(٦ اجزاء) القاهرة/ ١٣٦٩ هـ
ب ـ دول الاسلام ـ تحقيق فهيم محمد شلتوت
ومحمد مصطفى ابراهيم القاهرة ١٩٧٤ م
٣١ ـ ابن رسته أبو علي احمد بن عمر (سنة ٢٩٠ هـ)
الاعلاق النفيسة ـ ليدن/ ١٨٩١ م
٣٢ ـ الزبير بن بكار (ت ٢٣٦ هـ)
نسب قريش ـ نشر ليفي بيرفنسال القاهرة ١٩٥٣ م
٣٣ ـ الزمخشري أبي القاسم محمود بن عمر (ت)
أساس البلاغة ـ القاهرة / ١٩٧٢
٣٤ ـ ابن سعد محمد بن سعد بن متبع البصري (ت ٢٣٠ هـ)
الطبقات الكبرى ـ بيروت / ١٩٥٨ م .
٣٥ ـ ابن سعيد المغربي علي بن موسى (ت ٦٥٨ هـ)
كتاب بسط الأرض في الطول والعرض . تحقيق
خوان قرنيط ـ المغرب/ ١٩٥٨
٣٦ ـ السمعاني أبوسعد عبد الكريم
(ت ٥٦٢هـ)
الانساب ـ (٦) اجزاء ـ ليدن/ ١٩١٢ م
٣٧ ـ ابن سيدة أبو الحسن علي بن اسماعيل (ت ٤٥٨ هـ)
المخصص ـ بولاق ـ القاهرة / ١٣٢١ هـ
٣٨ ـ السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ)
حسن المحاضرة

٣٩ ـ الشابشتي — أبو الحسن علي بن محمد (ت ٣٨٨ هـ)
الديارات ـ تحقيق كوركيس عواد ـ بغداد/ ١٩٦٦ م

٤٠ ـ الدمشقي — أبو الفضل
الاشارة الى محاسن التجارة ـ القاهرة/ ١٣١٨ هـ

٤١ ـ الشيزري — عبد الرحمن بن نصر (ت ٧٧٤ هـ)
نهاية الرتبة في طلب الحسبة ـ نشر السيد الباز
العربي القاهرة / ١٩٤٦ م .

٤٢ ـ الصابي — أبو الحسن الهلال بن المحسن الصابي الحراني
ت ٤٤٨ هـ الوزراء ـ أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء
ـ تحقيق عبد الستار احمد فراج ـ القاهرة ١٩٥٨

٤٣ ـ ابن طاهر المقدسي (ت ٣٢٢ هـ)
البدءوالتاريخ ـ نشر كلمان هوار ـ باريس١٨٩٩ ـ ١٩١٩م

٤٤ ـ الطبري — أد جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠)
تاريخ الرسل والملوك ـ تحقيق محمد أبو الفضل
القاهرة / ١٩٦٩ م

٤٥ ـ ابن الطقطقي — محمد بن علي بن طباطب العلوي (ت ٧٠٩)
الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية
بيروت/ ١٩٦٠

٤٦ ـ الشيخ الطوسي — أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠ هـ)
الأمالي ـ جزءان ـ منشورات المكتبة الأهلية
بغداد/ ١٩٦٤

٤٧ ـ ابن عبد البر — أبي عمر يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣)
الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ حيدر اباد الدكن ١٣١٩

٤٨ ـ ابن عبد الحق البغدادي — صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي ت ٧٣٩ مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ـ تحقيق محمد البجاوي القاهرة ١٩٥٥

٤٩ ـ ابن عبد ربه — أبو عمر واحمد بن محمد (ت ٣٢٨ هـ) العقد الفريد ـ تحقيق محمد سعيد العريان القاهرة ١٩٤٠

٥٠ ـ ابن العبري — غريفوريوس الملطي أبو الفرج بن هارون (ت ٦٨٥ هـ) مختصر الدول ـ بيروت/ ١٩٥٨

٥١ ـ أبو عبيد — القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) الاموال ـ تحقيق محمد خليل هراس ـ القاهرة ١٩٧٥

٥٢ ـ ابن عساكر — علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (ت ٥٧١ هـ) تاريخ دمشق ـ تحقيق صلاح الدين المنجد دمشق ١٩٥١ .

٥٣ ـ ابن العماد — أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ نشر مكتبة القدس ـ القاهرة ١٣٥١ هـ

٥٤ ـ ابن فارس — احمد (ت ٣٩٥ هـ) معجم مقاييس اللغة ـ تحقيق عبد السلام هرون القاهرة/ ١٣٦٩

٥٥ ـ أبو الفدا — الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل (ت ٧٣٢ هـ)
أ ـ تقويم البلدان ـ باعتناء ماك كوكين ديسلان باريس ١٨٤٠
ب ـ المختصر في تاريخ البشر ـ بيروت ـ بدون تاريخ

٥٦ ـ ابن الفقيه أبو بكر احمد بن محمد الهمداني (ت ٣٤٠)
مختصر كتاب البلدان ليدن/ ١٨٨٥
٥٧ ـ الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ)
القاموس المحيط (٤) اجزاء (بولاق ـ القاهرة ١٢٨٩ هـ)
٥٨ ـ القالي أبو علي اسماعيل بن القالي البغدادي (ت ٩٦٦ هـ)
ذيل الامالي والنوادر ـ منشورات الهيئة المصرية ١٩٧٥
٥٩ ـ ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ)
أ ـ الامامة والسياسة ـ تحقيق الدكتور طه محمد
الزيني القاهرة ١٩٦٧
ب ـ عيون الاخبار نشر دار الكتب المصرية ١٩٣٠
جـ ـ المعـارف ـ تحقيق ثروت عكاشة القاهرة ١٩٦٠
٦٠ ـ القزويني أبو زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ)
آثار البلاد وأخبار العباد ـ بيروت/ ١٩٦٠ م
٦١ ـ الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠ هـ)
الاحكام السلطانية ـ القاهرة ١٩٦٠ م .
٦٢ ـ المبرد أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ)
الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف ـ تحقيق
محمد أبو الفضل ابراهيم ـ القاهرة ١٩٥٦ م
٦٣ ـ أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن نقري بردى (ت ٨٧٤ هـ)
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ دار الكتب
المصرية/ ١٩٥٦ م
٦٤ ـ المرزباني أبي عبد الله محمد بن عمران بن موسى
(ت ٣٧٨ هـ) معجم الشعراء ـ تحقيق عبد الستار

احمد فراج القاهرة/ ١٩٦٠ م .

٦٥ ـ المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين بين علي المسعـودي
ت ٣٤٦ هـ
أ ـ الاشراف والتنبيه ـ بيروت ١٩٦٥
ب ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤) اجزاء
بيروت ١٩٦٥ م

٦٦ ـ ابن مسكويه أبو علي بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١ هـ)
تجارب الأمم وتعاقب الهمم

٦٧ ـ المقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي
بكير المقدسي البشاري (ت ٣٧٥ هـ)
أحسن التقاسيم في ذكر الأقاليم ـ ليدن ١٩٠٦ م

٦٨ ـ المقريزي تقي الدين أبو العباس احمد بن علي بن
عبد القادر (ت ٨٤٥ هـ)
أ ـ الخطط (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط
والآراء .)
ب ـ شذور العقود في ذكر النقود ـ تحقيق
محمد بحر العلوم ـ النجف ١٩٦٣ م .

٦٩ ـ ابن المنجم اسحق بن الحسين (ت ٥٦١ هـ)
احكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في
كل مكان تحقيق كودازي (روما ١٩٢٩)

٧٠ ـ المنذري عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥١ هـ)
التكملة لوفيات النقلة ـ تحقيق بشار عواد معروف ١٩٧٦

٧١ ـ ابن منظور أبو الفضل محمد بن مكرم الانصاري (ت ٧١١ هـ)
لسان العرب ـ بيروت ١٩٧٠ م .

٧٢ ـ مؤلف مجهول الحوادث الجامعة ـ بغداد ١٣٥٠ هـ

٧٣ ـ مؤلف مجهول (نهاية القرن السادس الهجري)
العيون والحدائق في اخبار الحقائق ـ ليدن ١٨٧١

٧٤ ـ ابن النديم أبو الفرج محمد بن اسحق (ت ٣٨٥ هـ)
الفهرست ـ نشر مكتبة خياط (بيروت ١٩٦٤ م)

٧٥ ـ ابن وكيع محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦ هـ)
اخبار القضاة ـ تحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي
٣ اجزاء القاهرة (١٩٤٧ ـ ١٩٥٠ م)

٧٦ ـ ابن هشام عبد الملك الحميدي (ت ٢١٠)
السيرة النبوية القاهرة ١٩٣٦

٧٧ ـ الهمداني أبي محمد الحسن بن احمد بن يعقوب
(ت ٣٣٤ هـ) صفة جزيرة العرب ـ تحقيق محمد
بن عبد الله النجدي القاهرة ١٩٥٣ م .

٧٨ ـ ياقوت شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي
(ت ١٨٤٦ م .)
أ ـ المشترك وضعا والمفترق صقعا ـ باعتناء
وشتنفلد ١٨٤٦ م
ب ـ معجم البلدان ـ بيروت ١٩٥٦ م .

٧٩ ـ اليعقوبي :ـ احمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (ت ٢٨٤ هـ)
أ ـ البلدان ـ ليدن/ ١٨٩٢م
ب ـ التاريخ ـ بيروت/ ١٩٦٠م

٨٠ ـ ابو يوسف القاضي يقعوب بن ابراهيم الأنصاري (ت ١٨٢ هـ)
الخراج ـ نشر المطبعة السلقية ومكتبتها ـ القاهـرة ١٣٩٢
هـ .

المراجع

تشتمل المراجع على :

أ ـ الدراسات العربية الحديثة

ب ـ الدراسات المترجمة الى العربية

جـ ـ الدراسات الأجنبية

د ـ الدوريات

أ ـ الدراسات العربية الحديثة

٨١ ـ ابراهيم أمين غالي
سيناء المصرية عبر التاريخ/ القاهرة/ ١٩٧٦
٨٢ ـ ابراهيم سليمان العاملي
الأوزان والمقادير ـ لبنان ـ صور ـ ١٩٦٢
٨٣ ـ الدكتور ابراهيم شريف
الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخة العام حتى الفتح الاسلامي ـ بغداد ١٩٥٤ .
٨٤ ـ الدكتور احمد ابراهيم شريف
العالم الاسلامي في العصر العباسي ق ٢ القاهرة ١٩٧٣
٨٥ ـ أحمد أمين
ظهر الاسلام ـ القاهرة ١٩٦٦
٨٦ ـ الدكتور احمد حسنين
أصول الاقتصاد الزراعي ـ القاهرة ١٩٧٤
٨٧ ـ الدكتور احمد سوسه
الدليل الجغرافي لخارطة بغداد ـ بغداد ١٩٥٢
٨٨ ـ الدكتور احمد شلبي
موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية (٧ اجزاء)

أ ـ الجزء الأول : دراسات حول علم التاريخ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ السيرة النبوية العطرة ـ فلسفة الدعوة الاسلامية ـ عصر الخلفاء الراشدين القاهرة ١٩٧٤

ب ـ الجزء الثاني : الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية في عهدها ـ القاهرة ط ٤/ ١٩٧٤

ـ الجزء الثالث : الخلافة العباسية / ط ٥ القاهرة ١٩٧٤

٨٩ ـ احمد علي

ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد ـ بيروت ١٩٦٩

٩٠ ـ احمد فكري

مساجد القاهرة ومدارسها « المدخل » القاهرة ١٩٦١

٩١ ـ انستاس ماري الكرملي

النقود العربية وعلم النميات ـ بغداد ١٩٣٩

٩٢ ـ البراقي حسين احمد

تاريخ الكوفة ـ النجف ١٩٦٠

٩٣ ـ الدكتور جاسم الخلف

جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية القاهرة ١٩٦٥ .

٩٤ ـ جرجي زيدان

تاريخ التمدن الاسلامي ـ القاهرة ١٩٥٨

٩٥ ـ الدكتور جمال حمدان

أ ـ جغرافية المدن ـ القاهرة ١٩٧٧

ب ـ المدينة العربية ـ نشر معهد الدراسات العربية ١٩٦٤

٩٦ ـ جميل نخلة المدور

حضارة الاسلام في دار السلام ـ القاهرة ١٩٣٥

٩٧ ـ الدكتور حسن ابراهيم حسن
تاريخ الاسلام السياسي (الجزء الأول) القاهرة ١٩٦٤
٩٨ ـ روفائيل بأبواسحق
تاريخ نصارى العراق بغداد ١٩٦٠
٩٩ ـ الزركلي خير الدين
الاعلام ـ بيروت ١٩٧٠
١٠٠ ـ الدكتور زكي محمد حسن
فنون الاسلام ـ القاهرة ١٩٤٨
١٠١ ـ سعيد الافغاني
اسواق العرب في الجاهلية والاسلام ـ دمشق ١٩٦٠
١٠٢ ـ سعيد الديوه جي
خطط الموصل ـ الموصل ١٩٥٣
١٠٣ ـ شكري فيصل
حركة الفتح الاسلامي ـ بيروت ١٩٧٤
١٠٤ ـ د . صالح احمد العلي
التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ـ بيروت ١٩٦٩
١٠٥ ـ د . ضياء الريس
الخراج والنظم المالية ـ القاهرة ـ دار المعارف ١٩٦٨
١٠٦ ـ ابن طاووس
فرحة العزي ـ النجف ١٩٢٨
١٠٧ ـ طه باقر
مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (العراق) بغداد ١٩٥٥
١٠٨ ـ عبد الحسين الكلدار

بغية النبلاء في تاريخ كربلاء ـ العراق ١٩٦٨
١٠٩ ـ عبد الرزاق الحسني
العراق قديما وحديثا ـ بغداد ١٩٥٩
١١٠ ـ د . عبد العزيز الدوري
أ ـ الجذور التاريخية للقومية العربية بغداد ١٩٦٣
ب ـ دراسات في الصور العباسية المتأخرة ـ بغداد ١٩٤٥
جـ ـ العصر العباسي الأول ـ بغداد ١٩٤١
د ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ـ بيروت ١٩٦٩
١١١ ـ د . عبد العزيز صالح
الشرق الأدنى القديم ، مصر والعراق ـ القاهرة ١٩٧٦
١١٢ ـ د . علي حسني الخربوطلي
تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ـ القاهرة ١٩٥٩
١١٣ ـ فؤاد سفر
المرشد الى موطن الآثار والحضارة ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ١٩٦٦
١١٤ ـ د . فيصل السامر
ثورة الزنج ـ بيروت ١٩٧١
١١٥ ـ فيليب حتي
تاريخ العرب « مطول » بيروت ١٩٥٣ م
١١٦ ـ القس أبو الفرج
آثارنا في الاقليم السوري ـ دمشق ١٩٦٤
١١٧ ـ ماجد عبد الله الشمس
الحضر بغداد ـ ١٩٦٨
١١٨ ـ محبوبة ، جعفر باقي

ماضي النجف وحاضرها ـ النجف / ١٩
١١٩ ـ محسن الأمين العاملي
أعيان الشيعة ـ النجف ١٩٤٣
١٢٠ ـ د . محمد جمال سرور
تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ـ القاهرة ١٩٦٨
١٢١ ـ د . محمد حسين الزبيدي
الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة ـ بغداد ١٩٧٠
١٢٢ ـ د . محمد رشيد الفيل
جغرافية العراق التاريخية ـ النجف ١٩٦٢ م
١٢٣ ـ محمد السماوي
مجال الطف ـ النجف ١٩٥٣ م
١٢٤ ـ محمد كرد علي
الادارة الاسلامية في عزالعرب ـ القاهرة ١٩٣٤ م
١٢٥ ـ د . مصطفى جواد
. دليل خارطة بغداد ـ بغداد ١٩٥٨ م
١٢٦ ـ ناصر النقشبندي
الدرهم الأموي ـ بغداد ١٩٧٣ م
١٢٧ ـ د . نجيب ميخائيل
حضارات الشرق القديم « مصر والعراق وفارس » القاهرة ١٩٦٧
١٢٨ ـ هبة الدين الشهرستاني
نهضة الحسين ـ بغداد ١٩٢٦ م
١٢٩ ـ الدكتور يوسف خليف
حياة الشعر في الكوفة ـ القاهرة ١٩٦٨ م

١٣٠ ـ يوسف رزق الله غنيمة

أ ـ الحيرة ـ بغداد ١٩٢٦

ب ـ مدن العراق ـ بغداد ١٩٢٨

الدراسات المترجمة الى العربية

١٣١ - آدم متز

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري - ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة القاهرة ١٩٥٧

١٣٢ - آرثر كرستنسن

ايران في العهد الساساني - ترجمة الدكتور يحيى الخشاب - القاهرة ١٩٥٧ .

١٣٣ - آيشو عدناج

الديورة في مملكتي الفرس والعرب - ترجمة بولص شيخو - الموصل ١٩٣٩

١٣٤ - بارتويد

الحضارة الاسلامية - ترجمة حمزة طاهر عن التركية القاهرة ١٩٥٨

١٣٥ - بروكلمان كاسل

تاريخ الشعوب الاسلامية - ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي - بيروت ١٩٧٤ ط٦

١٣٦ - بندلي جوزي

من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام بيروت - د . ت

١٣٧ - بنيامين التطيلي الاندلس بن يونه (ت ٥٦٩/ ١١٧٣ م

الرحلة - ترجمها عن الأصل العبري وعلق على حواشيها وكتب ملحقاتها عزرا حداد - بغداد ١٩٤٥

١٣٨ ـ تربتون ـ آرثر ستانلي
اهل الذمة في الاسلام ـ ترجمة الدكتور حسن حسني - القاهرة ١٩٦٧
١٣٩ ـ جوردن آيست
الجغرافية توجه التاريخ ـ ترجمة جمال الدين الدناصوري طبعة دار الهلال د . ت .
١٤٠ ـ جيمس هنري برستد
انتصار الحضارة ترجمة دكتور احمد فخري ـ القاهرة ١٩٦٩
١٤١ ـ دروثي مكاي
مدن العراق القديمة ترجمة يوسف يعقوب مسكوني - بغداد ١٩٥٢ .
١٤٢ ـ ديلا بورت (ل)
بلاد ما بين النهرين ـ ترجمة محرم كمال - القاهرة / د . ت
١٤٣ ـ ديماند . م . س
الفنون الاسلامية ـ ترجمة احمد محمد عيسى - القاهرة ١٩٥٨
١٤٤ ـ ديموبين ـ موريس جودفرو
النظم الاسلامية ـ ترجمة صالح الشماع وفيصل السامر ـ بغداد ١٩٥٢
١٤٥ ـ رالف لنتون
شجرة الحضارة ـ ترجمة احمد فخري - القاهرة ١٩٥٨
١٤٦ ـ ريجارد كوك
بغداد مدينة الاسلام ـ ترجمة فؤاد جميل ـ ود . مصطفى جواد بغداد ١٩٦٢
١٤٧ ـ زمباور ـ ادوارد
معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ـ اخرجه د . زكي محمد حسن وحسن احمد محمود ـ القاهرة ١٩٥١ .
١٤٨ ـ سيد أمير علي

مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ـ ترجمة رياض رأفت ـ القاهرة ١٩٣٨
١٤٩ ـ شارك بلات
الجاحظ ـ ترجمة ابراهيم الكيلاني ـ دمشق ١٩٦١
١٥٠ ـ فلانين
عرب الاحواز في جنوب العراق ـ ترجمة الدكتور حسين خياط ـ مغداد ١٩٦٦
١٥١ ـ كستر ـ م . ج .
الحيرة ومكة ـ ترجمة الدكتور يحيى الجبوري ـ بغداد ١٩٧٦
١٥٢ ـ كولستون . ج . ج .
عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ـ ترجمة د . جوزيف نسيم يوسف القاهرة ١٩٦٧ .
١٥٣ ـ كونك (آرنست)
الفن الاسلامي ـ ترجمة الدكتور احمد موسى ـ بيروت ١٩٦٦
١٥٤ ـ لسترنج ـ غي ـ
أ ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية ـ ترجمة بشير فرنسيس ـ بغداد ١٩٣٦
ب ـ بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد بغداد ١٩٥٤
١٥٥ ـ لويس مفورد
المدينة على مر العصور ـ ترجمة الدكتور ابراهيم نصحي ـ القاهرة ١٩٦١
١٥٦ ـ مولوي حسيني
الادارة العربية ـ ترجمة الدكتور ابراهيم احمد العدوى ـ القاهرة ـ د . ت .
١٥٧ ـ ماسنيون . ل
خطط الكوفة وشرح خريطتها ـ ترجمة تقي المصعبي ـ صيدا ١٩٣٩ .

١٥٨ ـ ناصر خسرو علوي
سفرنامة ـ ترجمة وتعليق الدكتور يحيى الخشاب ـ القاهرة ١٩٤٥ .
١٥٩ ـ نيكلسون
تاريخ الأدب العربي ـ ترجمة . د . صفاء خلوصي ـ بغداد ١٩٧٢
١٦٠ ـ وليس بج
رحلات الى العراق ـ ترجمة فؤاد جميل ـ بغداد ١٩٦٩
١٦١ ـ يوهان فك
العربية ـ دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ترجمة الدكتور النجار (طبعة جماعة الأزهر)

الدراسات الأجنبية :

1) A . Baven : Land of two Rivers . London , 1923 .
2) Berges : The city . London , 1953
3) Cooley . C . H . Theory of transportation . in sociological Theory and social Research , IV . Y . 1930
4) Cornish , Voughan : The great capitals . London , 1923 .
5) Deffantains Dierne : Geograhy - et - Religion .
6) Dickinson . R . E . : City and Region . London , 1964 .
7) Elbert , Horani : The Islamic Cities in the Light recent Research , Oxford , 1970 .
8) Emrys Jones : Towns and cities , Oxford - 1966 .
9) Fisher : A History of Europe, London , 1963 .
10) Geddes . D . : Cities in Evolution . London , 1915 .
11) Gibbs , Jack , Editors Urban research Method , Van Nastrond , Privceton , 1964 .
12) G . Chabot : Urban Geography London , 1967 .
13) H. Rawlinson : Baghdad : Encyclobedia of Britanica .
14) Helair Bellock : The Roadn N . Y 1939 .
15) James . H . Johnson ; Urban Geographyan introductory nalysis 1968 .
16) K . A . C . Creswell : Early Muslim Architecture , London , 1968 .
17) Lablash : Drinciples of human Geography transportation .
18) Lewies Aumford : The Natural history ofurbanization . Chicago , 1958 .

Mayer , H . M . : Editors , Reading in the urban , Geography Chicago , 1965 .
Pierrelavidan : Geografie des willes , Paris , 1949 .
Pirene , Medisval Cities , N Y . 1973 .
Robert. M . Adams : The origin of Cities . N . Y . 1960 .
Seton Loyed : Fondation in the dust ., London , 1932 . Seton Loyed : Ruined cities of Iraq . London . 1938 .
Streck : Encyclobedia of Islam . Baghdad .
W . deary : Arabia before Muhamad . London , 1927 .
Zettersteen : The Encyclobedia of Islam . Art (Kufa)

د ـ الدوريات

١ ـ المجلات

١ ـ الاعتدال ـ ١٠/ ١٩٣٨ (بحث في واسط) للشيخ علي الشرقي

ب ـ الاقلام العراقية ـ ٢٠/ ١٩٦٤ (مقابر قريش) للشيخ محمد حسن آل ياسين .

الحوليات السورية ـ ١٩٥١ (اعادة تشييد جناح قصر الجبر الغربي) للسيد سليمان عادل عبد الحق .

جـ ـ سومر

١ ـ ٥/ ٢/ ١٩٤٩ (آثار العراق في نظر الأقدمين)لكوركيس عواد

٢ ـ ٨/ ١/ ١٩٥٢ (الموصل في العهد الاتابكي) للأستاذ سعيد الدبودجي

٣ ـ ٢٤/ ٢/ ١٩٦٨ (مدارس الموصل) للأستاذ سعيد الدبودجي .

د ـ العربي ـ ١٩٦٩ (ملكيات الأراضي في الحجاز في القرن الأول الهجري) الدكتور ـ صالح احمد العلي .

و ـ كلية الآداب البغدادية ٧/ ١٩٦٤ (عروبة المدن الاسلامية) للدكتور ناجي معروف .

٢ ـ المقالات :

أ ـ مقال الأستاذ الدكتور جمال حمدان ـ منشور في مجلة الجغرافية المصرية باللغة الانكليزية في العدد ٤٧

ب ـ مقالة للبروفسور (كارل جوهان لام) منشورة في مجلة كلية الآداب القاهـرية باللغة الانكليزية في المجلد الثالث جزء أول .

الخلاصة

يبدو مما سبق ان العراق قد مهد السبيل للانسان منذ ظهوره نوفـر له المأوى ووسائل الاستيطان من الكهف الى القرية ثم المدينة .

وقد أظهرت هذه الدراسة ان اية محاولة لتصنيف مدن العراق سواء من حيث المنشأ أم الوظيفة ام البنية يجب أن نأخذ العامل الزمني بنظر الاعتبار .

من حيث المنشأ ظهر أن تأسيسها من اسهام جماعات بشرية مختلفة وحضارات متعددة كان آخرها الحضارة العربية الاسلامية موضوع هذه الدراسة .

أما من حيث الوظيفة وهي مبرر قيام المدينة فقد ظهر ان هذه المراكز الحضرية وبخاصة الاسلامية قد نشـأت لاغـراض مختلفـة منهـا عسـكرية وادارية وسياسية ودينية .

وأما من حيث البنية فقد أصابتها تحولات في فترات تاريخية فرضتها عوامـل جغرافية وفنية واجتماعية واقتصادية .

والمدن الاسلامية في العراق قد اسهمت في نشأتها أربعة عوامل تاريخية مختلفة كانت مبررا لاقامتها ، كما واكبتها أربعـة عوامـل تاريخية أخـرى أثـرت في نموهـا وتطورها فيه ، فجعل البحث من عوامل التشكيل هذه اساسا تستند عليها دراسة المدينة الاسلامية في العراق مقسما اياها الى قسمين تتقدمهما مقدمة . يعقبها تمهيد وقسمان ولكل قسم منها أربعة فصول ثم خاتمة ، أما المقدمة فعقدت لبيان الأسباب التي دفعت الباحث لاعداد هذا البحث وطريقة البحث فيه ، وأما التمهيد فتصدى

لجغرافية العراق وأثرها في التوزيع المدني والسكاني فيه ، ممهدا بذلك لنشأة وتطور المدن الاسلامية موضوع هذا البحث .

تناولت الدراسة في قسمها الأول التصنيف لعوامل نشأة هذه المدن موزعة هذا التصنيف على أربعة فصول ، هي :

١ ـ الفصل الأول : وعنوانه (العامل العسكري) تعرضت فيه الدراسة لنشأة كل من أمصار البصرة والكوفة والموصل ، وكانت هذه الأمصار من ضرورات الفتح في البداية ، اذ لا بد من انشاء مراكز عسكرية للسيطرة ، ويلاحظ جميعا أنها مواضع على هامش الصحراء .

٢ ـ الفصل الثاني : وعنوانه (العامل الاداري) تصدت فيه الدراسة لنشأة مدينة واسط ، التي بواسطتها استطاعت السلطة الاموية ان تقضي على التجزئة الادارية في العراق ، بعد ان كانت الادارة مرتبطة بمصرى البصرة والكوفة .

٣ ـ الفصل الثالث : وعنوانه (العامل السياسي) فقد تناولت الدراسة فيه نشأة كل من بغداد وسامرا ، منذ ان تطورت السيادة في الاسلام من سيادة عامة الى سيادة أسرية ، ومن ثم حرصت الاسر التي تنال النجاح على تكوين مدينة تكون مركزا لها ودليلا على انتصارها وقد تكررت هذه الظاهرة في الحياة الاسلامية .

٤ ـ الفصل الرابع : وعنوانه (العامل الديني) فقد تعرضت فيه الدراسة لنشأة المدن الدينية حول اضرحة الامام علي والحسين وموسى الكاظم ، فنشأت حول هذه الاضرحة كل من النجف وكربلا والكاظمية على التوالي .

أما القسم الثاني وعنوانه : « تطور مدن هذا العصر » ويشتمل على أربعة فصول أيضا هي : ـ

١ ـ الفصل الأول : وعنوانه (العامل الجغرافي) فقد درس فيه أثر العامل الجغرافي في تطور المدن الاسلامية من خلال دراسة مواقع المدن الاسلامية ، وما تمتاز به من نشاط زراعي وتجاري ووفرة مياه .

٢ ـ الفصل الثاني : وعنوانه (العامل الفني) فقد عالجت الدراسة فيه خطط المدن الاسلامية وأثر الفنون الاجنبية كالساسانية والبيزنطية على هذه الخطط ، كما تناولت تأثير العوامل الدينية والاجتماعية والعسكرية والجغرافية في تصميم الوحدة المعمارية في خطط هذه المدن .

٣ ـ الفصل الثالث : وعنوانه (العامل الاجتماعي) فقد اشتملت الدراسة في هذا العامل على أثر هذا العامل على تطور المدن الاسلامية ونموها مصنفة اياه على أثر المجتمع العربي القبائل والاعاجم وأهل الذمة في تطور ونمو هذه المدن .

٤ ـ أما الفصل الرابع والأخير : وعنوانه (العامل الاقتصادي) فعقدته الدراسة عن أثر هذا العامل في نمو مدن هذا العصر ، فبنيت هذه الدراسة في هذا الفصل أثر الزراعة والنشاط الحرفي والتجاري في اتساع هذه المدن .

وضمنت هذه الدراسة خاتمة هذا البحث النتائج التي توصلت اليها بعد ان عايشت المدن الاسلامية في العراق داخل اطار العوامل التاريخية البارزة في مجال الدراسات الحضارية على وجه الخصوص .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد (١٤٩)
لسنة ١٩٨٢

الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والاعلام
دار الرشيد للنشر
١٩٨٢

تصميم الغلاف : لمياء نعمان

توزيع
الدار الوطنية للتوزيع والاعلان